د. شفيق ناظم الغبرا

إسرائيل والعرب

من صراع القضايا إلى سلام المصالح

إسرائيل والعرب

من صراع القضايا إلى سلام المصالح

اسرائيل والعرب: من صراع القضايا إلى سلام المصالح / سياسة
د. شفيق ناظم الغبرا / مؤلف
الطبعة العربية الأولى ، ١٩٩٧

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقة الجنزير ، بناية برج الكارلتون ،
ص.ب : ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي : موكيالي ، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس LE/ DIRKAY ٤٠٠٦٧
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع ، عمّان
ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٦٠٥٤٣٢ ، فاكس ٦٨٥٥٠١
تصميم الغلاف والإشراف الفني :
محمد حسيب ®
الصف الضوئي :
مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان

الاهداء:
الى والدي

مقدمة

شكلت مفاوضات مدريد التي بدأت في اوكتوبر ١٩٩١ ، بداية لعملية سلمية معقدة الابعاد ، تترك كل يوم اثارا كبيرة في الواقع السياسي العربي . فبعد عقود من الصراع ، المسلح وصلت الدول العربية كما وصلت اسرائيل الى حقيقة ان الصراع يجب ان يحل على طاولة المفاوضات . فبعد سقوط الاتحاد السوفياتي ، واختلال الموازين التي تحكمت بالنظام العالمي السائد منذ الحرب العالمية الثانية ، وبعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠-١٩٩١ وتداعياتها ، تبين ان التفاوض والسعي نحو حل سلمي عربي اسرائيلي في منطقة الشرق الاوسط ، هو اقصر السبل للتصدي لجملة التحديات التي تتكشف امام صناع القرار العرب وامام المجتمعات العربية .

ومنذ ان بدأت مفاوضات مدريد في ديسمبر ١٩٩١ بين اسرائيل وكل من سوريا ولبنان والاردن والفلسطينيين وبمشاركة دولية ، يمكن القول ان مرحلة جديدة من الصراع والسلام بين العرب واسرائيل قد بدأت . فالسلام الذي تشهده منطقتنا سوف يصل في نهايه المرحلة لتأمين سلام شبه شامل بين اسرائيل ومعظم الدول العربيه . لكن عمليه السلام ماكانت لتكون لولا عوامل آنية وتجارب تاريخية عميقة ومكثفة . فأسبابه تقع في اماكن عديدة من تطور الصراع العربي الاسرائيلي منذ بدءه حتى اليوم . اي ان مسيرة الفشل والنجاح ، وتجارب الهزيمة والصمود على مدى العقود ، شكلت سوية ارثا سياسيا وعسكريا تحول بحد ذاته للاساس الذي يقوم عليه السعي نحو سلام اليوم . بل ان هذا الارث من حيث النجاح والفشل ، اصبح مرآة العرب وتعبيرا عن الطريقة التي يقيمون موقعهم السياسي ونقاط ضعفهم او قوتهم . فالارث التاريخي يتحكم بنظرتهم لانفسهم ، ولحالهم ولما هو ممكن لهم ولما هو صعب عليهم .

ان هذا الكتاب محاولة لنقد التجربة التاريخية ، ومحاولة لتطبيق اساس موضوعي ، في فهم الصراع العربي الاسرائيلي ومعنى التحول نحو السلام . فهو كتاب عن مراحل متداخلة ، وعن طموحات سقطت مع الزمن ، واخرى استمرت متضمنة بالشكل الذي يصاغ به سلام اليوم . فرغم سقوط اهداف عديدة (التحرير الكامل ، العودة الشاملة ، انهاء الوجود الصهيوني في فلسطين) ، الا ان الفلسطينيين لم يغيروا هدفهم الذي بقي متضمنا في مراحل مواجهاتهم مع الصهيونية الا وهو اقامة دولة فلسطينية . وبالرغم من هزيمة ١٩٦٧ ، وكوارث لاحقة لها ، لازال الهدف السوري في استعادة الجولان ، وبناء توازن جغرافي عسكري سياسي لايقل عن الهدف الاسرائيلي في المحافظة على التفوق العسكري والامني والسعي للاحتفاظ بما يمكن الاحتفاظ به من الجولان المحتل . وبالرغم من التحرك نحو السلام ، الا ان الهدف العربي لازال في اساسياته يسعى للحفاظ على الذات والاحتماء من آفاق طموحات اسرائيلية بالسيطرة او التوسع في مجالات الاقتصاد او غيرها . وبين كل الاطراف اللبنانية والسورية والمصرية والاردنية والفلسطينية ، يتبلور سلام يبحث عن الجديد وسط اقليم تتناوبه رياح تتمسك بالقديم ، واخرى تهيؤه للتغيير في اساليبه وطرق تفكيره وتفاعله مع العالم . ان هذا الكتاب اذن ، محاولة لوضع الامور في اطارها ، وتحليل للصراع والسلام دون جعل العاطفة تسيطر على العقل او القلب .

وينقسم الكتاب الى سبعة فصول متداخلة . ففي الفصل الاول " النقد الذاتي والجذور التاريخية للسلام العربي الاسرائيلي" نتعامل مع الاطار التاريخي الذي يتحكم اليوم بالخيار السلمي . فهذا الفصل مراجعة نقدية لكيفية تعامل العرب مع حروب ومواجهات ومراحل الصراع العربي الاسرائيلي . ان هذا الفصل يقوم على ان معرفة الممكن وغير الممكن في الصراع العربي الاسرائيلي ، تفرض زيارة للتاريخ ورؤية لاخطاء العرب في ادارة هذا الصراع ابان مراحله المختلفه . ولاندعي ان هذا العمل هو عمل نهائي وان الرأي فيه لا يحتمل الصواب والخطأ ، ولكن علينا ان نبدأ من مكان ما لنقد تجربتنا السابقة . وكأي نقد قد تكون ملامحه ـة ، الا انه ضروري لوضع الماضي في اطاره الذي يؤدي للحاضر ، وبالتالي للولوج بنجاح حلة لها سماتها و ابعادها الجديدة . ان المسيرة السلمية التي لا تأخذ التاريخ الحقيقي طابي والانفعالي للصراع ، هي مقتل حقيقي للعرب ودولهم ومجتمعاتهم ، وهي الاساس ي يؤدي لصراعات قادمة غير محسوبة تأكل من كرامة الاطراف العربيه وسيادتها .

اما الفصل الثاني " الاستقلال الوطني في العالم العربي : حالة الفلسطينيين" فهو تقييم مكثف ومتداخل لتجربة الحركة الوطنية الفلسطينية الحديثة وطبيعة المعوقات التي واجهتها

وساهمت في منعها من تحقيق الكثير من اهدافها السياسية والعسكرية . ومن أجل استكناه طبيعة العقبات التي منعت الفلسطينيين من التوصل إلى الكثير من اهدافهم ، تُدرس وتحلل الفوارق بين النموذج المعتاد لحركات التحرر الوطني العربي ، وبين الحركة الوطنية الفلسطينية ، مع الالتفات بصورة خاصة إلى كل من الطبيعة الفريدة للصراع الفلسطيني – الاسرائيلي ، وطبيعة الشتات الفلسطيني ، ووهن القاعدة الاجتماعية – الاقتصادية لحركة التحرر الفلسطيني ، وظروف الانتفاضة . ويقوّم الفصل ايضا ، آثار أزمة الخليج والغزو العراقي على الحركة الوطنية الفلسطينية . ان هذا الفصل يقدم فهما خاصا لظروف حركة التحرر الفلسطيني ، ويوضح بدقة طبيعة المصاعب التي واجهتها ، وبالتالي التي اثرت في مسيرتها انتصاراتها وهزائمها وفي اخطائها وفي شكل الحلول السلميه التي تجد الان انها يجب ان تنخرط بها . ان هذا الفصل يقدم تقييما نقديا ولكن بروح تقييمه لتجربة الحركة الوطنيه الفلسطينية . وهو فصل يهدف الى فتح الباب لاعادة دراسة تلك المراحل المركبة والعصيبة بكل ابعادها .

ويعالج الفصل الثالث " الانتفاضة الفلسطينيه : بين الاسباب والآثار" . وقد وجدنا ان تركيز فصل في الكتاب على الانتفاضة ، سوف يساهم في توضيح اهميتها واثرها على الخيارات السلميه لجميع الاطراف الفلسطينية والاسرائيلية . ان هذا الفصل يحلل الظروف التاريخية التي ادت الى الانتفاضة والتي حولتها لقوة متنامية في مواجهة الاحتلال الاسرائيلي . فالانتفاضة نجحت في نقل مركز الحركة الوطنية الفلسطينية من الخارج للداخل ، ومن المنافي الى الوطن ، وهي ايضا خلقت لدى القيادة الفلسطينية حسا اكثر واقعية حول الممكن والمستحيل في العمل السياسي الفلسطيني . بل تبين ابان الانتفاضة كم ان ثمن أدامتها على صعيد المجتمع الفلسطيني كبير ، من حيث الموارد والطاقات ، ومن حيث توقف التعليم وغلق المدارس والاضرابات اليومية وتردي الوضع الاقتصادي . لقد كانت الانتفاضة عملا كبيرا ولكنها بنفس الوقت لم تكن عملا سهلا من حيث ثمنها الاجتماعي والاقتصادي والاسري على الفلسطينيين . ولكنها فوق كل شيء قادت عدداً من الاطراف : القيادة الفلسطينية ، قطاعات هامة من النخبة الاسرائيليه الى خلاصة رئيسية : حتمية التعايش وضرورة الوصول لصيغة تتجاوز الصراع المفتوح .

اما الفصل الرابع "السياسة الاسرائيلية وصراع التيارات" فيهدف الى توضيح الابعاد المتعددة في السياسة الاسرائيلية نحو الارض والامن والفلسطينيين والعرب . ان هذا الفصل يعكس متابعة دقيقة وغنية لسياسة التشكيلات الاسرائيلية الحاكمة منذ نشوء الدولة عام ١٩٤٨ حتى حكومة الليكود منذ انتخابات ١٩٩٦ . وينقسم هذا الفصل الى ثمانية أجزاء .

نتعرض في الجزء الاول منه الى طبيعة التحالف الحاكم والتغيرات التي طرأت عليه في المرحلة الاولى من عمر الدولة حتى عام ١٩٦٧ . وفي الجزء الثاني نشرح معاني حرب ١٩٦٧ وأثرها على الامن ومفهوم الارض وطبيعة التغييرات التي كانت قد بدأت في بواطن المجتمع الاسرائيلي . أما الجزء الثالث فيتضمن شرحا لاثر حرب ١٩٧٣ على الحكم في إسرائيل كما وعلى المجتمع ، إضافة لطبيعة أزمة حزب العمل التي فجرتها تلك الحرب ، والجذور الموضوعية التي أدت الى نمو اليمين والليكود . أما في الجزء الرابع من الدراسة ، فنتعرض لطبيعة ومعنى وصول اليمين الي السلطة ، والمراحل المختلفة التي مر فيها تحالف الليكود أبان حكمه . في هذا الجزء شرح لطبيعة الازمة الاسرائيلية التي أدت الى فشل برنامج الليكود التاريخي ، بما أدى (وهذا هو مضمون الجزء الخامس) الى تشكيل الحكومة الائتلافية الاولى عام ١٩٨٤ . أما الجزء السادس فهو عن أثر الانتفاضة الفلسطينية على التحالف الحاكم والقوى السياسية الاسرائيلية . اما الجزء السابع فهو عن حكومة العمل الفائزة في انتخابات ١٩٩٢ ، ومرحلة تطور السلام العربي الاسرائيلي . ويعبر الجزء الثامن والاخير عن التصورات المرتبطة بانتخاب بنيامين نتنياهو رئيسا للوزراء ، وطبيعة المرحلة الجديدة بعودة الليكود الى الحكم وسط انقسام المجتمع الإسرائيلي . ان هذا الفصل يستند الى عشرات الابحاث والكتب المنشورة أساسا باللغة الانجليزية او المترجمة للانكليزية عن العبرية . ومن مراجعة هذه الدراسات الهامة ، تبرز صفات وسمات للوضع الاسرائيلي ، يمكن القول من خلالها انها تمثل إجماعا أكاديميا بين جمهور كبير من المتخصصين في الأسرائيليات . ومن الملاحظ من خلال ما هو متوفر في اللغة العربية عن اسرائيل ، ان معرفتنا الموضوعية بالوضع الاسرائيلي من حيث المجتمع والتنوع والسياسة مازالت في بداياتها .

و في الفصل الخامس "انطلاقة السلام ، تضارب المصالح ، وعودة اليمين ،" فنصف انطلاقة العملية السلمية منذ اوسلو وتعرجاتها على جميع المسارات العربية الاسرائيليه . كما نوضح طبيعة ومعنى انتصار الليكود وبنيامين نتنياهو في انتخابات ١٩٩٦ ، وهنا نقدم شرحا لطبيعة الضغوط والمصاعب التي سيواجهها رئيس الوزراء الاسرائيلي نتنياهو ، لو اصر على ممارسة شعارات الحملة الانتخابية الاسرائيليه . ثم يركز الفصل على معنى تناقض المصالح وتنافس الاتجاهات بين اسرائيل والعرب في ظل التسويه ، كما ويستعرض الفصل النموذج المصري للتسويه ، والابعاد الخاصه بسوريا ولبنان .

وفي الفصل السادس "الوضع الفلسطيني في الاطار الاستراتيجي ،" ننطلق من ان التعرض للوضع الفلسطيني ، وهو الاكثر تعقيدا والاهم بحكم انه لب الصراع ، مفيد لفهم اليات السلام

الراهنة . ويوضح هذا الفصل الابعاد السياسية المرتبطة بالسلام الفلسطيني الاسرائيلي وعوامله وطبيعته في ظل الحكم الذاتي . كما يتعمق في شرح طبيعة الاهداف الفلسطينية ، وعلاقتها بقضايا القدس واللاجئين والسيادة والمستوطنات . وهناك توقف عند العلاقة الاردنية الفلسطينية ومركزيتها وافاقها في المستقبل ، اضافه لدور عرب ١٩٤٨ في اسرائيل .

وفي الفصل السابع و الاخير "ديناميكية الاطار الاوسع للسلام ، منطق المعارضة ، ومكونات المستقبل ." شرح للسوق الشرق اوسطية المطروحة في اطارها العام وفي ظل اللجان المتعددة الاطراف المنبثقة عن مدريد . ويعرف هذا الفصل القارئ على الاطار الاوسع للسلام ، كما يبحث في جدلية المعارضة العربية والاسلامية للتسوية ، اذ نحاور هذه الجدلية وافاق تعديلها لصالح بلورة شروط افضل للسلام من الجانب العربي . وفي هذا الفصل نعرض للمستقبل ، ولافاق التنميه ، ولشروط الاستقرار في منطقة لازالت تحتضن بعض اكثر الحركات السياسيه غضبا واحتقانا .

ان هذا الكتاب هو محاولة للتفكير بصوت مرتفع لصالح فتح الحوار و النقاش حول امور الصراع والسلام العربي الاسرائيلي ، مع كل المهتمين والمتأثرين بالقضية الفلسطينية والصراع العربي الاسرائيلي . أنه محاولة لتقييم التجربة السابقة بكل تنوعاتها ، كما و تقيم المرحلة الراهنة وافاقها المستقبلية . ان هذا الكتاب يأمل في المساهمة في ارساء فكر اكثر موضوعية في التعامل مع الشأن العربي الاسرائيلي ، وبالتالي فهو بداية بحث عن مستقبل يخفف عنا شبح الحرب ، ويأخذنا بهدوء الى حقائق المنافسة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية كما والى حيز التنمية الحقة في ظل السلام . ان هذا الكتاب يتضمن مجموعة من التعبيرات عن مرحلة متحولة وجديدة وعن واقع مازال في طي التكوين .

شفيق ناظم الغبرا .
الكويت ، تموز ، يوليو ١٩٩٦ .

الفصل الاول :
النقد الذاتي والجذور التاريخية
للسلام العربي الاسرائيلي *

* سبق أن نشرهذا الفصل في السياسة الدولية ، شفيق الغبرا ، "الجذور التاريخية للسلام العربي الاسرائيلي(النقد الذاتي للتجربة) . (القاهرة) ١٢٣ يناير ١٩٩٦ ، ص ٥٢-٦٩

الهجرة اليهودية وسوء تقدير الوضع الدولي :
الأخطاء الأولى في الصراع

منذ ان وضع اول مهاجر صهيوني قدمه على ارض فلسطين العربية في اواخر القرن التاسع عشر ، بدأت حالة الاستكشاف تنتقل من حالة الوعي بوجود خطر ،الى حالة التصادم الشعبي والمسلح مع تعبيرات هذا الخطر المختلفة . ففي تلك الازمان ، بدأت الهجرة الصهيونية مستغلة ضعف العثمانيين وتردي نفوذهم ، ولكنها اكتسبت زخما وقوة في اعقاب الحرب العالمية الاولى ، عندما ساهمت بريطانيا بصفتها الدولة المنتدبة على فلسطين بتشجيع الهجرة اليهودية ، وتأمين اسس التسلح والبناء الذاتي اليهودي . وقد قاوم الشعب العربي الفلسطيني هذه الهجرة اشد مقاومة ، وتصدى لمحاولات شراء الاراضي ، كما وصنع الثورة وراء الثورة بانيا انماطاً من المجد الوطني في مواجهة عدو (الحركة الصهيونيه ، وبريطانيا الدولة المنتدبة) اكثر قدرة وسلاحا وتجربة وخطة . وشكلت ثوره ١٩٣٦-١٩٣٩ واحدة من الثورات التي اقلقت بريطانيا وحشدت لها الجيش والقوة لاخمادها وانهائها .(١)

وفي عام ١٩٤٨ عندما قامت اسرائيل ،لم يمتلك اليهود سوى ٦ الى ٧ ٪ من الاراضي في فلسطين ، وبقيت الزراعة اليهودية لا تزيد عن ٤٠٠ الف دونم مقابل ما يتجاوز الخمسة ملايين دونم من الاراضي العربية الزراعية . (٢) ولكن علينا ان ننتبه إلى ان اليهود امتلكوا (بالحيلة او عبر عمل صفقات مع اقلية صغيرة من الملاك العرب من دول عربية مجاورة لفلسطين ، او مع فئة قليلة ومحدوده من المتعاونين من سماسرة الارض العرب في فلسطين ، او عن طريق

مساعدة بريطانيا) بعض من افضل اراضي فلسطين الزراعية ، مثل سهل مرج ابن عامر وسهل الحوله ، اي انهم امتلكوا مناطق هامة على الساحل الفلسطيني ، كما وحققوا انتاجا صناعيا يجب عدم التقليل منه ، كما واستثمروا في قطاعاتهم اليهودية الكثير من الاموال .(٣) وكان في فلسطين بحلول عام ١٩٤٨ بحدود ٦٠٠ الف يهودي ، اغلبهم جاء الى فلسطين على مدى ثلاثة عقود في ظل الحكم البريطاني منذ نهايه الحرب العالمية الاولى بعد هزيمة الدولة العثمانية .(٤)

ان الحركة الصهيوينة التي برزت في فلسطين فوق موجة كثيفة من الهجرة اليهودية التي بدأت منذ اواخر القرن التاسع عشر ، واستمرت حتى تشكيل الدولة عام ١٩٤٨ انتجت ، في ظل الانتداب البريطاني وفي ظل تشجيعه ، ومع مرور الوقت ، مجتمعا يهوديا وصهيونيا يتمتع بنسبة من التجانس ، كما ويمتلك مؤسسات دولة كاملة النمو والتأثير . فالحركة الصهيونية اسست الدولة عمليا قبل اعلانها ، وامتلكت كل مقومات الدولة بدءً من مؤسسات حكومية مثل الوكالة اليهودية ، مرورا بالتعليم الى بناء الجامعة العبرية ، الى قطاع اقتصادي وصناعي نشط ، الى مدينة جديدة بجانب مدينة يافا (تل ابيب) ، الى خدمات صحية وقوة عسكريه ، وقوة استخبارات ، و ميناء ، ومؤسسات للشؤون الاجتماعية ، ونقابات للعمال وللطلاب ، و بنوك وكل ما يتطلب بناء دولة . اذن وجدت الدولة قبل ان تعلن بسنوات ، واعلنت فقط عندما تأمنت الفرصة الدولية والعسكرية والسياسية لاعلانها .(٥) وهذا الامر فات العرب في فلسطين وفي خارجها طوال فترة الصراع السياسي والمسلح قبل حرب ١٩٤٨ .

وقد يكون من المفيد التأكيد بأن موجات الهجرة اليهودية الى فلسطين ، في نهاية القرن التاسع عشر ، وفي العشرينات وبصفة مكثفة في الثلاثينات والأربعينات من القرن العشرين ، تد تأثرت تأثرا مباشرا بموجات العداء لليهود في اوروبا . بل ان صعود هتلر وتبلور دور النازية في روبا ، والفاشية في ايطاليا ، اصبح بحد ذاته سببا في تضاعف الهجرة اليهودية الى فلسطين . بل دخل الى فلسطين بين اعوام ١٩٣٢-١٩٣٦ ، ١٧٤ الف مهاجر يهودي ، وهذا يساوي عدد كل اليهود في فلسطين حتى عام ١٩٣٢(٦) . ويمكن الجزم بانه لولا الحرب العالمية الثانية التي اندلعت عام ١٩٣٩ بكل مجازرها التي حصدت ملايين اليهود لما قامت اسرائيل ، ولما ضرب العالم الحقوق العربية بعرض الحائط وذلك لصالح مجموعة مهاجرة الى ارض ليست لهم بالاساس . بل وجدت دول العالم القوية والمنتصرة في الحرب العالمية الثانية في اليهود شعبا مظلوما ، ووجدت ان قيام دولة يهودية سوف يساهم في تخليص اليهود من العذاب الدائم الذي يتعرضون اليه ، ووجدت في الوقت نفسه ، ان قيام دولة يهودية سوف يخلص الغرب من

الشعور بالذنب لما حصل لليهود في ظل النازيه . فابان النازية فشلت دول الغرب في استيعاب اليهود المهددين بالقتل ، وفشلت الولايات المتحدة في فتح باب الهجرة لهم الى اراضيها .

ويمكن القول ان كل هذا ساهم في تقوية الحركة الصهيونية التي اعتبرت بان حل المشكلة اليهودية يتطلب أقامة دولة خاصة باليهود في اي مكان تنضج فيه الظروف لهذه الدولة ، ووجدت بالتالي في فلسطين ، بعد تردد استمر عدة سنوات في اوائل القرن العشرين ، و لاسباب تاريخية وسياسية ونفسية ودينية ، ذلك المكان المناسب . في كل هذا اصبح الشعب العربي الفلسطيني ضحية لجرم لم يرتكبه ولكارثة لم يساهم بها بل نشأت اساسا في اوروبا . لقد تحولت فلسطين الى ضحية النازية ، وضحية اللاسامية في اوروبا ، وضحية فشل الغرب في انقاذ اليهود من مجازر هتلر ، وضحية الظروف والزمن والواقع العربي المتردي والضعيف وفوق كل شيء ضحية الحركة الصهيونية .

ولايخفى ان القيادة الفلسطينية في ذلك الوقت ، والتي جسدها الحاج امين الحسيني ومعه الاجواء السياسيه في الشارع الفلسطيني والعربي ايضا ، قد سعت في صراعها مع كل من الحركة الصهيونية وبريطانيا لتحقيق حل للصراع يسمح لها بايقاف الهجرة اليهودية الى فلسطين . وانها سعت بقوة لتحقيق ايقاف للمشروع الصهيوني وتحقيق مطلب استقلال فلسطين . ولكن في ثنايا الصراع على مدى السنوات ، بقي الموقف الفلسطيني قويا في هذا الامر وثابتا ، ولهذا لم يستطيع ان يناور كثيرا لتحقيق بعض المكاسب او القبول ببعض المقترحات التي ربما كانت جعلت نتيجة الصراع مختلفة بعض الشيء . لهذا فعلى مدى السنوات ، اي منذ رفض او تردد الفلسطينيين المشاركة بمجلس تشريعي منتخب في ظل الحكم البريطاني عام ١٩٢٠ بحجة ان الاصوات العربية ستكون خاسرة امام تضامن الاصوات الرسمية البريطانية مع الاصوات اليهودية ،(٧) مرورا برفض الكتاب الابيض البريطاني عام ١٩٣٩ الذي جاء بعد الثورة الفلسطينية الشهيرة والذي كان في بعض اجزائه لمصلحة العرب ، تشكل رأي شبه مطلق لايقل قوة عن الرأي المطلق الصهيوني الذي كان يراهن على الرفض العربي او تأخر العرب بقبول اي اقتراح . فالكتاب الابيض اكد التزام بريطانيا بدولة فلسطينية بعد عشرة سنوات ، ومن ضمن هذه الدولة وطن لليهود على شكل حكم ذاتي في فلسطين المستقلة . كما واكد الكتاب الابيض موقفا يحد من الهجرة اليهودية الى فلسطين الى ١٥ الف في السنة لمدة خمس سنوات ، ثم تتوقف كلية ولا تستمر هذه الهجرة الا بأذن من الاغلبية العربية . واكد الكتاب الابيض البريطاني منع بيع الاراضي لليهود تحت طائلة القانون الا في مناطق ساحلية محددة .

ولكن في المقابل كان هناك رأي اقلية في الساحة الفلسطينية ، تشكل من عائلة النشاشيبي القوية والقيادية والقريبة من الملك عبدالله ، والى حد ما حزب الاستقلال ابان الحرب العالمية الثانية ، و بعض الوطنيين الذين خشوا من اساليب الحاج امين وسياسة اغتيال المعارضين بتهم الخيانة . اذ برز رأي اقلية يقول ببعض المرونة في التعامل السياسي وفي الرد على المقترحات ، وقد انتعش هذا الرأي في اوساط وطنية عديدة ، ولكنه لم يصمد امام الموجة الشعبية ، ورأي الشارع ، وثقة الاغلبية في القاعدة والقيادة .

وربما نستطيع ان نقول الان ، بانه لو توفر بعض من الاستشراف لما هو قادم لكان بالامكان على الاقل من خلال بعض المرونة في بعض الامور والمناورة في امور اخرى تصعيب مهمة الحركة الصهيوينة وجعل انتصارها بالتالي اقل دويا وربما تقوم دولتها على جغرافية اصغر وضمن توازن سكاني ديمغرافي افضل للعرب . بل ربما كان العنف الفلسطيني الصادر ضد اليهود على مدى سنوات الانتداب مبررا في ظل موازين اخرى للقوة ، وان الحركة الفلسطينية في حينها ربما احتاجت الى تكتيكات اقل عنفا ، واضرابات اقل طولا ، وثورات اقل امتدادا لتنجح في حماية مجتمعها وشعبها . بل هناك رأي كان نقديا تجاه اطول اضراب في التاريخ والذي امتد في القطاع العربي لمدة ستة شهور عام ١٩٣٦ ونتج عنه ازدهار القطاع اليهودي وميناء تل ابيب واضمحلال القطاع العربي الاقتصادي وميناء يافا المتميز الى ابعد الحدود . فكل هذا كما تثبت التجربة ساهم بتفتيت المجتمع الفلسطيني وساهم في اثارة الخلافات العائلية ، كما وساهم في تحجيم الاقتصاد الفلسطيني بينما ازدهر العمل والاقتصاد اليهودي الذي استمر في التوسع على حساب العرب . بمعنى اخر كان هناك تناقض بين شعار الحركة الوطنية الفلسطينية وبين قدراتها ، ووقع تناقض اكبر بين اهداف الحركة الفلسطينية الوطنية في نيل الاستقلال الوطني الكامل ووسائلها المتبعة وبين التطورات الدولية والاقليمية الناشئة .(٨)

ولكن هذه المرونة التي كانت ستفيد الحركة الفلسطينية ، كانت امر يصعب تحقيقة ، معطيا درجة الظلم الشديدة التي كان يتعرض لها الجانب العربي الفلسطيني ، بالاضافة للمنافسة الداخلية الشديدة بين التيارات السياسية الفلسطينية لكسب تأييد الشارع عبر اخذ مواقف اكثر قوة تجاه بريطانيا وتجاه رفض التعاون معها . بل كان التفكير الفلسطيني القيادي ابان الانتداب البريطاني واثق من ان موازين القوى الراهنة في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، سوف تتغير لصالح العرب ، تماما كما حصل في مجتمعات عربية اخرى حققت استقلالها . ونشأ فكر وممارسة في السياسة الوطنية واثق ايضا ، بان التدخل العربي في النهاية ، كما والتدخل الدولي واثار الحرب العالمية الثانية ستحدث معطيات تؤدي الى هزيمة المشروع الصهيوني جذريا من الناحية السياسية

والديمغرافية في فلسطين . بل ان بريطانيا سعت لاخذ قبول من الحاج امين الحسيني بالكتاب الابيض خاصة وان بريطانيا ارادت ان لا يستغل الحاج امين موقعه وتأثيره لتحريض العرب ضد بريطانيا وهي على ابواب حرب عالمية . ولكن الحاج امين اضاع تلك الفرصة معتقدا بامكان هزيمة بريطانيا في الحرب ، وبأمكان ضمان استقلال العراق بالتحديد ،كمدخل لهزم بريطانيا في فلسطين واماكن اخرى . لهذا تحالف الحسيني ، الذي امتلك شعبية كبيرة في العالم العربي والاسلامي ، بقوة مع ثورة رشيد الكيلاني في العراق في ابريل ١٩٤١ ضد بريطانيا ، وعندما فشلت الثورة هرب من العراق عبر ايران الى المانيا ، حيث اعلن موقفا مؤيدا لالمانيا ولهتلر ، وظهر علنا مع هتلر وساند المجهود الالماني لمدة ثلاث سنوات من عمر الحرب . وفي هذه التحركات فقد الحسيني الكثير من المصداقية التي تساعده على المناورة في شرق تسيطر عليه بريطانيا وحلفاؤها ، وكان هذه الامر مدعاة فائدة كبيرة للحركة الصهيونية خاصة بعد هزيمة هتلر وانتصار الحلفاء .(٩)

لهذا يمكن القول بان الجانب الفلسطيني ووراءه الجانب العربي لم يكن قد قرأ موازين القوى الدولية بدقة ، و لم يكن قد فهم اللعبة الدولية ، والظروف العالمية المتحكمة بالهجرة اليهودية والصهيونية والحرب العالمية الثانية كما والاوضاع العربية بحيث يتصرف بطريقة تخفف من الخسائر والهزائم وتجعل الرقعة الصهيونية اصغر. ان الموقف الفلسطيني ثم العربي القوي في تمسكه بثوابته السياسية التاريخية بدءاً من الحق التاريخي وانتهاء بعدم القبول بأية صيغة او مساومة ، والقناعة الفلسطينية بانهم مرتبطين بامة عربية ممتدة الاطراف سوف تهب لنجدتهم في ساعة محددة ، اقترن مع ضعف العرب وتشرذمهم وسوء استشرافهم ومحدودية فهمهم للواقع السياسي الدولي . واقترن ذلك ايضا ، مع حقيقة ان القوى الصهيونية من مهاجرين امتلكت سلاحا ، وتنظيما ، وخطة لم تكن متوفرة لدى الفلسطينيين او لدى العرب . هذا الحاجز والفارق جعل الفلسطينيين ومعهم العرب في مقاومتهم المستمرة ضحايا دائمين للصهيونية المتمددة ، وساهم بنفس الوقت بمساعدة القوى الصهيونية على تحقيق مكاسب لم تكن في حسبانها ، وانتصارات لم تكن تتوقعها او تحلم بها . إن سوء قراءة العرب للميزان السياسي ساعد الحركة الصيهيونية في كافة المجالات .

العرب وخطيئة حرب ١٩٤٨ :
قيام إسرائيل وسقوط الحلم العربي

منذ أوائل نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ، اي قبل ٤٠ يوما من إعلان قيام دولة إسرائيل ودخول

الجيوش العربية الى فلسطين ، شنت القوات الصهيونية هجوما مسلحا كان جزءاً من خطة عرفت باسم داليت . وقد شمل الهجوم منطقة الساحل الفلسطيني والمناطق الاخرى الواقعة غرب القدس . وضمن خطة داليت ارتكبت القوات الصهيونية مجزرة دير ياسين ، وهزمت القوات الفلسطينية القليلة العدد والضعيفة التدريب بعد استشهاد قائدها عبد القادر الحسيني في معركة القسطل . وفي نفس الفترة شنت القوات اليهودية هجومها على مدينة يافا فسقطت ، ولحقتها حيفا ، وطبريا ، بينما طوقت عكا . هكذا وفي ظل فترة امتدت من اول نيسان وانتهت في ١٤ ايار (قبل اعلان قيام اسرائيل وانسحاب بريطانيا) ، نجحت الحركة الصهيونية في انشاء دولتها على معظم اراضي الساحل الفلسطيني . وقد نتج عن هذا اقتلاع ما يقارب ٣٠٠ الف مواطن فلسطيني من مدنهم وقراهم ، خرجوا بحالة فزع وهلع شديدين ، بعد رؤية ما حل بأبناء قرية دير ياسين وابناء المناطق التي سقطت بأيدي القوات الصهيونية .(١٠)

فقد تركت تلك المجازر أثرا نفسيا عميقا على مجتمع عربي أعزل من السلاح ، ينقصه الكثير من التنظيم والاستعداد ، بعد ان ارهقته اشكال القمع البريطاني على مدى ٢٨ عاما . ومما لاشك فيه أنه لم تكن للفلسطينيين اية قوة منظمة ، سوى جيش الجهاد المقدس الذي ينقصه التدريب والعتاد ، والمكون من مجموعات من الاهالي المتطوعين والذي قتل قائدة الجريء والفعال عبد القادر الحسيني في معركة القسطل في بداية ابريل ١٩٤٨ . وفي الجليل تواجد ٣٠٠٠ جندى عربي متطوع مع قوات فوزي القاوقجي (كانت اعماله تميل للدعائية ودوره محدود التأثير) القليلة التدريب والامكانيات .(١١) ولا يخفى ان هذه القوات الى جانب قوات جيش الجهاد المقدس بقيادة عبدالقادر الحسيني ، سعت لاخذ المبادرة والهجوم على المواقع اليهودية في فبراير ومارس ١٩٤٨ دون ان تحقق اية نتيجة تذكر . هكذا لم تكن في فلسطين ، اية قوة قادرة على تحدي أكثر من ٦٠ الف جندي يهودي ، تدربوا قبل وابان الحرب العالمية الثانية ، وتخرجوا من مدرستها القتالية . كانت هذه الضربة الاولى هي المرحلة الاولى من النكبة .

وحينما دخلت القوات العربية الحرب في ١٥ ايار ١٩٤٨ ، اي بعد اعلان قيام اسرائيل ، دخلت متاخرة بعد ان احكمت القوات الاسرائيلية سيطرتها على الساحل الفلسطيني ، وبعد ان نظمت دفاعاتها . إذ تدخلت الجيوش العربية على اثر اعلان قيام دولة اسرائيل ، وليس على أثر إحتلالها الفعلي للساحل الفلسطيني الذي تم قبل ذلك باسابيع . ومنذ بداية المعركة ، بدا جليا ان حدثا غير طبيعي في طريقه للتبلور . إذ تدخلت القوات العربية بحوالي ٢٠ الى ٢٥ الف جندي عربي ، تابعين لسبع دول عربية ، وذلك لمواجهة ما يزيد عن ٦٠ الف جندي صهيوني (العدد التقريبي للقوات العربية المهاجمة :مصر ٩ الاف ، العراق ٣ الاف ، الاردن

٤٥٠٠ ، سوريا ٣٥٠٠ ، ١٥٠٠ لبنان ، اضافة لبعض الوحدات الصغيرة العدد من المملكة العربية السعودية واليمن) . (١٢)

لهذا من البداية فان معركة فلسطين كانت خاسرة ، وصناع القرار السياسي العربي دخلوا الحرب وهم يخشون اطرافا عربية اخرى كما ويخشون الرأي العالم العربي باكثر من خشيتهم من الدولة الاسرائيلية الجديدة . وتقول لنا اوراق هذه الحرب على سبيل المثال ، ان الملك عبدالله المسؤول عن اكثر الجيوش العربية تدريبا وتسليحا في ذلك الوقت ، خشي من الملك فاروق وقواته ، كما وخشي من الحاج امين الحسيني زعيم الحركة الفلسطينية الوطنية ، كما وخشي من تمدد اسرائيل الجديدة ، مما دعاه للقاء غولدا مائير عدة مرات في محاولة للاتفاق على صيغة سياسية تحكم الوضع بعد انسحاب بريطانيا .(١٣) بل ان الملك عبدالله بالتحديد في الاردن ، كان من اكثر من استوعب طبيعة الحركة الصهيونية ، ولم تكن لديه اية اوهام عن امكانية هزيمتها ، وكان على معرفة بالتوازنات الدولية ، وكان يطمح بنفس الوقت للاستفادة من هذه التطورات لصالح توسيع مملكته غربا اي باتجاه الضفة الفلسطينية من النهر ، اي انه كان ينتظر فشل القيادة الفلسطينية ليكون ممثل العرب هناك .(١٤)

وفي ظل ظروف مثل هذه ، تميزت بدخول الجيوش العربية الى فلسطين ، كان من الصعب على قيادة الحاج امين الحسيني ان تعلن كما اعلنت اسرائيل قيام دولة فلسطينية يوم الانسحاب البريطاني ، او ان تأخذ المبادرة السياسية في هذا المجال . بل كانت القيادة في تلك الفترة ، ونتيجة تراكمات اخماد بريطانيا لثورة ٣٦-٣٩ البطولية ، وما اصاب المجتمع الفلسطيني بعد فشل هذه الثورة ، والخسائر الناتجة عن الحرب العالمية الثانية وتأييد المانيا ، اضعف من ان تستطيع اخذ المبادرة السياسية في فلسطين . لقد خسر الفلسطينيون المعركة منذ بدايتها لانهم والعرب سوية لم يدركوا حجم المشكلة ولم يكونوا مؤهلين للتصدي لها ، نتيجة تداخل الخلافات العربية العربية على كل المستويات .

وحينما دخلت الجيوش العربية في ١٥ ايار (مايو) ١٩٤٨ ، ونتيجة لضعف القرار ، وضعف العدد ، وجدت نفسها تقبل الهدنة بعد مضي ما يقارب الاربعة اسابيع على بدء القتال . والجدير بالذكر ان الامم المتحدة اضافة للاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة والرأي العام العالمي ، اعتبروا دخول الجيوش العربية الى فلسطين في ١٥ ايار ١٩٤٨ انتهاكا لقرار التقسيم ، وضربا للسلام العالمي . وحقيقة الموقف ، ان القوات العربية لم تكن قادرة على هزم الاسرائيليين عام ١٩٤٨ . ولو ارادت الجيوش العربية ان تحقق نصرا لاحتاجت لتوحيد جهودها ، والى ادخال معظم القوات العربية التي كان تعدادها ما يقارب ٨٠ الف جندي في المعركة . وحتى هذا كان

اقل من ان يحسم المعركة ، وان كان بامكانه ان يقلل من الخسائر العربية ورقعة الاحتلال الاسرائيلي . فبينما بدى على السطح ان القوات الاسرائيلية في خطر ابان المرحلة الاولى من الحرب اي من ١٥ ايار الى ١١ حزيران ، الا ان الحقائق كانت عكس ذلك . فقد انهكت القوات الاسرائيلية في البداية ، ولكنها لم تكن على وشك ان تهزم ، وان كانت قد تقلصت الى رقعة ارض صغيرة . فالقوات العربية لم تستطع ، بالرغم من سيطرتها على قسم كبير من الاراضي الفلسطينية في المرحلة الاولى ، من احتلال المواقع الاسرائيلية الرئيسية المرتبطة بعصب التواجد اليهودي في فلسطين ، وعلى الاخص في منطقة الساحل وتل ابيب . هذا يعني ان القوات العربية لم تستطع توجيه ضربة قاضية الى أل٦٠ الف جندي صهيوني الموجودين في العمق الساحلي لفلسطين ، ولكنها نجحت في الحد من تمدد اسرائيل في المرحلة الاولى . ومع ذلك فأن القوى اليهودية احتاجت لهدنة لتستجمع قواتها وهذا ما حصل عندما قبل العرب بعمل هدنة في ١١ حزيران ١٩٤٨ .(١٥)

ولكن ذلك كان مؤقتا ، اذ لم يترجم إلى مكاسب سياسية او اتفاق سلام ينهي الحرب عند تلك الخطوط ، او يؤدي لقبول العرب بالتقسيم في اطار معدل او سياسي جديد . فاللعبة السياسية الوحيدة في تلك الفترة كانت التقسيم ، وكان من الصعب علي القيادات العربية مصارحة النفس والشارع والفلسطينيين بالحقيقة . لهذا تحول رفض التقسيم إلى سلاح اسرائيلي ودولي مشرع ضد العرب والفلسطينيين ، ومن خلال ذلك الرفض استعدت اسرائيل لجولات جديدة ووقف العرب ليفقدوا المزيد من الارض والمزيد من الحقوق .

وقد شكلت الهدنة بداية تغير مجرى الحرب ، وبداية تحول المبادرة للقوات الاسرائيلية الاكثر عددا . وابان الهدنة ، منعت اسرائيل اللاجئين الفلسطينيين من العودة الى مناطقهم . كما أن اسرائيل نجحت بجلب كميات كبيرة من السلاح من تشيكوسلوفاكيا . ونجحت باستقبال الوف المتطوعين اليهود مما رفع قوتها الى مايقارب ١٠٠ الف جندي . كما ان الطائرات (بداية سلاح الطيران الاسرائلي) وحتى بعض السفن الحربية والبحرية والاسلحة المهربة بدأت تصل بجهود يهودية هائلة من الولايات المتحدة وبريطانيا . وقد تم ذلك بالرغم من فرض حظر سلاح غربي شامل على المنطقة العربية واسرائيل . وفي المقابل رفع العرب من عدد قواتهم في فلسطين لحدود ٣٥ الى ٤٥ الف جندي ، لكنهم لم ينجحوا في كسر حظر السلاح الغربي الذي فرض عليهم .(١٦)

وخلال الهدنة بدات تظهر الخلافات العربية على السطح . خاصة بين الملك عبدالله ملك الاردن من جهة ، والملك فاروق في مصر والحاج امين الحسيني الزعيم الفلسطيني من جهة

اخرى . وبينما كان هدف الملك عبدالله ابان الحرب ضم بعض اجزاء فلسطين نهائيا الى الاردن ، كان الهدف المصرى وبعض الدول العربية الاخرىطرفاً واحداً ، تشكيل حكومة فلسطينية بقيادة الحاج امين الحسيني . وقد اثرت هذه الخلافات على السلوك العربي ابان الحرب .(١٧) فبينما كان العرب دولاً واطرافاً ، كانت اسرائيل طرفاً واحداً ذو قيادة وخطة واحدة تتميز بعلاقات قوية مع النظام الدولي .

ونتيجة الضغط الشعبي العربي الذي لم يكن على علم بحقيقة الاوضاع في فلسطين ، وثقة القيادة السورية والعراقية والمصرية بانها سوف تسحق القوات الاسرائيلية فور تجدد المعارك ، رفضت القوات العربية استمرار الهدنة الاولى او تمديدها . وتجدد القتال من ٧ الى ١٨ تموز/يوليو ١٩٤٨ ، بل بدأ القتال في ٧ تموز /يوليو بهجوم مصري حقق بعض التقدم في البداية ثم انقلب كل شيء الى هزيمة .

ومرة ثانية ، فانّ تقدير الموقف الخاطئ ساهم في هزيمة القوة العربية ، وتقليص رقعة فلسطين العربية لصالح اسرائيل الناشئة . بل ان الاردن انطلق من ان عودة القتال سوف تكون خسارة للعرب ، وفضل الوصول إلى حل وسط يسمح له بالاحتفاظ بما حققه في المرحلة الاولى من الحرب ، ولكن هذا لم يتم ، اذ تشككت القوى العربية الاخرى من نوايا الملك عبدالله .(١٨) هكذا بدأ العرب المعركة بعد الهدنة الاولى دون تقدير لحقيقة قوة العدو . ومع بدء المعارك اخذت اسرائيل ما تريد ، ثم انتقلت اسرائيل الى الهجوم وسط التفوق ، فنجحت في المرحلة الثانية من القتال الذي استمر لعشرة ايام في احتلال اللد والرملة ، اضافة لهزيمة قوات فوزي القاوقجي (جيش الانقاذ المكون من المتطوعين العرب) في الجليل الاوسط واحتلاله . هكذا اضافت اسرائيل الى احتلالها ٧٨٠ ميلاً مربعاً من اراضي فلسطين . لقد حققت اسرائيل في تلك المرحلة من القتال نسبة كبيرة من اهدافها في فلسطين ، بينما استمرت السيطرة العربية على النقب اضافة للجليل الاعلى وشرق فلسطين (الضفة الغربية اضافة لمنطقة المثلث المجاورة لها) . وكان التقدم الوحيد والمحدود في المرحلة الثانية من القتال من نصيب القوات السورية في الشمال الشرقي .(١٩)

وقد حدثت تحولات مهمة في المجتمع الفلسطيني بعد تدخل الجيوش العربية في ١٥ مايو (ايار) ١٩٤٨ ، إذ مع إنتهاء فترة القتال الاولى وبداية الهدنة الاولى في ١١ حزيران (يونيو) ، بدأ الفلسطينيون يعون حدود الامكانات العربية العسكرية والسياسية . كما أنهم رأوا ما حل باللاجئين الاوائل ، وشاهدوا باعينهم كيف صدت القوات الاسرائيلية محاولات الكثيرين منهم للعودة الى قراهم بعد الهدنة . وهكذا قررت بقية اجزاء المجتمع الفلسطيني الاعزل ، وعلى

الرغم من المجازفة ، البقاء في قراها ومدنها . لقد قرر الفلسطينيون لاول مرة منذ الثامن من نيسان (ابريل) طرد شبح دير ياسين خوفا من مصير مجهول .

وتشكل الاحداث الواقعة بمدينتي اللد والرملة ، في الفترة ما بين التاسع والثالث عشر من تموز (يوليو) ١٩٤٨ ، مثالا واضحا لبداية هذه المرحلة الهامة . فقد شنت القوات الاسرائيلية هجوما بالمدفعية والطيران ، هدفة اخراج سكان المدينتين البالغ عددهم ٨٠ الف نسمة(بما في ذلك اللاجئين الذين جاءوا من مدن وقرى اخرى) . وفي اليوم الثالث للهجوم ، إنسحبت أغلبية القوات الاردنية المرابطة في المدينتين ، والبالغ عددها ١٥٠ مقاتلا ، مما اساء لمعنويات سكان المدينتين . كما نجحت القوات الاسرائيلية ، باعتقال بعض وجهاء الرملة خارج المدينة مجبرة اياهم على توقيع وثيقة استسلام مقابل عدم مساس السكان بالاذى . وبالفعل دخلت القوات الاسرائيلية المدينة وقامت قواتها باقتحام مدينة اللد ، التي استمر فصيل من الجيش الاردني وعدد من سكان البلدة بالمقاومة فيها .

وفي الساعات الاولى من إحتلال اللد والرملة ، بدا الوضع طبيعيا لكن مغلفا ببعض التوتر . وفي مدينة اللد بالتحديد ، وبعد ساعات من احتلالها ، إدعت القوات الاسرائيلية بان قواتها تعرضت لرمايات قنص . فنتج عن هذا ان بدات هذه القوات في الرماية بكل الاتجاهات . وقد ادت هذه الرمايات في المنازل وخارجها الى مجزرة كبيرة قتل خلالها ٢٥٠ طفلا وامراة ورجلا وشيخا . وعلى الرغم من حجم المجزرة ،رفض سكان اللد والرملة مغادرة مدينتهم . في ظل هذا الوضع اصدر بن غوريون قراره لاسحاق رابين وايغال الون (باشارة من يده وليس كتابة اوقولا) بطرد سكان المدينتين . وتم وضع جزء من السكان بالشاحنات الاسرائيلية واخراجهم ، وفرض على البقية السير على اقدامهم . وقد قامت القوات الاسرائيلية باضطهاد اللاجئين ، فسرقت ممتلكاتهم الشخصية ، وقطع نقودهم ، ونزعت الحلي من ايدى النساء . ومات الكثير من الاطفال عطشا خلال رحلة السير الى الخطوط العربية . وقامت القوات الاسرائيلية وسكان المستعمرات القريبة ، بعد اخراج السكان ، بنهب المدينتين نهبا شاملا .(٢٠)

هكذا بدات القوات الاسرائيلية ، منذ شهر تموز (يوليو) ، الا في حالات استثنائية(الناصرة مثلا ، وذلك نتيجة تردد القائد الاسرائيلي بطرد السكان) في الدخول الى القرى الفلسطينية العزلاء والقيام بقتل بعض الشباب في الساحات العامة ، وتهديد بقية السكان بمصير مشابه اذا لم يغادروا ، وبلغ عدد المجازر المرتكبة بحق المدنيين ابان الحروب وحتى نهايتها في اواخر ١٩٤٨ ، ما يزيد على ٣٠ مجزرة من بينها مجزرة الدوايمة التي اودت بحياة ما يقارب ٢٥٠ مواطنا مدنيا فلسطينيا ، رمي الكثير منهم في آبار البلدة او دفنوا بمغرها .(٢١)

وايضا رفض اليهود السماح بعودة اللاجئين بعد بدء الهدنة الثانية التي بدات في ١٩ تموز/يوليو ،واستمرت حتى اواخر ايلول/سبتمبر . وابان تلك الفترة استمر العرب في موقف لفظي تجاه اسرائيل ، بينما اصرت إسرائيل في المقابل على مفاوضات مباشرة مع العرب . بل طرحت فكرة مفاوضات وصلح تتضمن تسوية لامور الارض و لقضية اللاجئين(وفق تصورات وسطية) ، وقد رفض العرب العرض الاسرائيلي انطلاقا من امكانية اعادة الامور الى سابق عهدها ، ومسح اثار العدوان ، منذ ان بدأت الحرب في ١٥ ايار ١٩٤٨ .(٢٢) في ظل هذا الوضع اصر الكونت برنادوت الوسيط الدولي ، على اهمية عودة اللاجئين الفلسطينيين ، وبدأ يثير هذه القضية . لهذا عدل برنادوت مشروعة الذي طرحه اول مرة ابان الهدنة الاولى في حزيران ، والذي رفض من قبل جميع الاطراف واصبح مشروعه :

تعديل مشروع التقسيم الاصلي ، بحيث تذهب النقب ، التي كانت مازالت بايدي القوات المصرية ، الى العرب ، اضافة لعودة اللد والرملة التي تعتبر جزء من المناطق العربية في التقسيم (مشروع ١٩٤٧) الى العرب . وفي المقابل يذهب الجليل بما فيه من مناطق محددة حسب التقسيم الى الاسرائيليين ، وتتحول حيفا الى ميناء حر ، ويتم تدويل القدس حسب التقسيم الاصلي . لكن برنادوت اضاف في مشروعه فقرة تتعلق بمصير الاراضي العربية وهي : ضم الجزء العربي من فلسطين الى الاردن . اي ان برنادوت سعى لقرار يعكس الحقائق العسكرية على الارض ، حيث نجحت القوات الاردنية في المحافظة على اراضي الضفة الغربية اضافة للقدس الشرقية .(٢٣)

وكانت موافقة الولايات المتحدة ، ثم رفضها للمشروع الذي تقدم به برنادوت ، إرضاء للضغط اليهودي ، السبب في فشله . وقد ادى المشروع الى مقتل برنادوت في ١٧ سبتمبر١٩٤٨ . لقد رفض الاسرائيليون المشروع ، لانهم شعروا انهم حسب موازين القوة ، قادرون وفي ظل جو الحرب على تحقيق المزيد من التقدم على الارض . وهذا هو الذي حصل . وقد عارضت بالتحديد مصر وسوريا والسعودية ضم الجزء العربي الى الاردن ، مما خلق شرخا عربيا جديدا وعميقا ومنع تنسيق المواقف العربية .

ونتيجة لهذا اشتد التنافس بين الاردن من جهة ، ومصر وسوريا والسعودية وقيادة الحاج امين الحسيني من جهة اخرى . وقد قامت مصر بتشجيع الفلسطينيين على اعلان حكومة فلسطينية في غزة تشمل على الورق كل فلسطين . والجدير بالذكر ، ان هذا الاعلان كان يجب ان يكون في فلسطين في اليوم الذي انسحبت فيه قوى الانتدا ب البريطاني ، اي في الوقت نفسه الذي اعلنت به دولة اسرائيل ، ليكون ذلك متماشيا مع القرارات الدولية ومع

سعي الفلسطينيين لاخذ المبادرة . ولكن هذا الاعلان المتأخر تم وسط رفض اردني قوي ، وخلاف اردني مصري عميق الجذور .(٢٤) ويمكن القول بانه لو توفر تمثيل فلسطيني سياسي في تلك الفترة مع نسبة اكبر من القوة العربية المرتبطة ببعض الحنكة السياسيه ، لكان العرب والفلسطينيون قد نالوا تعديلات جوهرية على مشروع التقسيم وعلى مشروع برنادوت . لكن امام الاداء العربي السياسي والعسكري الهزيل والمتشرذم ، كانت الهزيمة في طريقها الى ان تكون شاملة واكثر بكثير مما حلمت به الصهيونية .(٢٥)

مع حلول شهر ايلول/سبتمبر ١٩٤٨ وكما يؤكد KHOURI ، في دراسته الموضوعيه الخاصة بتلك الحقبة من الصراع العربي الاسرائيلي ، أصبحت القوات العربية في فلسطين حوالي ٥٠ الى ٥٥ الف بينما اليهودية الاسرائيلية ١٠٠ الى ١٢٠ الف .(٢٦) وكان بن غوريون الزعيم الاسرائيلي الذي اصبح اول رئيس لوزرائها ، قد اعطى موافقته على الهجوم على القوات الاردنية في القدس والضفة الغربية ، وذلك ليضمن منع او خنق أية مبادرة تتعلق بتدويل المدينة حسب مشروع التقسيم ، وليضمن مساحة اكبر لدولته . لكن مقتل برنادوت في ١٧ سبتمبر ١٩٤٨ غير الموقف ، وخاصة بعد رؤية ردة الفعل الدولية على اسرائيل . هذا ضيع الفرصة التاريخية على اسرائيل لاحتلال الضفة الغربية او اجزاء منها ، اضافه للقدس العربيه عام ١٩٤٨ ، اذ تحولت اسرائيل الى صحراء النقب في الجنوب الفلسطيني ، لتستبق اية محاولة دولية لنزع النقب منها . اذن منذ سبتمبر ٢٩ ،١٩٤٨ بدأت المعارك وسط الخلافات العربية العربية ، ونجح الاسرائيليون بتحقيق تقدم فعلي في اوكتوبر ١٤ حيث حققوا احتلال صحراء النقب ، بعد دفع القوات المصرية للخلف ومحاصرة بعضها في الفالوجا . وقد سعى بن غوريون لتحويل قوته نحو القدس العربية ، الا ان الضغط من القيادات الاسرائيلية والعسكريين الذين خشوا ردة الفعل الدولية لم يسمح له بذلك .(٢٧)

ووسط الهزيمة في النقب ، طلبت مصر المساعدة من كل القوى العربية المشاركة في الحرب ، لكن المساعدة لم تأت ، مما انتج شعورا مصريا سلبيا تجاة القوى العربية الاخرى المترددة بالمساعدة . فالجهد لمساعدة مصر ابان القتال ، لم يتجاوز بعض القصف المدفعي من جيش الانقاذ (فوزي القاوقجي) في الشمال ، وتحريك الملك عبدالله في الاردن لحوالي ٣٥٠ جندي لمواجهة رتل اسرائيلي متقدم حول منطقة الخليل في الضفة الغربية . وقد دخلت تلك الجولة ، التي خسرت خلالها مصر معظم اراضي صحراء النقب ، في حيز وقف اطلاق النار في ٢٥ اوكتوبر/تشرين الاول ١٩٤٨ . لكن القتال عاد وتجدد في اواخر اوكتوبر عندما بدأت اسرائيل بهجوم شامل في الجليل الغربي ضد بقايا قوات القاوقجي . وخلال ايام سقط الجليل الغربي ،

ولم تستطع أية قوات عربية المساعدة .(٢٨)

امام هذا الوضع وامام توسع اسرائيل الشامل وفي كل الاتجاهات ، وبما يتجاوز التقسيم وحدوده ، بدأت الامم المتحدة بعمل مشروع قرار انسحاب إسرائيلي من صحراء النقب . والجدير بالذكر ان قرارات الاتحاد السوفياتي وحركتة السياسية في الامم المتحدة كانت في تلك المرحلة معادية تماما للعرب . وقد حددت الولايات المتحدة مواقفها حسب الحملة الانتخابية والضغط اليهودي . على سبيل المثال تقدمت الصين وبريطانيا بقرار في ٤ نوفمبر/تشرين الثاني ، ١٩٤٨ يدين اسرائيل ويطالبها بضرورة الانسحاب من النقب ، الا ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي اللذين وقعا على القرار اكدا انهما لن يسمحا بعقوبات ضد اسرائيل بحالة عدم موافقتها على القرار .(٢٩)

وفي ديسمبر/ كانون الاول ١٩٤٨ وامام التقدم العسكري الاسرائيلي ، وفي ظل جو الهزيمة ، طالب العرب لاول مرة رسميا الامم المتحدة بتطبيق قراراتها بما فيها قرار التقسيم الذي اصبح جميلا جدا نسبة لما ال اليه الحال بعد الحرب ، وامتداد اسرائيل الى ماوراء حدود التقسيم . هكذا كان القبول بهذا القرار متأخرا عن حركة الواقع . لكن إسرائيل عادت في ٢٢ديسمبر/كانون الاولي ،١٩٤٨ للعمل العسكري ، بالهجوم علي القوات المصرية المحاصرة في الفالوجا(وكان من ضمن ضباطها جمال عبد الناصر ومحمد نجيب اللذان قادا انقلاب ١٩٥٢) . كما ودخلت القوات الاسرائيلية الاراضي المصرية في سيناء وواصلت التقدم في ٢٩ ديسمبر . وطلبت مصر بعد ذلك المساعدة من الاشقاء العرب . لم يرد البعض على الطلب ، بينما وعد البعض الاخر بارسال القوات ،لكن المسافات والخلافات بين الاردن ومصر حالت دون ارسال شيء . في ظل هذه الاوضاع فكرت مصر في عقد اتفاق منفصل مع اسرائيل ، كما وقامت الولايات المتحدة بالضغط على اسرائيل للانسحاب من سيناء .(٣٠)

بعد هذا عقدت اتفاقات الهدنة عام ١٩٤٩ . وهذه رسخت شكليا على الاقل المواقع التي وصلتها الجيوش المتحاربه ، وبالتالي الحدود التي انتزعتها اسرائيل على مراحل في العام ١٩٤٨ . والجدير بالذكر ان المفاوضات الخاصة بالهدنة اعطت اسرائيل منطقة المثلث الزراعية ، بكل سكانها العرب ، وذلك بعد اتفاق بين الملك عبدالله والمفاوضين الاسرائيليين . وكانت هذه المناطق هي التي حافظت عليها القوات العراقية ابان الحرب . ولكن حينما انسحبت القوات العراقية جاءت اسرائيل لتاخذ مكانها ، اذ سبق وان هددت اسرائيل الملك عبدالله بانها قادرة على اخذ هذه الاراضي منه وايضا اراضي الضفة الغربية اذا لم يقدم لها هذا التنازل .(٣١)

ومع حلول ديسمبر (كانون الاول) ١٩٤٨ تحول تسعمائة الف فلسطيني من اصل ١,٤ مليون الى لاجئين . ونتج عن هذه الحرب فقدان الفلسطينيين اولا لدورهم المستقل كعامل سياسي له رأي في قضيته . فقد كانوا في هذه الحرب الهدف والضحية التي قررت كل الاطراف المتحاربة مصيرها . في هذه الحرب فقد الفلسطينيون أراضيهم ومزارعهم ، وقراهم ومدنهم ، كما ودمرت محلاتهم وبنوكهم ، ومستشفياتهم ومدارسهم ، واحزابهم ونواديهم ، اي انهم فقدوا وطنا كاملا . بل انهم دفعوا ثمن الوعود العربية بنجدتهم . ودفعوا ثمن الهزيمة العربية وسوء التقدير العربي . كما دفعوا ثمن سوء تقديرهم للموازين العربية والدولية ، واخطأت القيادات الفلسطينية والعربية المتفائلة في الكثير من حساباتها . ومع نهاية الحرب وتوقيع اتفاقات الهدنة (رودوس ١٩٤٩) احتلت اسرائيل ، وكان عدد اليهود فيها ٦٠٠ الف ، ٧٧,٤٪ من اراضي ومياه فلسطين (٢٠,٨٥٠ كيلومتر) ، مع انها لم تمتلك عمليا قبل بدء العمليات العسكرية سوى ٦ الى٧٪ من اراضي فلسطين . وخضعت بقية اراضي فلسطين ٢٣,٦٪ الى جهتين . اذ ضمت الضفة الغربية والقدس الى حكم الاردن ، وسط انقسام ومعارضة عربية رسمية لهذا الضم ، بينما خضعت غزة للادارة المصرية .

أما دولة اسرائيل فقد اقرت فور قيامها ، حق كل يهودي بالهجرة لفلسطين ، ومنعت الفلسطينيين بعد طردهم من ممارسة حق العودة . وهكذا وابان السنوات الاولى من قيام الدولة ، جاء مئات الالوف من المهاجرين اليهود ، ليملأوا المدن والقرى والاحياء الفلسطينية الخاوية . اذ قطن ما يقرب من ٣/١ من سكان اسرائيل في مساكن فلسطينيه ومدن فلسطينيه ابان السنوات الاولى لنشوء الدولة . وتأكيدا على سياسة الامر الواقع ، قامت اسرائيل باستباق اي ضغوط عليها فدمرت ٤٠٠ من القرى الفلسطينية في الاراضي التي احتلتها عام ١٩٤٨ . وأصدرت القوانين لمصادرة كل أملاك اللاجئين باعتبارها املاك غائب .(٣٢) كما سنت اسرائيل قوانين على مراحل نتج عنها مصادرة أغلبية اراضي الاقلية الفلسطينية التي إستطاعت البقاء على الارض عام ١٩٤٨ ، واصبحت بحكم الواقع لهذا اسرائيلية الجنسية ، ولم يكن عددها يتجاوز في ذلك الوقت ١٦٠ الف . وهكذا تحولت اسرائيل منذ انشائها الى اداة للحركة الصهيونيه مهمتها تهويد الارض والغاء الوجود العربي الفلسطيني ، وتحقيق حلم الدولة اليهودية القوية الممتدة والمسيطرة . ولم يكن هناك مقابل كل هذا في الجانب العربي من يستطيع ، الوقوف حاجزا بين اسرائيل وبين استكمالها لمشروعها . بل تؤكد تلك الأحداث ان اسرائيل لم تكن تتوقع تحقيق أهدافها بهذه السرعة وبهذه السهولة والى هذا المدى والحد الذي حققتة عام ١٩٤٨ .

ردود الفعل على نكبة عام ١٩٤٨ :
بين تصحيح الخطأ والتعمق في تكراره .

لم تستطع القوى العربية الخارجة من حرب فلسطين ، ان تستجمع نفسها بعد الحرب ، وتعقد اتفاقا مع اسرائيل يؤدي لعودة بعض الاراضي او لعودة بعض اللاجئين مقابل سلام شامل . بل كان هذا الامر مستحيل التطبيق و لا اطار له في التفكير العربي والاسرائيلي بنفس الوقت . فهذه الرؤية لم تكن ممكنة قبل الحرب ، رغم اكتمال مظاهر الدولة لدى اليهود قبل قيامها بسنوات طويله . لهذا استحال عمل ذلك بعد الحرب ، اي بعد ان اصبحت الجراح اعمق والخوف من اسرائيل اشمل ، اذ كان الصراع في اوله ، وكان لابد من تجربة حظ العرب في حروب قادمة . بل لو جلس مفكر او فيلسوف او منجم او فلكي عربي يستشف المستقبل ، لربما نصح العرب بعمل اي شيء لمنع الهزيمة قبل وقوعها ، او لعقد سلام يؤدي لعودة اللاجئين وبعض الاراضي و الحقوق ، مقابل حل المشكلة والاعتراف ببعض نتائج ماحصل عام ١٩٤٨ لقاء تنازلات اسرائيلية جوهرية . وقد فكرت بعض القيادات السياسية العربية في هذا الاتجاه ، ولكن الاطار السياسي الرسمي والشعبي ، الفلسطيني والعربي ، لم يكن ليتقبل هذا الامر . اذ ان ذلك لم يحصل لانه كان مستحيل التطبيق ، فالعرب اعتقدوا بانهم قادرون على التحرير الشامل ، واسرائيل اعتبرت ان ماأخذ اصبح لها ، وان عليها ان تتهيأ لهزيمة العرب في كل جولة مهما طال الزمن ، وان عليها فوق كل هذا ان تطور السلاح النووي لردع العرب . هكذا وضع الاساس العام لصراع مطلق بين العرب واسرائيل ، وقد اكتسب ذلك اهميه خاصه ودولية مع بدء نشوء وتطور الحرب الباردة بين الغرب والشرق ، وبين السوفيات وامريكا .

ولكن من وجهة النظر العربية الشعبيه ، ووفق تصور التيارات العربية المعارضة في الشارع العربي ، من حزب البعث الى حركة القوميين العرب ، وحركات الضباط الاحرار ، فان ما تم كان خيانة ، وان العرب لم يقاتلوا في فلسطين . بل شاع الرأي بان قتالا حقيقيا سوف يهزم اسرائيل ويعيد الحق الى نصابه . بل انطلق العرب من فكرة ان الذي يستطيع تحرير كل الارض ، لا يحتاج للتفاوض او لتقديم تنازلات في المدى المنظور ، لهذا كانت اتفاقات رودوس للهدنه المعقودة عام ١٩٤٨ اقصى ما استطاع الرسميون العرب عمله ريثما يتهيأون لمنازلة قادمة .

و بعد نكبة ١٩٤٨ ، بدأ الفلسطينيون يسعون للعودة الى بلدهم المحتل ، وذلك عبر عبور الحدود . وبدأت تنمو اشكال من المقاومة المسلحة ، وظهرت الى العلن تيارات عربية تدعو للانتقام والعودة .(٣٢) هكذا تشكلت حركة القوميين العرب ذات القاعدة الفلسطينية والعربية

بنفس الوقت ، وبدأت الحركة العربية الداعية للتصدي والقتال تنتشر من المحيط للخليج . كما وانبثق عصر القومية و عصر عبد الناصر الذي دشن بداية مرحلة تاريخية لتدعيم استقلال مصر والعرب من النفوذ البريطاني والفرنسي . وبدأ عصر الانقلابات العربية العسكرية ، وارتفع معه شعار لا صوت يعلو فوق صوت المعركة ، وتركزت السياسات حول الشعارات الكبرى وعلى رأسها الوحدة العربية وتحرير فلسطين كمفتاحين رئيسيين للنهضة العربية المنتظرة . ولكن شيئا حقيقيا لم يحصل في التعامل مع الخطر الاسرائيلي على العرب .

ان الفرضية الرئيسية في عصر الانقلابات العربية انطلقت اساسا من هزيمة عام ١٩٤٨ . فقد انطلق العقل العربي من ان سبب الهزيمه الاساسي ، يعود الى خيانة الملوك و الرؤساء العرب . وان الهزيمة نتجت عن وجود ملوك ورؤساء يسمعون كلام بريطانيا ، ولايقوون على معارضتها في امر من امورهم الامنية والوطنية . هكذا انطلق الفكر القومي ، من ان تغيير الانظمة وتغيير الملوك سوف يؤدي الى تحقيق استقلال الارادة الكاملة ، وبالتالي الوصول الى تحرير فلسطين . فقوة اسرائيل ، من وجهة النظر الثورية والقومية ، كمنت اساسا في خيانات العرب ، وليس بسبب عوامل اخرى يهودية أو اسرائيليه أو دولية . بل آمن العرب بانهم ما ان يقرروا خوض المعركة حتى النهاية الا وتكون النتيجة مضمونة . لهذا عاد عبد الناصر الى مصر وهو على استعداد لقيادة انقلاب ضد ملكه ، و بدأ الشارع العربي والفلسطيني يرفع شعارات ضد الانظمة العربية معتبرا انها سبب الهزيمه . فكانت النتيجة التي خلص اليها عبد الناصر المحاصر في الفالوجا :

ان [«الواقع الاسرائيلي» لايمكن مواجهته الا بواقع عربي جديد . والجيوش العربية القادرة فعلا على مواجهة اسرائيل وهزيمتها لايمكن بناؤها في ظل الواقع العربي الراهن . . . الواقع الفاسد المتفسخ الممزق . . . «من هنا يجب ان نبدأ»] .(٣٤)

ولكن الحقائق كانت مختلفة ، اذ لم يكن هناك ما يضمن ان الانظمة العربية الثورية ستكون افضل حالا في القتال من نظام فاروق في مصر ، او الملك عبدالله في الاردن ، اوالملك الهاشمي في العراق . ومع تسيّد عصر الانقلابات العربية وارتفاع الوتيرة بامكان تحقيق التحرير والعودة ، لم يحصل شيء على ارض الواقع يغير المعادلة . فقد انشغل العالم العربي بقيادة عبدالناصر والتيار العربي القومي ، في مواجهة مع الاستعمار البريطاني والفرنسي هدفها تحقيق استقلال بقية الدول العربية وطرد نفوذ بريطانيا من مصر اولا ، ومن بقية الاقطار العربية ثانيا . كانت الحرب الباردة قد بدأت تستعر ، وكان الاستعمار القديم الى افول ، ولكن افوله تطلب مقاومة وتطلب موقفا . لهذا كان اهم ما قام به عبدالناصر في بداية عهده ، هو تدشين تلك

المرحلة في مصر ، ثم نقلها لبقية الاقطار العربية بما فيها تبنيه للثورة الجزائرية . ولكن هذا وضع مصر في تصادم معَ القوى الكبرى .

وشنت اسرائيل منذ الخمسينات ، عمليات عسكرية بواسطة وحدات كوماندوس على قرى عربية امنة في الضفة الغربية من الاردن (غارتي قبيا ، ونحالين) ، كما وهاجمت مركز البوليس المصري في غزة ، كما وهاجمت احدى القرى السورية تاركة وراءها عشرات القتلى العرب الامنين بعد كل غارة . وقد ارتبطت تلك الغارات بسعي اسرائيل لايقاف عمليات التسلل العربية والفلسطينية الى اراضيها ، كما ارتبطت ايضا بمحاولات اسرائيل تجفيف بحيرة الحولة ، وبناء محطة توليد كهرباء في المنطقة المنزوعة السلاح بين سوريا واسرائيل . وقد تلبدت ابان تلك الاحداث سماء الشرق ، وهددت الادارة الامريكية(التي لم تكن مرتبطة باسرائيل بقدر ارتباط اسرائيل في ذلك الوقت بفرنسا) اسرائيل ان استمرت في مشروع تجفيف بحيرة الحولة ، مما جعل اسرائيل توقف الامر في ذلك الوقت على الاقل .[٣٥]

لكن ذلك شكل جزءاً من توتر استمر بالتصاعد على الجبهة المصرية الاسرائيلية ، حيث اعتبرت اسرائيل ان مواقف عبدالناصر وتسلحه يستلزم ضربة وقائية تضمن عدم قيامة بباغتتها . هكذا توافقت المصلحة الاسرائيلية مع البريطانية والفرنسية اللتين ارادتا تحطيم عبدالناصر لكي تحافظا على نفوذهما في مصر وفي قناة السويس التي اممها ناصر . و انتقلت اسرائيل عام ١٩٥٦ للاعتداء على مصر في العدوان الثلاثي الذي شاركت به فرنسا وبريطانيا مما قاد الى احتلال كل من سيناء و قطاع غزة لعده شهور .[٣٦] وفي تلك الحرب حقق عبد الناصر نصرا سياسيا كبيرا ، اذ كان التدخل السياسي الامريكي والسوفياتي لصالحه ، وكانت تلك الحرب ايذاناً بنهاية نفوذ كل من بريطانيا وفرنسا في الشرق ، وبداية حقيقية للنفوذ الامريكي السوفياتي الاوسع وغير المباشر .

ورغم هذه الهجمات الاسرائيلية ، ورغم مقدرة اسرائيل على احتلال اراض واسعة من مصر فإنّ الواقع العربي بقي ينظر لهذه الضربات بعين الشك . فالاعلام العربي كانّ ينفي ان يكون النصر الاسرائيلي في سيناء عام ١٩٥٦ نتاج تفوق اسرائيلي ، بل نتاج دور فرنسا وبريطانيا الداعم لاسرائيل . لهذا اصبح منطق عزل فرنسا وبريطانيا عن اسرائيل (وعزل أمريكا فيما بعد عن اسرائيل) يكرّر نفسه مثل منطق عزل الحكام العرب وجلب حكام جدد يؤمنون بالقتال . وفي كل الحالات لم تتغير النتيجة ، اذ استمر التفوق الاسرائيلي على العرب .

ولكن في الوقت نفسه برزت وتألقت فكرة الوحدة العربية . اي الفكرة التي تؤكد ان وحدة العرب ممكنة ، وانها سوف تؤدي لتحرير فلسطين من الصهيونية . هذا شعار تبنته الحركة

القومية العربية وتبنته الحركة السياسية في الاقطار العربية وتبناه عبدالناصر . اي انه على العرب الاستعداد لمعركة التحرير عبر التوحد اولا . هكذا انتظر الفلسطينيون في الخيام العام تلو العام ، وانتظر العرب العام تلو العام . ووقعت الوحدة العربية بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ، ثم دب الخلاف بينهما ، وانسحبت سوريا من الوحدة عام ١٩٦١ . من جهة اخرى عندما هدد عبدالكريم قاسم بغزو الكويت فور استقلالها عن بريطانيا ، كان واضحا ان التنافس العربي-العربي على شعار الوحدة اصبح بحد ذاتة مجالا للصراعات العربية العربية . ووقعت حرب اليمن في العام ١٩٦٢ ، بعد ان تدخلت مصر لدعم الجمهوريين وتدخلت المملكة العربية السعودية لدعم الملكيين . واستمر القتال في اليمن كحرب استنزاف دائمة للجيش المصري ، حتى هزيمة مصر في حرب ١٩٦٧ . ان سياسة عبدا الناصر العربية وكذلك الدولية في مجال عدم الانحياز وسياسته السوفياتية التي اعتقد انها تساهم في حماية مصر وتنميتها كما وسياسته تجاه اسرائيل التي شعر انها تشكل خطرا على امن مصر ، اوقعت توترات كبيره بين عبدالناصر والولايات المتحدة ، التي كانت تسعى لبسط دورها العالمي ، ومواجهة تمدد الاتحاد السوفياتي في اوج الحرب الباردة .(٣٧)

وقد انتهى الامر الى مصر متحالفة مع الكتلة الشرقية بقيادة عبدالناصر ، والعالم العربي مستنزف في صراعات بين دول عربية مستقلة ومحافظة وملكية اقرب لبريطانيا او للولايات المتحدة ، وبين دول عربية متحالفة مع الاتحاد السوفياتي . وفي ظل هذا الانقسام خسرت قضية فلسطين وخسرت قضية التحرير ، بل فاتت الفرصة لتحرير فلسطين ولاقرار اي من حقوق شعبها ضمن الحدود الدنيا . هكذا اختفت الامال الخاصة بالوحدة العربية ، وبدأت الفكرة تدور في فلك لا نهاية له . لقد عاش العرب مرحلة القومية والوحدة في الوجدان ، وبينما كانوا في الممارسة بعيدين عن هذه الوحدة وبالتالي يعيدين كل البعد عن تحرير فلسطين .

وعندما جاء الحبيب بورقيبه رئيس تونس في زيارة له للقدس في ١٩٦٥ و دعى العرب والفلسطينيين من احدى مخيمات اللاجئين لان يختاروا أحد خيارين : اما ان يقاتلوا ويحرروا ارضا ويفوا بوعودهم ، او ان يسالموا اسرائيل ويشرعوا في عقد صلح يأخذوا بمقتضاه ما يمكن اخذه وفق فرضية المراحل . كان الرد العربي حاضر البديهة ، كما هو حاضر البديهة دائما . اذ اتهم بورقيبه بالانحراف ليسيطر صوت المقاومين والمجاهدين .(٣٨) فقد انطلق بورقيبة من الواقع الصعب الا وهو ان كيان اسرائيل اصبح واقعا يصعب تدميره ، وان الحرب العربية لا يسمح بها لتدمير هذا الكيان او اضعافة ، وان الافضل البحث عن خيارات اخرى قد تسمح بتحصيل نتائج افضل للفلسطينيين او للعرب . بل انطلق من واقع ان تلك المخيمات التي انشأت

للفلسطينيين اللاجئين ، وان تلك الوعود التي تعطى للفلسطينيين يجب ان تحل في اطار يحقق تقدما في وضع الفلسطينيين ويحقق بعض الوعود التي كان الخيار العسكري عاجزاً عن تحقيقها .

الطزيق الى حرب ١٩٦٧
مفروش بالنوايا الحسنه

ونشأت منظمة التحرير رسميا في مؤتمر للقمة عُقد في القاهرة عام ١٩٦٤ لتتحمل مهمة تعبئة وتنظيم الفلسطينيين . وقد اقترب العرب من بعضهم مؤقتا للبحث في الخطر الاسرائيلي الناتج عن محاولة تحويل مجرى نهر الاردن . ونشأت منظمات فلسطينية اخرى اهمها حركة فتح وقاعدتها سوريا . وبدأت تلك الحركة الشابة تقوم بعمليات عسكرية منذ عام ١٩٦٥ عبر الحدود المتاخمة لاسرائيل من الضفة الغربية ومن سوريا ومن لبنان . هكذا كانت فتح بجناحها العسكري "العاصفة" مثل حماس والجهاد الاسلامي اليوم ، تمثل الجناح المقاوم ، بينما منظمة التحرير بقيادة الشقيري ومركزها القاهرة تمثل الجانب الرسمي والمقيد بحدود وسقف السياسة العربية الرسمية . فبينما تبنت مصرا منظمة التحرير ، تبنت سوريا المعارضة (فتح) وكلا الدولتين في حينها كانتا في صراع وتنافس .(٣٩)

وقد استند فكر حركة فتح ، التي قادت العمل الوطني الفلسطيني ومنظمة التحريرفيما بعد ، الى عناصر هي في جوهرها رد مطلق على الطابع المطلق للصراع . وقد إعتبرت حركة فتح ، اولى الحركات الفلسطينية الفدائية ، بان عدم مقدرة العرب على تحرير الارض التي قامت عليها اسرائيل عام ١٩٤٨ ، هو نتيجة طبيعية لعدم الاستعداد العربي وللخلافات العربية العربية . لهذا قلبت فتح الشعار العربي "الوحدة طريق فلسطين" وحولته الى : "فلسطين طريق الوحدة ." لهذا وفي ظل عدم قيام الدول العربية بتحرير فلسطين ، قام فكر فتح كما قامت سياستها في المرحلة الاولى على تحقيق احد احتمالين .

الاحتمال الاول إستند الى سيناريو الحرب الفدائية المنطلقة من الحدود العربية مع فلسطين ، والتي تقود بدورها الى ردود فعل اسرائيلية على الدول العربية ومواقع الوجود الفلسطيني . وقد اعتبرت حركة فتح ان ردود الفعل الاسرائيلية ، في ظل العجز العربي الرسمي ، ستتحول الى عامل احراج كبير للسياسة العربية وشعاراتها . واعتبرت ان هذا العجز سيفرض على الدول العربية التعامل مع التحدى الاسرائيلي بالمثل . هذا التصور استند على

تحويل الحرب الفدائية الفلسطينية الي عامل تسخين ومفجر للحرب العربية الاسرائيلية الجديدة . إن هذا التصور تم تنفيذه نسبيا في عام ١٩٦٧ عندما ادت العمليات الفلسطينية المنطلقة من سوريا وبموافقة سوريا التي كانت تتنافس مع مصر على الدور القيادي القومي والثوري في المنطقة العربية ، الى ردود اسرائيلية عنيفة وتهديدات أدت في مجملها الى تصعيد الموقف وصولا الى حالة الحرب . لكن هذه الحرب لم تنتج التحرير المنشود بل انتجت هزيمة شاملة لجميع الجيوش العربية المشاركة ، وضربة كبرى لقيادة المشروع العربي القومي الممثلة في دور الرئيس عبد الناصر .

اما تصور فتح الثاني فقد اخذ بالاعتبار إمكان فشل السيناريوالاول . لهذا أقالت حركة فتح بانه في حالة عدم قيام النظام العربي او الجيوش العربية بالرد على الضربات الاسرائيلية ، فسوف يؤدي هذا الى تعبئة الجماهير العربية والفلسطينية التدريجي والذي يؤدي بدوره الى حالة نهوض عربية ، تكون فيها المبادرة السياسية والعسكرية للشعب العربي لا لحكوماته . وقد سميت هذه النظرة بنظرية التفجير المتسلسل .(٤٠)

اذن ووفق النظريتين في ادارة الصراع مع اسرئيل ، كانت هذه الطلائع الفلسطينية الشابة التي تجسدها حركة فتح ، تسعى للمشاركة العربية الرسمية وفق السيناريو الاول والشعبية وفق السيناريو الثاني ، ولم تكن تمانع تداخل وتكامل السيناريوهين في الجهد لتحرير فلسطين . إذ نظرت هذه الحركة الشابه الى الصراع مع العدو كما نظر العدو اليه ، في اطار نفي كل طرف للاخر ، في ظل مواجهة تناحرية اساسها الاحتكام الى الحرب ووسائل القتال . ولكن الحركة الوطنية الفلسطينية تميزت في كلا السيناريوهين ، في سعيها الى إعتبار دور القوى الخارجية العربيه هاماً او اساسياً من اجل نيلها لحقوقها . في هذا خصوصية كبيرة للحركة الوطنية الفلسطينية .

والحركة الفلسطينية لم تكن في حالة تنافس مع دولة استعمارية كفرنسا او بريطانيا ، يتوقع منها بعد ان اصبح الاستعمار مكلفا ماليا ونفسيا وعسكريا العودة الى اراضيها ووطنها الام البعيد جغرافيا . وهذا لم يفتح المجال لامكانية تبلور حل يقوم على الانسحاب مقابل علاقات حسنة مع اسرائيل . فالصراع الوجودي والمطلق على الارض التي احتلتها اسرائيل عام ١٩٤٨ ، بين الفلسطينيين والاسرائيليين ، يعني انه على الفلسطينيين الاستمرار في المعاناة الناتجة عن غياب القدرة على تحديد تصور اخر للاستقلال او للتحرير يكون بديلا (ولومؤقتا) عن التصور المطلق . لهذا وجد الفلسطينيون انفسهم قبل عام ١٩٦٧(وبعده لفترة طويله) في طريق مسدود اساسه طبيعة الصراع المطلقة في ظل معادلات سياسية وعسكرية وعربية ودولية

في غير صالحهم . ومع ذلك استمروا يحملون في فكرهم نظرة للحقوق الفلسطينية تطورت عبر الصراع واللجوء تناقضت جذريا مع التصور الصهيوني لجميع المدارس السياسيه والحزبيه .

لهذا بقي الفلسطينيون ، نسبة لحركات استقلالية عربية او في العالم الثالث في حالة شك وضعف وحتى عدم ثقة تجاه نتيجة نضالهم . لهذا كثرت في الحركة الوطنية الفلسطينية الوقفة التاريخية ، والموقف التاريخي ، والشهادة التاريخية ، او حتى الفكر الحسيني (نسبة لاستشهاد الحسين في كربلاء) . فكل معركة وقفة ، وكل مواجهة موت اثناء الوقوف ورفض للركوع . وامام تداخل العوامل والاوضاع المحيطة بالقضية الفلسطينية وجد الفلسطينيون انفسهم بلا امان فيما يتعلق بمطالبهم وامكان تحقيق اهدافهم .

وقد عكس سعى حركة فتح في اوائل الستيات الى قلب الشعار العربي " الوحدة طريق فلسطين" الى " فلسطين طريق الوحدة" حالة القلق السائدة في الساحة الفلسطينية . فقد طرق الخوف في أن يكون تركيز العرب على الوحدة مدخلاً الى نسيان فلسطين مما يعطي الفرصة لاسرائيل لبناء مجتمعها ودولتها وقوتها .(٤١) فقد إمتلك الشبان الذين اسسوا هذه الحركة شعورا بالاستعجال والسرعة عكس هذه المخاوف . بل شكلت تلك المرحلة بداية الخوف من ان تقود الخلافات العربية وعدم القدرة على فعل جدي مع إسرائيل الى تشريع وجودها وبالتالي فرضه كامر واقع . بل اكدت فتح في تلك المرحلة المبكرة بانه اذا لم يتحرك الفلسطينيون بسرعة فالوقت سيساعد الحركة الصهيوينة على بناء مجتمعها وتوحيده .(٤٢) بل لو حصل هذا فسوف تصبح امكانية عودة اللاجئين الى وطنهم حدثا يصعب حدوثه .

وقد ادت عمليات فتح ودعم سوريا لها ، و التي كان يحكمها في حينها نظام ثوري يتبنى شعارات حرب الشعب الطويله الامد ، الى ردود اسرائيلية قاسية . وقد سعت اسرائيل في تلك الفترة لجر سوريا الى معركة على الحدود وخاصة في المنطقة المنزوعة السلاح . وقد ادى القصف الاسرائيلي للقرى السورية ثم التصريحات الاسرائيلية حول تغيير النظام في سوريا ان استمرت في تصعيدها ودعمها للمنظمات الفلسطينية ، الي وضع الرئيس عبدالناصر الزعيم القومي في موقف الدفاع .(٤٣) وكانت مصر في حينها تعاني من نتائج تدخل جيشها في حرب اليمن ، وكانت في ادنى حالات الاستعداد للحرب ، وكان العالم العربي مقسوما بين ملكيين محافظين وجمهوريين ثوريين قوميين . هكذا تورط عبد الناصر واضطر لتهديد اسرائيل ان استمرت في اعمالها ضد سوريا . وكانت اسرائيل تبحث في حينها عن فرصة لامتحان اتفاق الدفاع المشترك الجديد بين سوريا ومصر ، وعن فرصة لاعادة العرب الى الوراء في شعاراتهم وفرص تهديدهم العسكري لكيانها . وكانت تبحث بنفس الوقت عن طريقة لتغير

دورها ولتجلب اكثر الدول قوة وعلى رأسها الولايات المتحدة ، للاعتراف لها بدورها وقيمتها واهميتها العسكرية والسياسية الاقليمية .

ومع ازدياد التوتر على الحدود السورية الاسرائيلية ، ومع تدفق المعلومات السوفياتية المتتالية ، بان القوات الاسرائيلية تقوم بوضع حشود على الجبهة السورية ، حشد الرئيس عبد الناصر القوات المصرية في سيناء . ثم طلب الرئيس عبد الناصر في ١٨ مايو من الامم المتحدة سحب قواتها من المنطقة الفاصلة بين مصر واسرائيل ، وبدأت القوات المصرية تحتل تلك المواقع . وسعى الرئيس عبد الناصر لضبط النفس من حيث وضع قواتة في شرم الشيخ مقابل مضائق تيران . لكن حالة الهيجان الشعبي في العالم العربي ومطالبة الفئات العربية الاكثر قومية في اطروحاتها والتي مالت للمزايدة اللفظية لعبد الناصر اضافة لدول عربية اخرى بإجراءات اكثر قوة ، دفع عبد الناصر الى منع الملاحة الاسرائيلية في ميناء العقبة .(٤٤) هكذا ارتفعت معنويات العرب من المحيط للخليج ، وبدأ العرب يشعرون انهم في القمة ، وان حلمهم التاريخي يقترب من التحقيق . كان العرب في تلك الايام يشعرون بالنصر دون ان يحققوه ، فقد كانت كلمات عبد الناصر كافية لكي يشعروا بنشوة الانتصار ، لكن الرئيس عبدالناصر كان يعرف ان العرب غير مهيأين ، وكان يغامر لارضاء الشارع ولحماية موقعه العربي الشعبي ، ولجعل اسرائيل توقف هجماتها وتهديداتها ، وكان يعتقد ان فرصة للقتال افضل سوف تأتي بعد سنوات ، وان الموقف السوفياتي والامريكي ، كما كان الامر عام ١٩٥٦ ، قد يمنع هذه المرة القتال ويخرج عبدالناصر بنصر قومي وسياسي كبير من هذه المواجهة ، وهذا ما نتبهت له اسرائيل وسعت لمنع تحقيقه ولاجهاضه .

واتت المفاجأة القاسية ، هزيمة للعرب في ٦ يونيو/حزيران ١٩٦٧ ، اذ خلال ايام سقطت مدينة غزة الفلسطينية و التابعة منذ حرب ١٩٤٨ للادارة المصرية ، وسقطت سيناء المصرية ، وسقطت قناة السويس المصرية ، وسقطت القدس الفلسطينية التابعة للاردن منذ حرب ١٩٤٨ ، وسقطت الضفة الغربية الفلسطينية والتابعة للاردن منذ حرب ١٩٤٨ ، وسقطت الجولان السورية ، وذهل الشارع العربي ، وذهل الجميع . بل ان سكان الضفة الغربية خرجوا للشوارع في البداية لاستقبال الجيوش العربية معتقدين ان القادم هو الجيش العربي ، واذا بهم يجدون امامهم الجيش الاسرائيلي .

ولكن كيف نجحت اسرائيل في خداع ثلاث دول عربية رئيسية (ومن ورائها العالم العربي)؟ المشكلة كانت اعمق من مفاجأة ، بل تعود لاساليب الادارة ، والتنظيم ، وحداثه التجربة العربية مع الدولة ، كما ومع الحرب ، اضافة لفقدان القدرة بالتالي على تعبئة الموارد

ونقص القدرة الصناعية ، وضعف التعليم ، والتكنولوجيا ، وحالة عدم الاستقرار التي تسود الانظمة السياسية والتي تضمنت الخوف من الجيوش التي كانت تناط اليها مهمة التحرير. كما ساهم في تلك الهزيمة وجود عزلة بين فئات اجتماعية كبيرة ، ونقمة بين فئات اخرى من الطبقة الوسطى على الدولة . وكانت في تلك الفترة الانظمة الاشتراكية والمتخمة بانظمة المخابرات التي تحد من الحوافز هي سيدة الموقف . لهذا كان من الصعب ان تنتصر امة هذه هي قاعدتها ، امام امة تأخذ بعقيدة سياسية واجتماعية تميل للمشاركة والاستقرار السياسي والتجانس الاجتماعي واحترام الفرد والقانون والبناء الصناعي والعلمي .

اكتشاف دولة
اسرائيل ومجتمعها

لم يكن واضحا لدى العقل العربي بأن المعركة في فلسطين لها طابع حضاري وسياسي واجتماعي ونفسي واقتصادي ، وأنها أكثر من مجرد مواجهة بين عصابات صهيونية وبين أمة عربية . هكذا شاع في الفكر العربي شعار القتال بعد تغير الأنظمة ، وأن اليهود عصابات وأنهم لا يشكلون شيئا قادراً على البقاء . بل تعمقت رؤية مصدرها كتاب بروتوكولات حكماء صهيون . هذا الكتاب الخرافي غير الصحيح الذي أصبح لسان حال الخبراء العرب في شؤون إسرائيل . هكذا أصبحت الخبرة تعتمد على الدعاية والتمني عوضا عن الحقائق مما خلق عقلا عربيا تجاه اسرائيل شديد الثقة بقدراته وشديد الاستخفاف بعدوه الذي يهدد امنه . هكذا كان العرب يخلقون كارثة دون اي دراية لحجمها وحدودها .(٤٥)

بل الاسوأ في الفكر السياسي العربي انه ركز كثيرا على عدم معرفة اسرائيل ونظامها وحياة سكانها . فمن الواضح ان العرب حينما دخلوا الصراع في مواجهة اسرائيل ركزوا على منع الكتب ومنع مرور المعلومات عن الكيان الاسرائيلي . وهذا امر مارسته بجدارة وبجهل معظم اجهزة الرقابة والمقاطعة العربية . وفي هذا تعمق جهل المسؤولين العرب والمؤسسات العربية بالشأن الاسرائيلي ، وذلك نتاج قلة المعلومات وقلة المعرفة في امور وشؤون العدو . ويبدو ان المنطلق كان يقوم اساسا على أن منع المعلومات عن العدو ومجتمعه وجيشه وسكانه هو الافضل لتفادي الاحراج وهو الافضل لتأكيد انهياره وعدم وجوده وانه في طريقة للفناء . فبينما تقول الدعاية الرسمية العربية بان اسرائيل على وشك الانهيار ، تقول الحقائق بانها اطلقت قمراً صناعياً ، او انها تفوقت في مجال البحث . ان الرسميين العرب لهذا سعوا منع

هذه المعلومات عن شعوبهم ظنا منهم بأنها تحمل عامل تقوية لاسرائيل وتأكيد لوجودها ، وإنها تضعفهم . بل اعتقدوا ان المواطن الذي يدخل الحرب وهو جاهل بكل الابعاد الانسانية والسياسية والعسكرية عن عدوه ، هو اكثر قدره على التضحية والقتال من مواطن يمتلك معلومات دقيقة عن نقاط قوة الخصم .

ولكن المسؤولين العرب لم يدركوا ان هذا المنطق هو الذي مهد لكارثة ١٩٦٧ . ان المنطق الذي ادى الى سيادة عقلية الجدار الحديدي في الاتحاد السوفياتي وشرق اوروبا هو نفسه الذي ساد في العالم العربي في التعامل مع المعلومات والمعرفه عن العدو . والحقيقه الصعبة انه حتى في التلفزة العربية دارت نقاشات مطوله حول خطورة وضع صورة جندي او شرطي او مسؤول او رئيس اسرائيلي على التلفزة؟ وهل هذا دعايه لاسرائيل ام لا؟ نعم مارست وسائل الاعلام العربي الرقابة ومسحت اشرطة لانه ظهر فيها مسؤول اسرائيلي؟ وقد ظل هذا الوضع على حاله حتى عام ١٩٦٧ بل وحتى بعد ذلك بفترة .

في هذا الاطار التاريخي والتعامل الغيبي العربي مع اسرائيل بعد حرب ١٩٤٨ ، استغلت اسرائيل عامل الوقت ، اذ قامت في الاعوام الاولى لنشوئها بجلب مايزيد عن ٦٠٠ الف يهودي مهاجر ، والجدير بالذكر ان معظم من شكلوا تلك الهجرات اليهودية الكثيفة كانوا من يهود البلاد العربية من المغرب ، اليمن ، العراق ، الجزائر ، تونس ، ليبيا ، مصر ،اضافة الى ايران وتركيا .(٤٦) وربما كان منطق العرب في ذلك الوقت ، ان ارسال كل اليهود الى فلسطين يسهل من هزيمة اليهود في اسرائيل مرة واحدة والى الابد ، وانه يسهل ايضا اضعاف اسرائيل باعداد جديدة من اليهود الذين يصعب اعالتهم . ولكن الذي حصل ان هؤلاء شكلوا العمود الفقري الشعبي لدولة اسرائيل الحديثة ، وهؤلاء بنفس الوقت فقدوا املاكهم وحقوقهم في البلاد العربية ، وهم اصبحوا على مر السنوات اشدّ اليهود نقمة على العرب واكثرهم تأييدا لليكود . ففي اسرائيل وفي الخمسينات ، كانت تنجز اسس مجتمع ، وفيها ايضا كانت وحدة هذا المجتمع امتن من وحدة المجتمعات العربية بسبب بناء مؤسسات سياسية لها مصداقية واستمرارية واستقرار .

وهكذا على مر السنوات اتت اسرائيل بخبرات جديدة ، وبنت الجيش ، وبدأت بالتصنيع النووي ، كما بنت الجامعات ، ورتبت قوتها بحيث تصعب هزيمتها . واهم ما قامت به اسرائيل ، انها سعت لبناء مجتمع مدني شبه متجانس ، وبنت بنفس الوقت قاعدة شبه صناعية علمية . وقد شكل هذا البناء مضمون قوة هذه الدولة وسر مقدرتها على البقاء . بل انها نجحت في تحويل اليهود العرب الذين هم أقلّ اليهود ملائمة للمجتمع المنظّم شبه الصناعيّ

والأكثر تنظيما الذي اقامته ، الى علماء ومفكرين ومتخصصين ونجحت بالتالي مع سكانها أكثر مما نجحنا نحن العرب مع ابناء الريف او البادية من ابنائنا .(٤٧)

لقد نجحت اسرائيل في بناء مجتمع متساو ومنسجم نسبيا ، تغلب عليه المواطنة الاسرائيلية بينما نحن في العالم العربي واجهنا صعوبات كبيرة (ومازلنا) في بناء هوية واضحة ، وولاء قوي لدولنا ، وانسجام اجتماعي وسلوك مدني ومجتمع مدني يهدم الاسوار التي بنيناها في المجتمع الواحد ، هنا وفي هذا المجال كانت كارثتنا الحضارية الاكبر .

ما بعد هزيمة ١٩٦٧ :
أعباء جديدة وتناقضات عميقة

ومع هذه الهزيمه كبرت الفاتوره : الان على العرب تحرير اراضي ١٩٤٨ اضافه لعودة لاجئي ١٩٤٨ المنتشرين في العالم العربي والعالم ، وان يضيفوا للفاتوره اراضي ١٩٦٧ وعودة لاجئي ١٩٦٧ الجدد . بعض المتفائلين اعتبر ما حصل سبباً يسهل على العرب تحرير فلسطين كاملة ومرة واحدة ، بل ساد منطق يقول ، لو تقوم اسرائيل باحتلال كل البلاد العربيه فسيكون من السهل تحرير فلسطين مرة واحدة . من جهة اخرى اعتبر المتشائمون ان الفاتورة اصبحت كبيرة والوضع اصبح صعبا . ولكن الكثير من العرب اعتقد ان الهزيمه نتيجة خدعه ، ونتيجة عوامل خارجيه ، ومؤامرة دولية شارك بها السوفيات ، ضد العرب ومصر ، لا نتيجة عوامل داخليه صارخة تقع في صلب البنيان العربي .

وخسرت الاقتصاديات العربية المصرية السورية الاردنية مرة ثانيه في حرب ١٩٦٧ ، وجاء الدور لاستنزاف النفط العربي في معركة فلسطين ، اذ بدأت المملكة العربية السعودية ودول الخليج الالتفات لاعادة بناء القاعدة العسكرية العربية لتحرير اراضي ١٩٦٧ . اذ مال الخطاب العربي بعد تلك الحرب للتركيز على مسح اثار العدوان الاسرائيلي عام ١٩٦٧ ، عوضا عن الانغماس في السعي لتحرير اراضي ١٩٤٨ . فكما اصبح العرب في حالة تأخر عن اللحاق بشعار رفض التقسيم الى القبول به بعد فوات الاوان ، فأن رفع شعار التحرير الشامل تم التراجع عنه بعد فوات الاوان ايضا في حرب ١٩٦٧ . اذ اصبح من الملح اعادة بناء الجيش الاردني والسوري والمصري ، واصبح من الضروري دعم الجيش المصري في حرب الاستنزاف الضرورية في حينها لاعادة الثقه للجيوش العربية ، واصبح من الضروري بنفس الوقت تأمين دعم عربي دائم لقوات المقاومة الفلسطينية التي نهضت بقوة بعد ان توحدت في اطار منظمة التحرير

الفلسطينيه . وانبثقت بعد حرب ١٩٦٧ موجة عربيه جديده للثأر وللتحرير وللعوده قادتها اساسا المقاومة الفلسطينية على الصعيد الشعبي ، اما على الصعيد الرسمي فتمثلت باعادة بناء الجيوش العربية و بحرب الاستنزاف على الجبهة المصرية ، والمناوشات على الجبهة السورية .

ولكن تناقضات الواقع العربي ، وغياب القاعدة العلمية والتكنولوجية ، وغياب ثقافة الحرية والعدالة ، ساهمت سويا(الا باستثناءات محددة) في تحويل القتال ضد اسرائيل بعد عام ١٩٦٧ لكابوس جديد . هكذا لضعف بنية المجتمع الاردني ولضعف التجربة الاردنية في الدولة التي بدأت مع الملك عبدالله في العشرينات من هذا القرن ، شعر الاردن ان حمل الفلسطينيين للسلاح في وسط الاردن خطر على الهوية الاردنية وعلى مستقبل الاردن . وتعزز هذا الامر السلبي نتيجة ضعف التجربة الفلسطينية مع الدولة والتنظيم ايضا . وامام حالة المد الشعبي الكبير والشعارات والسلوكيات التي ترافقه ، وجدت المقاومة الفلسطينية انها دون المقدره على استيعاب هذا المد . ونتج عن الامر الالتهاء بصراع وحرب اهليه اردنية فلسطينية بدأت مناوشاتها في عام ١٩٦٨ واستمرت بعنف طوال اعوام ١٩٧٠-١٩٧١ . وقد قتل ابانها الالوف ودمرت احياء في المدن الاردنية و مخيمات اللاجئين الفلسطينيين . هكذا تحولت المخيمات التي كانت رمزا لعدوان اسرائيل لموقع للاقتتال العربي العربي والاهلي الاهلي وهذا افقد العرب الكثير من مصداقيتهم .(٤٨)

ومع انغلاق فرص القتال عبر الحدود الاردنيه ، ومع خروج الفدائيين الفلسطينيين من الاردن ، انطلق العمل الفدائي بقرار عربي وبدعم شعبي من لبنان . فمن جهة تألقت بطوله المقاومه ، اذ صدق جيل من المقاومين العرب واساسا من اللبنانيين والفلسطينيين في عمل جاد في محاوله لاقرار الحقوق العربيه . ولكن الصدق والنيه الطيبه لم يشكلا عنصرا كافيا لصنع التغيير . فلبنان منقسم ، ولديه تجربه هو الاخر هشه وضعيفه مع الدوله منذ ان وجد لبنان الكبير عام ١٩٢٠ كوحده جديده لكيان ناشئ . ان لبنان الطري العود لم يكن ليتحمل ، في ظل هدوء كل الجبهات العربيه ، تحوله لمركز الصراع العربي الاسرائيلي . لهذا اصطدمت الدوله في لبنان مع العمل الفدائي المنطلق من اراضيها منذ عام ١٩٦٩ لسبب رئيسي : ان لبنان الرسمي والاقتصادي لا يستطيع ان يتحمل ضربات اسرائيليه دائمه لمطاراته واقتصاده واراضيه .

ولكن من جهة اخرى كانت الانقسامات في لبنان ، وازمة الهويه فيه تؤكد وجود شرخ كبير حول مشروعية الدولة او حتى مشروعية الكيان اللبناني ، وهذا شرخ قائم في كل دولة عربية نظرا لحداثه عهدنا بالكيان العصري الحديث . لهذا فعندما وقع اشتباك بين الجيش اللبناني

والفدائيين الفلسطينيين ، تدخل الشارع اللبناني المسلم لصالح الفلسطينيين ، ووقف قطاع كبير من الشارع المسيحي مع الدوله . هكذا انقسم لبنان ، وبدأت مشكلاته وتناقضاته الداخليه تتفاعل الى ان انفجر في حرب اهليه اكلت منه مئات الالوف من القتلى والجرحى . وكان هذا الانفجار للحرب الاهلية اللبنانية دليل اخر على التناقض بين الفكر والواقع ، وبين مبادئ التحرير وحقائق الكيانات والشعوب وتناقضاتها .(٤٩)

اما الصراع عبر جنوب لبنان فتحول هو الاخر الى حالة استنزاف دائمه . وكان الثمن كبيرا ، اذ سقط القتلى بالالوف ، ووقعت قوافل من الشهداء ابان المواجهات التي لم تنقطع منذ عام ١٩٦٩ . ان غاره الطائرات الواحده التي تنتقم لمقتل اسرائيلي ، كانت تحصد مئات القتلى من اللبنانيين والفلسطينيين ، وهناك مخيمات فلسطينيه وقرى لبنانيه تم محوها عن الخارطه ، واعيد بناؤها المرة تلو المرة . ان قصة الصراع المسلح والشعبي بين العرب واسرائيل من جنوب لبنان والتي اصبحت المحرقه والمعبر عن الصراع العربي الاسرائيلي لم تكتب بعد . فهناك سقطت قرى واستعيدت ، وهناك تصدت لاسرائيل كل الحركات السياسيه والعقائدية العربية والفلسطينيه ، وهناك واجه العرب كل احزاب واجهزه اسرائيل واستخباراتها . في الجنوب كانت حرب مفتوحه وقتال لا يتوقف ، وتجارب لا حد لها للعلاقه بين الفكر والواقع بين الممكن وغير ممكن ، ربما انطلقت الحرب لسنوات من هناك ولكن افكار التسويه كانت ايضا تنمو هناك امام حاله الجمود والافاق المسدوده وحجم المعاناة والخسائر وارتال الشهداء والجرحى .

وامام حالة الجمود والضربات المتتاليه للاقتصاد والامكانيات بدأت الطلائع الفلسطينيه تكتشف حدود قدراتها ، و بدأت تكتشف ان العدو اكثر رسوخا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وسكانيا مما كانت تعتقد . وبدأت القوى الفلسطينيه ممثله بحركة فتح وبمنظمة التحزير ، تتحلى بمنطق واقعي اكتسبته من الحروب الاهليه التي تورطت بها ، ومن الصراعات المسلحة مع اسرائيل ومع الدول العربية التي خشيت من ردة فعل اسرائيل عليها من جراء الاعمال الفدائيه .(٤٧) هكذا بدأ العالم العربي يبحث عن الحل الوسط والتسويه مع اسرائيل ، اذ شكلت حرب ١٩٧٣ الناجحة والفعالة والتي عبرت عن الشراكة المصريه السوريه في مواجهة مهام التصدى بداية جدية لهذا الطرح . ولكن مصر خشيت في ظل ظروفها الاقتصاديه واعبائها الداخلية من ان تعود للحرب ثانية وتواجه مصيرا شبيها كالذي واجهته عام ١٩٦٧ ، فاسرع السادات بعد عدة اتفاقات لفصل القوات نحو التسويه عام ١٩٧٩ ، فيما عرف باتفاقات كامب ديفيد ، التي نتج عنها انسحاب اسرائيل من سيناء ، وبداية سلام اسرائيلي مصري هو الاول منذ قيام اسرائيل .

لكن بقية العرب بما فيهم الفلسطينيون تابعوا الصراع على اعتبار بأن ما قامت به مصر هو انحراف عن المسار وانه لايمكن ان يكون الا أنحرافا مؤقتا . بل انطلقوا بان المطلوب تسويه مع اسرائيل تعيد الارض ولكن لا تشتمل على عناصر التطبيع وفتح السفارات والعلاقات الاقتصاديه . لكن العرب في استمرارهم للصراع بعد عام ١٩٧٩ وصلوا بالمحصله لطريق مسدود . فقد قامت اسرائيل رسميا في زمن الليكود عام ١٩٨١ بضم الجولان السوريه رسميا الى دولتها . وهذا خلق هدد في حينها بانسداد اي افق لتسوية متفاهم عليها في المستقبل . ووقع الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ تاركاً الوف الضحايا ، واضطرت منظمة التحرير لترك لبنان الى تونس ، واحتلت اسرائيل معظم لبنان بما فيها بيروت .(٥٠) كما ووقع خلاف حاد سوري فلسطيني عام ١٩٨٣ وتطور الى اقتتال فلسطيني فلسطيني وحصار مخيمات وقصف بالمدفعية وسقوط خسائر حين حوصر عرفات في مدينه طرابلس اللبنانيه من قبل جماعات منشقه عنه . كما وقعت حرب فعليه بين حركة امل اللبنانيه وقوات فلسطينية تابعة لمنظمة التحرير فيما عرف باسم حرب المخيمات التي اودت بحياه المئات من الجانبين .(٥١)

ولانستطيع ان نقول بان الوضع في الاراضي المحتلة كان افضل . فمع عدم القدرة على تحقيق حسم عسكري عربي منذ هزيمه ١٩٦٧ والوصول إلى حالة اللاسلم واللاحرب (اي الجمود الذي يعمل لمصلحة اسرائيل) ، أخذت الخسائر الفلسطينيه تتزايد يوميا هناك . فرغم الجرأة الفلسطينية والصمود الفلسطيني الدائم في وجه اسرائيل ، الا ان اسرائيل استغلت عامل الوقت وعدم حصول تسوية لتقوم بتهويد الضفة الغربيه على مستويات عديدة ، فقد صادرت من الارض اكثر من ٤٠ بالمائه وقامت ببناءعشرات المستوطنات(يقطنها الان ما يزيد عن ١٢٠ الف مستوطن) . كما ان تهويد القدس سار بنفس السرعة ونتج عنه توطين ما يزيد عن ١٦٠ الف مستوطن في القدس العربية . هكذا ضمت اسرائيل الضفة الغربية بالممارسة مستغلة عامل الوقت ، وعجز العرب عن الحسم العسكري او السياسي . وهذا يعني انه بغياب تسوية قد تكون الضفة الغربية في طريقها للاختفاء وسط مشاريع التهويد الاسرائيليه .(٥٢)

وباستثناء المدرسة الرسمية المصرية في تسوية الصراع وفي اكتشاف حدود الصراع مع اسرائيل ، فان العالم العربي استمر في الصراع مع اسرائيل في ظل خطاب سياسي ينقصه ادنى استعداد لقراءة موازين القوة وفن الممكن وفهم اسس التفاوض وشكل الاتفاقات . اذ بقي الخطاب العربي يتحدث عن دولة فلسطينية دون فهم لكيفية تحقيق الدولة وشروطها وبقي الخطاب العربي يتحدث عن عودة اراضي ١٩٦٧ ، وتسوية عادلة دون اي فهم بان عوده اراضي ١٩٦٧ سوف يعني التطبيع مع اسرائيل ، لان اسرائيل لن تعيد الاراضي بلا سلام كامل

واعتراف وسفارات واتصالات طبيعية ودرجة من درجات السياحة . لهذا وفي ظل تصورات متناقضة للسلام ، وفي ظل العجز العربي عن القيام بتحرير فعلي لاراضي ١٩٦٧ ، وعجز ايضا في فهم متطلبات ما قد ينتج عن انسحاب متفاهم عليه مع اسرائيل ، استمرت حالة اللاسلم واللاحرب العربية الاسرائيلية . وهذا ادى لاستنزاف العرب اقتصادياً وابقائهم اسرى استمرار الصراع مع اسرائيل .

ان هذا الطريق المسدود بدأ ينفتح بعض الشيء عندما جاءت الانتفاضة الفلسطينية لتشير إلى قدرات المجتمع في مواجهة الاحتلال ، وقدرات الروح في مواجهة الالة العسكرية الاسرائيلية . اذ اكدت الانتفاضة على مقدرة المجتمع على الصراع من أجل حقوقه ومستقبله ، واكدت بنفس الوقت على دور سكان الداخل الفلسطيني وتخلصهم من الكثير من العجز الذي يسيطر على الواقع العربي المقاوم في الخارج . ولكن بينما لم تحقق الانتفاضة تحريرا مباشرا للارض ، وهذا ما لاتستطيع انتفاضة تواجه كيانا استيطانيا مباشرا اكثف منها سكانيا واعمق منها جغرافيا ان تقوم به ، الا انها اعادت الثقة للمجتمع الفلسطيني .(٥٣) ولكن بالمقابل كان المجتمع الفلسطيني يدفع ثمنا كبيرا لادامة انتفاضة تستمر سنوات بلا نتيجة مباشره . وكان ثمن الانتفاضة النفسي على الجيل الفلسطيني الصاعد كبيرا . اذ برز في الانتفاضة ذلك الجانب الذي ينتج عنفا داخليا كما ينتج عنفا خارجيا ، و الذي يلازم كل الانتفاضات الطويلة والثورات الشعبية . وسيطرت على اجواء الانتفاضة مجموعات تبنت الانتقامات العائلية التي احتكمت الى المواقف القبلية كما والقروية والطائفية . وفي النهاية وفي ظل الصراع حرم جيل كامل ولسنوات فاقت السبع من المدرسة والتعليم .

وفي ظل الانتفاضة بدأ الخطاب العربي باعلاء صوته خوفا من هجرة اليهود السوفيات ، ومن راقب احاديث وخطب ذلك الوقت ، لاعتقد ان كارثة ضخمة ستقع . فقرع الطبول ضد هجرة اليهود السوفيات ، "ولا نقلل من انها قضية جديه" ، كان تكرارا لصراخ العرب ضد وعد بلفور وسايكس بيكو ، ثم النكبة نفسها . و مع طرح هجرة اليهود السوفيات ، برز أمامنا سيناريو قديم جديد . إسرائيل تأخذ المبادرة والعرب يلملمون مواقفهم وسط المفاجأة . وفي تلك الفترة من عامي ١٩٨٩ -١٩٩٠ لم يبدُ ان احدا في العالم العربي امتلك حلا او رؤية تعالج هذا الامر بعيدا عن الصراخ والاعلام ، لدرجة ان نقاشا موضوعيا واحدا حول قضية هجرة اليهود السوفيات لم يعد من الممكن تأمينه . لم يعد احد يعرف الفارق بين الخطر الذي يشكله اليهود السوفيات والجانب الاعلامي والتهويلي . هكذا اختفت الفواصل وسيطر الهلع .

ومع الفراغ الكبير الدائم في سماء العرب السياسي ، كان من الطبيعي ان يبادر احد ،

فكان ان بدأ نجم الرئيس العراقي صدام حسين في الصعود . هكذا بدأ العراق في تحدي الولايات والمتحدة والغرب واسرائيل ، في ظل خطاب سياسي مفعم بالتحدي يجمع الرأي العام العربي . هكذا تمهدت الاجواء لنمط جديد من المغامرة التي ساهم بها الشارع العربي واحزابه وقواه السياسية دون ان يدرى . ولكن العجز هذه المرة عن مواجهة العدو والعجز عن ايقاف اليهود السوفيات ، والطموحات الداخلية والخارجية العراقية حول كل شيء عن مساره ، وحرف كل القضايا عن اتجاهها ، اذ احتلّ العراق الكويت في يوم وليلة . ونتج عن ذلك كارثة كبرى اكلت من كل القضايا العربية .

وفي الانتفاضة أيضاً كما في كل حروب الصراع العربي الإسرائيلي ، وكما في كل مواجهات المقاومة العربية والفلسطينية واللبنانية ، سقط في القتال خيرة الشبان العرب وخيرة المؤمنين بمستقبلٍ مشرق ومستقلّ للعرب . بل خطف القتال الافضل والاكثر وطنية ، والاكثر جدية والاكثر جرأه . ولكن قيمة اي تجربة لأي امة انما في التعلم منها واكتشاف اسباب فشلها ونقاط ضعفها . نعم كانت تجربة مواجهة ومقاومة اسرائيل تجربة غنية ، نعم امتحن العرب عبرها قدراتهم ، وامتحن عبرها العرب امكانياتهم ، وجربوا الهزيمة والانتصارات الجزئية وجربوا الانتفاضة والمقاومة ، وجربوا الوحدة وجربوا الحروب الاهليه ، وانقلبوا على بعضهم البعض ، نعم كانت تجربة عربية غنية اكدت عبرها الدول العربية وشعوبها انها تمتلك الجرأة والصمود ، والحس الوطني ، وحس التضحية في سبيل المشروع الوطني ، ومن اجل أخذحقوقها من عدو مغتصب . نعم قاتل العرب من اجل حقوقهم ، وهذا شيء مارسوه ببطوله وقوه ، ولكن الظروف الدولية والاقليمية المحيطة والظروف الداخلية بدء من اساليب العمل والقياده والتنظيم في كل دولة عربية كانت تمنع تحقيق نصر حقيقي في هذه المواجهة يتجاوز وضع القيود على مشروع التمدد الاسرائيلي . وقد نجح المقاوم العربي عبر تاريخ الصراع في فرض الكثير من القيود السياسية والعسكريه والنفسيه على اسرائيل ، ونجد هذه القيود في الاراضي المحتله كما نجدها في جنوب لبنان او في احتلال اسرائيل للبنان ، واضطرارها للتخلي عن معظم الاراضي التي احتلتها . بل هناك شواهد تؤكد ان جزء كبيرا من اتجاه اسرائيل للعملية السلمية مع العرب مرتبط بقناعة قادتها وتياراتها بحتمية فشل الخيار العسكري مع الفلسطينيين والعرب ، وانها من اجل السلم مضطره لتقديم تنازلات تلامس جوهر مشروعها التوسعي . لقد كانت كارثة المقاومين العرب هي في الوقت نفسه وسامهم الاكبر .(٥٤)

ولكن المسيرة السلمية ما كانت لتبدأ لولا حدثان متلازمان . الاول هو سقوط الاتحاد السوفياتي المدوي على جميع الاصعدة بما فيها العسكرية . اذ فقد العرب ذلك الداعم

الاستراتيجي لقضاياهم ومواقفهم وقدراتهم . ولكن من جهة اخرى عندما اقتحم العراق حدود الكويت باسم كل القضايا العربيه تحولت كل الابعاد . فالولايات المتحدة تحولت من الحياد او موقع العداوه الى الحامي والضامن للامن وللدول في مواجهة الوضع الجديد الذي خلقه العراق . وقام العراق من جهته برمي صواريخ سكود على كل من المملكة العربية واسرائيل بنفس الوقت . واصبح وقوف اسرائيل على الحياد في هذا الصراع العربي العربي مطلب عربي ودولي . واحدث الموقف الفلسطيني الرسمي الذي اقترب من الموقف العراقي ابان الازمه حالة صدمة في دول الخليج والكويت . ونتج عن هذا ردة فعل سلبية تجاه الفلسطينيين مما عاد واضعف الوضع الفلسطيني جديا . لقد احدث الغزو العراقي للكويت المتلازم مع انهيار الاتحاد السوفياتي ، تغيرا كبيرا في واقعنا السياسي في مسائل كثيره على رأسها الصراع العربي الاسرائيلي .

بين الرفض والقبول :
التعلم من التجربة

وقد احتكم العرب في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي لمعادلة علينا ان ننتقدها لنستخلص منها نتيجة مفادها : وإن امتشاق السلاح فجأة والذهاب الى الحرب فجاة ثم الاسترخاء فجأة وكأن شيئا لم يكن . ومثل هذه الهبات المفاجئة التي صبغت عملنا وحربنا وإنتفاضاتنا الجماهيرية وردود فعلنا ومعارضتنا ، هي أكثر الصفات سلبية لانها تعبر عن قصر نظرفي كل شيء . هكذا نرفض بلا دراسة ، وخوفا من بعضنا البعض ، ثم نقبل من كثرة الضربات التي تأتينا مضطرين ، وبلا خطة حتى لما نقبل . ولا شك ان المواقف غير الواقعية ايضا كثيرا ما تحمل لصاحبها ضربات أكثر مما يجعل انتقالة ايضا الى الواقعية سريع ومبالغ به في سرعته . اما التصرف المسؤول ، والقول بموقف في اوانه ، وتنازل في لحظته ، وخسارة في حينها ، لقاء مكسب مقبول في حينه ايضا فهذا ما تفادته السياسة العربية والمعارضة العربية على مدى العقود من الصراع العربي الاسرائيلي . والملاحظ ان الرفض السريع ، والمعارضة السريعة تنم عندنا عن غلبة الانفعال بين القادة كما بين المعارضة فتأتي المواقف وجدانية غير مدروسة . وكل ما ياتي غير مدروس ومستند الى الوجدان ، لا الى الميزان وحقائق المرحلة ، فهو سرعان ما ينهار امام الضغوط والصراعات الحقيقية .

لهذا كان علينا نحن العرب وعلى سياسيينا ومفكرينا ، ان نرفض اليوم شيئا ونقبله غدا .

اليس مؤسفا ، اننا اليوم نتصرف في بعض الامور تصرفات كان يمكن أن نقوم بها منذ ٣٠ او ٤٠ سنة؟ لقد عارضنا سياسة مصر في كامب ديفيد ، والان نعود عن تلك المعارضة . ولكن السؤال هل تغيرت المعاهدة التي عارضنا عليها مصر وقاطعناها من اجلها؟ بل على العكس ازددنا اقتناعا بان ما عملته مصر يجب ان يعم المنطقة . وينطبق نفس الشيء على موقفنا من الدولة الفلسطينية . الم يكن الصحافي المصري المعروف أحمد بهاء الدين اول من قال بالدولة الفلسطينية في اكثر من مقال له في اوكتوبر ١٩٦٧ ؟(٥٥) ولم تقم الدنيا على راس الرجل من جراء ما كتب وقال؟ ثم ماذا حصل ، أصبحت الدولة الفلسطينية اقصى ما يتمناه العرب ؟ ثم نتساءل ، لماذا لا نعارض ونقبل بوسطية؟ ثم لماذا لا نتعلم الوسطية في مواقفنا وافكارنا وتحيزاتنا حتى وان إنتقلنا من موقع الى آخر .(٥٦)

واليوم بعد كل هذا الفشل المميز مازالت الدعوة للاستمرار في القتال والجهاد والكفاح وفق الطريقة السابقة مستمرة . ومازال البعض ينتظر صلاح الدين او المخلص المنتظر . ويتناسى الناس انه في غمرة القتال مثلا في الاراضي الفلسطينية المحتلة يتخرج اليوم جيل فلسطيني لم يذهب الي المدرسة لانه كان يمارس الانتفاضة . ويتناسى البعض ان عالم العرب لم يعد يحتمل استمرار الصراع بلا نتيجة مع اسرائيل . وتغيب عن الذهن انه لا توجد دولة عربية او مجتمع عربي مستعدان أن يتحملا نفقات ونتائج حرب قادمة لا تكون سوى مقدمة لكوارث جديدة . بل ان الدول العربية تضيق ذرعا بفلسطينييها ، وتضيق ذرعا بلاجئيها ، فماذا عن حروب جديدة تضيف الى الدول العربية لاجئين جدداً؟ وهل نعرف مثلا ان خوض حرب بكفاءة يتطلب تبديل سلاح الطيران وتحديثه على الاقل مرة واحد ة كل ٧ سنوات ، وان اسلحة الدبابات تحتاج تغيرا وتبديلا ايضا كل عدة سنوات؟ من يتحمل مسؤولية كل هذا وتكاليفه على المدى البعيد؟

ان بداية عقد المساومة التاريخية بين العرب واسرائيل قد تشكل بداية لبروز دور المدرسة السياسية في الواقع العربي . اي بروز تلك المدرسة التي تفهم جيدا موازين القوة وتتعامل مع الممكن والمتغير ، وفق اساليب مرنة وسياسات بناءة . وهذا هو المدخل الوحيد للانخراط بشكل حقيقي في النظام الدولي الراهن ، والتأثير عليه بما يخدم المصالح العربية القطرية والجماعية . ففي زمن يؤسس عبره العرب واقعاً جديداً ، تتبلور حاجتهم الماسة من اجل تأسيس خطاب عقلاني جديد . والجديد لن يبرز فجأة ، بل بحاجة للتفكير والبلورة . فالامم العاقلة والذكية هي الامم التي تقر بانها اخطأت التقدير ، وتعترف بواقعها ، لكي تبدأ بعلاج مشكلاتها المتراكمة البعيدة والقريبة الامد . والامم التي لا تقر بالواقع تمهيدا للتعامل معه ، كثيرا ما

تصطدم بواقع اسوأ . فبدلا من القتال تقع الهزيمة ، وعوضا عن العودة تكون الهجرة ومسيرة الفشل ، وبدل الوحدة يقع التفتت ، وطريق التحرير يتحول الى طريق الاحتلال والكوارث . ان الخوف اساسا من امكانية ان تقودنا الاطروحات الزخمة التي لم تدرس الماضي او تستوعبه الى نفس الكوارث السابقة التي طوقتنا مازال جاثما في العالم العربي .

ولنتذكر انه في الصراع التاريخي ، انتصر راكب الالة على راكب الحصان ، وانتصر صاحب الفكر الاكثر استنارة وتسهيلا على صاحب الفكر المتزمت . الشيوعية المتزمتة هزمت امام الراسمالية المنفتحة . والديمقراطية تقدمت علي التسلط . بل عندما انتصر الاسلام في زمن الفتوحات كان انتصارا للمرونة والاستنارة على التعصب والانغلاق السائد حينذاك . لكن في مجتمعاتنا العربية ، وبسبب الارهاب الفكري الذي تمارسه الاقلية بحق الاغلبية الصامتة ، اصبح الخوف والتردد هو المسيطر على اصحاب الفكر المستنير ودعاة العقل .

ان المرحلة الراهنة تتطلب وحدة كل العقلانيين والحكماء سياسيين كانوا ام اقتصاديين ، اعضاء في الحكومات ام من نقادها ، رجال دين وشيوخ كانوا ام مفكرين ومجتهدين ، وذلك لانجاز سلام يحول الصراع العربي الاسرائيلي من صراع استنزاف الى تنافس سياسي واقتصادي مشروع ، ويحول العرب من موقع التبعية والضعف الى بناء الاستنارة والخروج من نفق الانغلاق . وهذا لا يعني القبول بالشروط الاسرائيلية وعلى الاخص تلك التي تبرز منذ انتصار الليكود وانتخاب نتنياهو رئيسا للوزراء في مايو ١٩٩٦ ، بل انه يعني اتقان ثقافة وفن التفاوض ، ويعني التمسك باهم الابعاد التي تسمح للعرب بتحقيق شروط افضل في سلام اليوم . ان الولوج بالسلام لا يعني القبول ، بل يعني ان التفاوض يحوي اساسا خلافاته وتناقضاته وصراعاته ، وهو معركة تخاض بحد ذاتها لتحقيق اعلى سقف سياسي ممكن . هذه هي الطريقة الوحيدة للبدء بتأسيس الجديد وبالتالي ملء الفراغ وانتشال الامة من العزلة .

ولكن فوق كل شيء ، ان التفاوض بدون معرفه التاريخ ، وبدون نقده وتقييمه تعني عمليا امكانيه تكراره ، وتعني امكانيه تكريس الفشل في التفاوض كما كرسنا الفشل في القتال . ان انتقاد التجربة التاريخية في الصراع العربي الاسرائيلي لا تكتمل في هذه الدراسه المتواضعه ، بل يجب ان تبدأ الان . ان نقد التاريخ لا يستكمل الا اذا توجهت جهود الباحثين والمتسائلين نحوه بكل عقل حر ورغبة صادقة في المعرفة . وتبقى معنا في نهاية الدراسة الاسئلة الكبرى : لماذا فشلنا في تحقيق شعاراتنا واعلاناتنا ، ولماذ نجح العدو؟ اين مكمن الاخطاء في كل جولة وحرب ومواجهة ، وفي كل تفاوض او فصل قوات او ارتباط بتعهدات دوليه ، وفي كل فترة امتدت بين حرب واخرى ومواجهه واخرى؟ كيف نتعلم من كل هذا وما

معناه لنا في المستقبل؟ بمعنى اخر اننا نحتاج لفتح ملفات الماضي بدقه وبشيء من التفصيل في كل مرحلة ، ولكن علينا ان نعمل ذلك بلا اتهام في وطنية او تجريح في نوايا . اي علينا ان نقيم ايجابيات وسلبيات اعمالنا وشعاراتنا وتوجهاتنا ونجاحاتنا وانكساراتنا السابقه . هذا المدخل قد يفتح لنا الطريق للنجاح في المرحلة الصعبة القادمة . فبدون استيعاب مكامن الخطأ والصواب في الماضي لن ننجح في التحول نحو بناء ايجابي في ظل السلام في المستقبل .

هوامش الفصل الأول :

١-Ann Mosely Lesch, Arab Politics in palestine, 1917-1939: The Frustration of a Nationalist Movement, (Ithaca& London: Cornell University Press, 1979), pp. 198-227

٢-John Ruedy, " Dynamics of Land Alienation", in The Transformation of Palestine, Ibrahim Abu-Lughod, ed. (Evanston: Northwestern University Press, 1971) p125,134; Walid Khalidi ed. From Haven to Conquest: Readings in Zionism and the Palestine Problem Until 1948, (Washington: The Institute for Palestine Studies, 1987) , p.844

٣- انظر الى الوثيقه التاريخية التي تعكس اقتصاد تلك المرحلة للقطاع العربي كما واليهودي والتي نشرت عام ،
Sa'id B. Himadeh ed., Economic Organization of Palestine, (Beirut: American University of Beirut,1938); Walid Khalidi ed. From Haven to Conquest, p. 850

٤-Janet L. Abu-Lughod, "The Demographic Transformation of Palestine", in The Transformation of Palestine, Ibrahim Abu-Lughod, ed.
(Evanston: Northwestern University Press, 1971), p p. 139-163

٥--J.C. Hurewitz, The Struggle for Palestine, (New York: Norton,1950); Howard Sachar, A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time (New York: Alfred A. Knopf, 1979), pp. 64-88, 138-162;

انظر ايضا ، الثورة العربية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦-١٩٣٩ : الرواية الاسرائيلية الرسمية ، ترجمة احمد خليفة . (بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية وجامعة الكويت ، ١٩٨٩) ص ٥٢٦

٦--Janet L. Abu-Lughod, " The Demographic Transformation of Palestine", in The Transformation of Palestine, p . 150

٧- Ann Mosely Lesch, Arab Politics in palestine, pp. 179-197

٨-نفس المصدر ، ص ص . ٢٢٧ ، ٢٣٥

٩-Charles D.Smith, Palestine and the Arab-Israeli Conflict, (New York: St. Martin's Press,1988),p p 122-123

١٠-Erskine B. Childers, The Wordless Wish: From Citizens to Refugees, in The Transformation of Palestine, p .193; See aslo Nafez Nazzal, The Palestinian Exodus from Galilee, 1948, (Beirut: The Institute of Palestine Studies, 1978),pp.14-17; Rosemary Sayigh, Palestinians from

Peasants to Revolutionaries. (London: Zed Press. 1979), pp. 73-75; Walid Khalidi, " Plan Da-let" The Arab World (October- November 1969): 15-20

١١- Fred J. Khouri, The Arab Israeli Dilemma, 3rd edition, (Syracuse: Syracuse University Press, 1985), p. 69

١٢- John Bagot Glubb, Peace in the Holy Land (London: Hodder and Stoughton, 1971), p.307

١٣- Mary C. Wilson, King Abdullah, Britian and the making of Jordan, (Cambridge: Cambridge University Press, 1987), pp.151-186

١٤- Avi Shlaim, Collusion Acros the Jordan: King Abdullah, The Zionist Movement, and the Partition of palestine, (New York: Columbia University Press, 1988) ,.pp. 41-43

١٥- الهيثم الايوبي واخرون (محرر) الموسوعة العسكريه ، الجزء الاول ، (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٧) ، ص ٦٥٨

١٦- Fred J. Khouri, The Arab Israeli Dilemma, p 77-78

١٧- Avi Shlaim, Collusion Acros the Jordan ,pp. 251-261

١٨- Ibid,. p. 257

١٩- Fred J. Khouri, The Arab Israeli Dilemma, p. 80

٢٠- حول احداث اللد والرمله انظر دراسة موريس المميزه ، Benny Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949, (Cambridge: Cambridge University Press, 1987), pp. 203-212

٢١- من اجل كل هذه التفاصيل انظر Benny Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949.

٢٢- انظر محمد عزة دروزة ، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، الجزء الثاني ، ط٣ (منظمة التحرير الفلسطينية ، دائرة الاعلام والثقافه ، ١٩٨٤) ص ص ٢٠١-٢٠٣

٢٣ - حسن نافعة ، مصر والصراع العربي الاسرائيلي : من الصراع المحتوم الى التسويه المستحيلة ، ط٢ (بيروت : مركز دراسات الوحده العربيه ، ١٩٨٦) ، ص ص ٢٠-٢١

٢٤- انظر محمد عزة دروزة ، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، الجزء الثاني ، ص ص ٢١٠-٢١٦

٢٥- Fred J. Khouri, The Arab Israeli Dilemma, p.85-86

٢٦- نفس المصدر ، ص ٨٥ .

٢٧- محمد عزة دروزة ، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها ، ص ٢١٧

٢٨- Fred J. Khouri, The Arab Israeli Dilemma, pp. 88 & 91 ،

٢٩- نفس المصدر ، ص ٩٢

٣٠- نفس المصدر ، ص ص ٩٢-٩٥

٣١- Mary C. Wilson, King Abdullah, Britian and the making of Jordan, (Cambridge: Cambridge University Press, 1987), pp.187-189

٣٢- انظر دراسة Ian Lustick, Arabs in the Jewish State: Israel's Control of a National Minority, (Austin: University of Texas Press,1980)

٣٣- انظر دراسة بلاسكوف القيمه ، Avi Plascov, The Palestinian Refugees in Jordan: 1948-1957, (London: Frank Cass,1981).

٣٤-محمد عابد الجابري ، الخطاب العربي المعاصر : دراسه تحليليه نقديه ، ط ٢(بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٥) ؛ انظر ايضا مجدي حماد ، العسكريون العرب وقضية الوحدة ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربيه ، يونيو ١٩٨٧) .

٣٥- George Lenczowski, The Middle East in World Affairs, 4th ed. (Ithaca: Cornell University Press,1980), pp. 424-426

٣٦- انظر Donald Neff, Warriors at Sues: Eisenhower Takes America into the Middle East, (New York: The Linden Press & Simon & Schuster, 1981)

٣٧- George Lenczowski, The Middle East in World Affairs, 4th ed.,pp 553-557

٣٨- David Hirst, The Gun and the Olive Branch: Roots of Violence in the Middle East, (Great Britian: Faber & Faber Limited,1977),pp 325-326.

٣٩- Alan Hart, Arafat : Terrorist or Peacemeker, (Great Britian: Sidgwick & Jackson Limited, 1984), p. 203

٤٠- انظر Shafeeq Ghabra, National Independence in the Arab World, Journal of Arab Affairs, vol. 11, Spring 1992, No.1 pp. 68-90 ، وقد عبرت فتح عن هذه السياسة في كراريس عدة كتبت في فترة ١٩٦٥-١٩٦٦ . انظر : حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) ، " من منطلقات العمل الفدائي : تحرير الاقطار المحتلة" وانظر ايضا " الجلسات الحركيه" الاعداد ١-١٢،١٩٦٥ .

٤١- مثل هذ التفكير (الوحده طريق فلسطين) كل من حركة القوميين العرب وحزب البعث والناصريه ، انظر : Yazid Sayigh, "Reconstructing the Paradox: The Arab Nationalist Movement, Armed Struggle and Palestine, 1951-1966",Middle East Journal, 45(Autumn 1991) .

٤٢- " من منطلقات العمل الفدائي : تحرير الاقطار المحتلة" ، ص ٨٤

Charles D.Smith, Palestine and the Arab-Israeli Conflict,p198 -٤٣

٤٤- نفس المصدر ، ص ص ١٩٨-١٩٩

Fouad Ajami, The Arab Predicament: Arab Political Thought and Practice Since 1967 Up- -٤٥ dated Print (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), pp,. 53-54

Nadav Safran, Israel the Embattled Ally, (Cambridge: Harvard University Press, 1979), p. -٤٦ 89

Amos Elon, The Israelis: Founders and sons, (Amos Elon & Adam Publishers,1981) ٤٧- أنظر

٤٨-هيلينا كوبان ، المنظمة تحت الجهر ، ترجمه سليمان الفرزلي ، (لندن : منشورات هاي لايت ، ١٩٨٤) ص ص . ٨٦-٩٤

٤٩-نفس المصدر

Rashid Khalidi, Under Siege: P.L.O Decisionmaking During the 1982 War,(New York: Co- -٥٠ lumbia University Press, 1986); Ze'ed Schiff & Ehud Ha'ari, Israel's Lebanon War, (New York: Simon & Schuster, 1984)

Emile F. Sahliyeh, The PLO After the Lebanon War, (Boulder: Westview Press,1986) -٥١

Geoffrey Aronson, Creating Facts: Israel, Palestinians and the West Bank, (Washington D.C: -٥٢ Institute for Palestine Studies, 1987)

٥٣-شفيق الغبرا ، الانتفاضة الفلسطينيه : الاسباب ، والاستمرار ، والاهداف ، المستقبل العربي ، العدد ١١٣ ، يوليو ١٩٨٨ ، ص ص ٥٩-٧٤ ؛ وانظر ايضا الغبرا ، الفلسطينيون وصراع القوة ، السياسه الدوليه ، عدد ٩٧ ، يوليو ١٩٨٩ .

٥٤- شفيق الغبرا ، السياسه الاسرائيليه : التحالف الحاكم وصراعات التيارات ، مجله العلوم الاجتماعيه ، المجلد ١٨ ، العدد ٢ ، صيف ١٩٩٠ ، ص ص ٤٩-٧٧

Alain Gresh, The PLo: the Struggle Within, Towards an Independent palestinian State, (Lon- -٥٥ don: Zed Books Ltd, 1985), pp. 26-27.

٥٦- انظر شفيق الغبرا ، نقد العقل العربي المغامر : حالة ازمة الخليج ، السياسه الدوليه ، القاهرة ، العدد ١١٩ ، يناير ١٩٩٥ ، ص ص ١٨-٣٨ .

انتهت الهوامش .

الفصل الثاني
الاستقلال الوطني في العالم العربي :
حالة الفلسطينيين *

* هذا الفصل صيغة مطورة ومنقحة ومجددة عن اصل له سبق وان نشر في مجلة الدراسات الفلسطينيه ، شفيق الغبرا "الاستقلال الوطني في العالم العربي : حالة الفلسطينيين" ، العدد ١٤ ، ربيع ١٩٩٣ ، ص ص ٧١-٨٦ .

تحرك الشعب العربي نحو الاستقلال وتقرير المصير على امتداد عقود عدة ، عقب انهيار الامبراطورية العثمانية وأفول نجم العصر الاستعماري . وقد مهد ذلك السبيل لظهور دول عربية مستقلة ، بعد أن أفلحت مختلف الحركات الوطنية والاستقلالية في مصر والعراق وسوريا وغيرها من الدول العربية الحالية في تحقيق تقرير المصير الوطني لشعوبها .(١) لكن الاستقلال ظل عزيز المنال بالنسبة الى الفلسطينيين . فمع إنشاء إسرائيل سنة ١٩٤٨ ، طُردوا من الأرض التي شكلتهم أمةً ، وحرموا فرصة إقامة دولة لهم على تلك الأرض .

يمكن النظر الى تاريخ الفلسطينيين منذ سنة ١٩٤٨ باعتباره محاولتهم المستمرة لإعادة تكوين وجودهم الوطني . وقد كان إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٤ ، وتشكيل "فتح" في أوائل الستينات مؤذنا بأول مسعى سياسي فلسطيني منظم لتحويل خسارة الفلسطينيين إلى حركة تحرر وطني قابلة للحياة . وعلى مدى ٢٦ عاما (١٩٦٥-١٩٩١) دفع الفلسطينيون ثمناً باهظا لاستمرار حركتهم وبقائها ؛ ولقي كثير من القادة والمقاتلين وغير المقاتلين حتفهم من أجل ذلك . وقد انجر الفلسطينيون إلى صراعات متعددة لم تواجهها أية حركة تحرر وطني أخرى ، مثلما يتبين من نضالهم ضد إسرائيل ، وصدامهم مع الحكومة الأردنية في فترة ١٩٧٠/١٩٧١ ، والمعارك الكثيرة التي خاضوها في لبنان منذ سنة ١٩٧٥ ، والأزمة التي خلفها الاحتلال العراقي للكويت في فترة ١٩٩٠/١٩٩١ . وشُفعت المكاسب السياسية ، في هذه الصدامات كلها تقريبا ، بخسائر سياسية بحيث لم تأت النتائج على قدر التضحيات المبذولة لبلوغها .

لقد ظلت الحركة الوطنية الفلسطينية لجملة من الأسباب لا حصر لها ، على غير حركة

التحرر الفلسطيني قبل سنة ١٩٤٨ ، حركة وطنية واقعة تحت الحصار . وقد بُذلت محاولات جريئة عدة ، ومثلها محاولات أخرى مغلوط في حسبانها لفك الحصار ؛ وهكذا طبع القسم الأكبر من تاريخ هذه الحركة منذ سنة ١٩٦٥بهذه المحاولات المستمرة .

الشكل الصفري للصراع :
سباق مع الزمن وبحث عن الاتجاه

إن في أساس الصراع الفلسطيني - الاسرائيلي تنازعا بين جماعتين تدّعيان حقوقا في قطعة أرض واحدة . وطبيعة هاتين الدعوتين المتناقضتين هي العقبة الكبرى التي تواجه الحركة الوطنية الفلسطينية ، وهي أهم أسباب اختلاف سبيل هذه الحركة عن سواها من الحركات الاستقلالية العربية . فمنذ البداية لم تزل الصهيونية والحركة الوطنية الفلسطينية متضادتين تضادا لا يقبل التسوية والتوفيق . الصهيونية ازدهرت في فلسطين بفضل موجة من الهجرة اليهودية التي انتجتها حوادث أوروبا الى حد بعيد . وقد برز ، على مدى عقود عدة ، مجتمع يهودي قومي النزعة في فلسطين .[٢] وبحلول سنة ١٩٤٨ ، ونتيجة معاملة اليهود في أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية وما بذلته الحركة الصهيونية من جهود ، بات الوضع - على الصعيدين المحلي والاقليمي - ملائما لإنشاء دولة إسرائيل ، وأفضى هذا الى خلق مشكلة اللاجئين الفلسطينيين الأولى .[٣] وبعد سنة ١٩٤٨ شرعت اسرائيل في سياسات تهدف إلى جعل المزيد من الأراضي تحت سيطرتها ، وتسهيل اجتماع شمل اليهود المقيمين في الشتات .[٤] وقد كان ذلك إيذانا ببدء عملية من شأنها تهجير المزيد من اللاجئين الفلسطينيين ، وهو تهجير عنيف لم يعرفه أي مجتمع من المجتمعات العربية الأخرى .[٥] ولما رأى الفسلطينيون عجزهم عن عكس مسار أعمال إسرائيل ، تشبثوا بحلم العودة إلى أرضهم وتحريرها بالقوة . وتشكل رغبتهم هذه عائقا رئيسياآخر - وهو أن الصراع بينهم وبين إسرائيل يفترض حلا يشتمل على انتصار أحد الطرفين على الآخر انتصارا مطلقا . وقد تحولت الطبيعة المطلقة للصراع (Zero-sum) إلى عامل سلبي ساهم في إعاقة نمو الحركة الوطنية الفلسطينية .

ظهرت أوائل صور تنظيم الحركة الوطنية الفلسطينية ، ردا على أحداث سنة ١٩٤٨ ، في أواسط الستينات . وقد نسبت "فتح" تحديدا ، عجز الدول العربية عن تحرير الوطن الفلسطيني إلى الخلافات العربية وإلى الامتناع من استعمال الموارد المتاحة . ونظرا إلى انعدام أية سياسة عربية موحدة لتحرير فلسطين ، حاولت "فتح" تحقيق واحد من سيناريوهين

مبسطين ممكنين .

كان الأول منهما يتوقع أن يؤدي نشاط حرب العصابات المستمر ضد اسرائيل وعبر الحدود العربية ، إلى حمل إسرائيل على الرد الذي من شأنه أن يحرج الدول العربية ويكرهها على التدخل العسكري . وقد نُفِّذَ هذا السيناريو جزئيا سنة ١٩٦٧ ، لكنه أفضى إلى هزيمة الجيوش العربية هزيمة تامة ، وإلى فقدان ما كان قد تبقى من فلسطين - أي الضفة الغربية وقطاع غزة .

وكان سيناريو فتح الثاني في جوهره خطة بديلة مبنية على إحتمال إخفاق السيناريو الأول . فقد ذهبت المنظمة إلى أن انعدام الرد العربي الرسمي على الهجوم الاسرائيلي المضاد ، سيقود إلى تعبئة متزايدة للجماهير الفلسطينية والعربية التي ستقوم عندئذ بانتزاع المبادرة السياسية والعسكرية من أيدي الحكومات العربية ، وقد سميت هذه النظرة إلى الأمور بالتفجير المتسلسل .(٦) وقد حاولت الحركة الفلسطينية ، خلافا لحركات التحرر العربيةالأخرى ، حث القوى المدنية والرسمية والعسكرية العربية على الانخراط الشديد في دعم سعيها لتحقيق الاستقلال وتقرير المصير .

وفي الفترة الأولى من صحوة ما بعد سنة ١٩٤٨ ، ركز الفلسطينيون على الحقوق التي ضاعت في حرب ١٩٤٨ .(٧) لذلك ، كانت قاعدة الحركة الوطنية الفلسطينية ورؤيتها وتوقعاتها وسياساتها تختلف اختلافا بينا ، منذ بداية فترة ما بعد ١٩٤٨حتى نهايتها سنة ١٩٦٧ ، عن حركات التحرر العربية الأخرى ورؤيتها وتوقعاتها . فهي لم تكن تصارع قوة استعمارية تقليدية ، كفرنسا أو بريطانيا ، لا مطالب تاريخيةلها في الأرض وتستطيع تاليا سحب ادارتها وقواتها الى وطنها الاصلي . وفي النموذج المعتاد لحركات التحرر العربية ، لم يكن النضال من أجل الاستقلال - في جوهره - لعبة تفترض إبادة أحد الطرفين ، بل كان الصراع يفضي عادة إلى تسوية واضحة طويلة الأجل تقضي بانسحاب القوة المستعمرة .(٨) وفي حين أن العرب الآخرين كانوا يستفيدون من تسويات كهذه لانجاز استقلالهم ، كان تضارب المصالح بين الفلسطينيين والاسرائيليين يخلق في حد ذاته وضعا يواجه الفلسطينيون فيه صعوبة الاضطرار الى تحديد فكرة الوطن على نحو مختلف . ذلك بأنهم كانوا أسرى صراع يستلزم إلغاء أحد النقيضين للآخر ؛ صراع ينطوي على فكرة حق العودة - وهي فكرة تتعارض مع التصور الصهيوني لدولة يهودية قائمة على حق يهودي في الهجرة يؤدي الى نفي الفلسطينيين وتهجيرهم .

ان السياسات الفريدة التي مارسها شعب آخر بحق الفلسطينيين في أرضهم ، عرضتهم لعوامل الضعف وجعلتهم غير واثقين بما سيسفر نضالهم عنه . فبينما كانت الحركات الاستقلالية العربية الاخرى أكثر تيقنا من نتيجة نضالاتها (مع استثناء ممكن للجزائر) حُرم

الفلسطينيون ترف هذه الشقة . ونظرا إلى ما يظهر من تضارب هذه المطالب والسياسات الاسرائيلية تضاربا لا علاج له ، فقد شعر الفلسطينيون خلال المراحل الأولى من حركتهم الوطنية عقب سنة ١٩٤٨ بالقلق فيما يتعلق بمطالبهم وفيما يتعلق بتحقيق أهدافهم في ظل الاوضاع القائمة . فمن ذلك إن إصرار "فتح" قبل سنة ١٩٦٧ ، على أن الشعار القائل "الوحدة تقود إلى فلسطين" قد يفضي إلى فقدان نهائي للحقوق الفلسطينية ، إنما يعرب عن القلق الذي كان يساور الوطنيين الفلسطينيين يومها ، فالواقع أن رفض "فتح" للتفكير الوطني التقليدي في مسألة فلسطين ، أي ذاك الذي يولي الأولوية لتحقيق الوحدة العربية ويعدُّها شرطا لابد منه لاستعادة الحقوق الفلسطينية ، إنما هو دليل على الاحساس بإلحاح المهمة الذي كان يحرك أولئك النشطاء الشباب .(٩) وخلافا لحركات التحرر العربية الاخرى ، فقد نما هذا الشعور بالإلحاح من خشية الوطنيين الفلسطينيين أن يضطروا إلى الانتظار عقودا كثيرة قبل أن تتمكن الأمة العربية الموحدة من دعم القضية الفلسطينية دعما نشيطا وفعالا . وكان الوطنيون الفلسطينيون يخشون أن تقود الخلافات العربية والتراخي الناشىء عنها ، إلى أسباغ الشرعية على الدولة الإسرائيلية . فقد أكدت "فتح" أنه إذا لم ينتقل الفلسطينيون إلى الفعل سريعا فان الزمن سيساعد الصهيونية في خلق مجتمع قومي من خلال جمع شمل أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود .(١٠) وفي حال حدوث ذلك ، تصبح عودة اللاجئين الى ديارهم اقل احتمالا من ذي قبل . وهذا ما اثر في الفكر الذي ادى الى انطلاق "الكفاح المسلح" في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٥ .

وفي حين أن حركات التحرر العربية كانت تتقدم في إتجاه أهدافها في خط مستقيم تقريبا ، ، كان الفلسطينيون عاجزين عن تحديد أهدافهم بوضوح . فقد عرقلت الظروف الموضوعية التفكير الفلسطيني في القدرة على بلوغ "تحرير فلسطين تحريرا كاملا ." ذلك بأن أحداث سنة ١٩٦٧ واحتلال باقي الوطن الفلسطيني (الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة) – عززت كون الصراع يقوم على إلغاء أحد الطرفين للآخر ، كما زادت في تشوش الآراء الفلسطينية بشأن الأهداف الوطنية .

وقد أدت الكثير من الخسائر والنكسات الاخرى ، ولا سيما في الاردن بعد صدامات سنة ١٩٧٠ ، الى المزيد من الارتباك في تفكير الفلسطينيين ، والى المزيد من اعادة النظر في الاستراتيجيات والاهداف : فهل ينبغي التركيز على الحقوق التي ضاعت سنة ١٩٤٨ ، أم على تلك التي ضاعت سنة ١٩٦٧ ؟ كيف يجب التعامل مع وجود ٣ ملايين ثم ٤ ملايين يهودي في اسرائيل ؟ أمام الخسائر المتوالية وأنشاء المستوطنات الاسرائيلية ومصادرة الأراضي الفلسطينية في الاراضي المحتلة ، كان على منظمة التحرير الفلسطينية آن تكيف أهدافا كانت

تبدو واقعية وقابلة للتحقيق منذ مدة لا تزيد على خمسة أعوام . كانت منظمة التحرير الفلسطينية ، التي تقودها "فتح" قد أصبحت في فترة ١٩٦٨/١٩٦٩ منظمة شاملة تضم حركات التحرير الفلسطينية ، وباتت فكرة دولة ديمقراطية يتعايش اليهود والمسيحيون والمسلمون فيها مقبولة .(١١) إلا إن الهدف لم يكن واقعيا لأنه كان يفترض إدخال تغييرات جذرية في تركيب إسرائيل السكاني وفي حياتها السياسية .

كان على منظمة التحرير الفلسطينية أن تقبل الانصراف عن هدف التحرير الكامل للتراب الفلسطيني (وهذا ما يقابله في النموذج المعتاد تحرير كل الأراضي التي تحتلها القوة المستعمرة) . وبعد نقاش عسير في فترة ١٩٧٣/١٩٧٤ ، وافق الفلسطينيون على إقامة سلطة وطنية في الضفة وقطاع غزة . وبهذا العمل كانت الحركة الوطنية الفلسطينية تتحول فعليا ، وإن ببطء وعناء ، الى حركة تطالب بتقرير المصير ، وأنشاء دولة ضمن الأراضي التي احتلتها اسرائيل سنة ١٩٦٧ .(١٢) إلا إن هذا الانتقال من المثالية الى الواقعية قاومته داخل أجهزة منظمة التحرير الفلسطينية منظمات صغرى ، كما قاومته تيارات كبرى داخل توجه "فتح" العام ، بحيث باتت كل مبادرة سياسية جديدة بطيئة وعسيرة ومتأخرة . ومع ذلك ، فان هذا الانتقال لم يغير طبيعة الصراع بما هو صراع على الأرض ؛ فقد ظل الفلسطينيون متنازعين بين التركيز على الحقوق التي انتزعتها إسرائيل منهم سنة ١٩٤٨ وبين حقهم في تقرير المصير داخل الأراضي التي احتلتها سنة ١٩٦٧ . ولم يقدم ائتلاف حزب العمل (الإسرائيلي) ، الذي ظل يسيطر على سياسات إسرائيل حتى ١٩٧٧ ، شيئا غير تقاسم الضفة الغربية مع الأردن بحسب مشروع آلون ، اما قيادة الليكود فقد ادّعت أن أرض فلسطين كلها ملك مشروع للشعب اليهودي ولم تول مطامح الفلسطينيين في الحالين أدنى اعتبار .(١٣)

شتات
في ظل الهزيمة

نتيجة لحرب ١٩٤٨ وما تلاها من وقوف إسرائيل ضد عودة الفلسطينيين الذين اخرجوا من ديارهم ، راحت الجاليات الفلسطينية تنمو في الأردن ، والكويت ، ولبنان ، وسوريا ، وفي غيرها من أقطار العالم . وقد كان تفرق شمل الفلسطينيين في حد ذاته عائقا يعترض الحركة الوطنية الفلسطينية . كما أن حرب سنة ١٩٦٧ أضافت ٣٠٠,٠٠٠ لاجيء فلسطيني جديد .(١٤) وكان نشوء مجتمعات الشتات الفلسطيني سمة أخرى تميز الحركة الوطنية

الفلسطينية عن سواها من حركات الاستقلال في العالم العربي . وقد أدت نتائجها إلى اختلافات أخرى عن النموذج المعتاد . إذ عرف الفلسطينيون المشتتون طيفا واسعا من الأوضاع الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية ، فضلا عن جملة من الأنظمة القانونية المختلفة بإختلاف الدول التي كانت تحكم أوضاعهم : فقد ضم الأردن الضفة الغربية سنة ١٩٤٩ ، ومنح سكانها الجنسية الأردنية ، ثم خسر تلك الأراضي في سنة ١٩٦٧ . أما مصر ، فقد أبقت قطاع غزة كيانا فلسطينيا منفصلا إلى أن احتلته إسرائيل سنة ١٩٦٧ . وبينما كانت الجالية الفلسطينية في لبنان تعاني الشدة الاقتصادية ، كان الفلسطينيون في الخليج يتمتعون بالرخاء والبحبوحة وفرص التعليم .(١٥)

كانت حركات التحرر العربية ، على اختلافها ، تعتبر قدرتها على تعبئة قواعدها الجماهيرية ومواجهة مطالبها ضمن إطار جغرافي محدد أمرا مفروغا منه . أما الوطنيون الفلسطينيون ، فقد كان عليهم أن يضعوا سياسة للتعامل مع جاليات الشتات المبعثرة في عدد كبير من الدول . وكان عليهم أن يعالجوا قضايا ومسائل تعني الفلسطينيين في الأراضي المحتلة ، ولبنان ، ودول الخليج ومنها الكويت - حيث كان هناك ، حتى آب/اغسطس ١٩٩٠ ، إحدى أغنى الجاليات الفلسطينية - التي أشرفت منظمة التحرير فيها على تعليم الفلسطينيين (بالتعاون مع الحكومة الكويتية) من سنة١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٦ ، وتمتعت بصلاحيات لم تمنح لأية جالية غير كويتية .(١٦)

وفي لبنان فتحت منظمة التحرير عددا من المستشفيات والمدارس ودور الأيتام . أما في الضفة الغربية وقطاع غزة ، وعلى الرغم من بعد المسافة بين قيادة الخارج وقيادة الداخل ، ومن سوء الادارة في التوزيع ، فقد أنشأت المنظمة صناديق ووكالات للتعليم العالي ، وتم بناء المؤسسات ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي . وقد استحدثت المنظمة عدة مؤسسات ، وأن محدودة القدرة ، لمعالجة مسائل الشتات الملحة .(١٧)

وقد كان على المنظمة أيضا أن تعالج مسألة تمثيل الفلسطينيين . ففي حين أنها كانت تحظى بتأييد فلسطينيي الأراضي المحتلة (الذين وجدوا فيها حاميا سياسيا من المحاولات الإسرائيلية لطمس الحقوق الفلسطينية) ، فقد أضحى الوضع في الأردن مختلفا بعد صدامات فترة ١٩٧٠/١٩٧١ . فالصراع بشأن من هو فلسطيني ومن هو أردني وتر العلاقات كثيرا بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية . هل يجب أن يعد الأشخاص المتحدرون من أصل فلسطيني والحاملون جوازا أردنيا والمقيمون في الأردن (وهم أكثر من ٦٠٪ من سكان الأردن) فلسطينيين وأن يمثلوا ، لذلك ، في منظمة التحرير الفلسطينية ؟ لقد كان هؤلاء الأشخاص

أردنيين في نظر الأردن ، أما المنظمة فقد اعتبرتهم من جملة من تمثله . ثم إن المنظمة عادت فقلّلت ، في علاقاتها المباشرة بالأردن ، من شأن هذه المسألة ، توصلا إلى تمثيل الفلسطينيين المقيمين في الأراضي المحتلة وأولئك المقيمين خارج الأردن . وهذه أيضا مسألة قلما واجهتها حركات التحرر العربية الأخرى .

إن تشتت الفلسطينيين كان يعني أيضا تشتت قيادتهم . وقد أثر ذلك طبعا في قدرة القيادة على التواصل مع المجتمع الفلسطيني ؛ فمن ذلك أن أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني وغيرهم من أعضاء المؤسسات الفلسطينية الأخرى يقيمون في دول عدة . ثم إن القيادة باتت أبعد مسافة بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢ وانتقال مقرها إلى تونس . ولذلك فقد ضعفت قدرتها على معالجة الكثير من مشكلات جاليات الشتات الفلسطيني ، كما انها باتت تعاني من سيطرة عدد متزايد من البيروقراطيين غير الكفاة . وهكذا غدت الحاجة الى التفاعل والنقاش بين اعضاء قياده حركة التحرر الفلسطيني المبعثرين عبئا يستلزم جهودا فائقة .(١٨)

وعلاوة على ذلك ، فإن تعدد الدول التي تؤثر في الشتات الفلسطيني أصبح عنصرا مكبلا للحركة الوطنية الفلسطينية . فعلى سبيل المثال : إن إغلاق مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسساتها ، وإعادة فتحها بصورة مفاجئة أيضا ، في الأردن سنة ١٩٨٦ وفي سوريا سنة ١٩٨٤ وفي مصر سنة ١٩٨٧ ، لدليل على هشاشة أوضاع حركة التحرر الوطني الفلسطينية . فالعمل المعتاد للمؤسسات الفلسطينية أو للاتحادات النسائية أو الطلابية أو العمالية يمكن أن يحظر فجأة من قبل البلد المضيف ، لكن ما أن تتحسن العلاقات السياسية بالبلد المضيف حتى يسمح لهذه المؤسسات والتجمعات بالعمل مجددا . الباب مفتوح اذاً أمام الضغوط والتحكم من قبل الدول التي تقدم إلى منظمة التحرير الفلسطينية بعض الخدمات والتسهيلات . وقد ساهم هذا الوضع الفريد لحركة التحرر الفلسطينية في تمكين العراق من التحكم في موقف منظمة التحرير الفلسطينيه خلال أزمة الخليج . ذلك بأنه من الصعوبة بمكان أن تكون فريقا بلا دولة في لعبة تشارك دول العالم فيها ، كما أن الانتماء إلى حركة تحرر مبعثرة تعالج مشكلات شعب مشتت لهو أمر أشد عسرا .

أزمة القاعدة الاجتماعية الاقتصادية : بحث عن القوة في ظل الضعف

كانت قوة القاعدة الاجتماعية - الاقتصادية من العوامل الحيوية في حركات التحرر

العربية . فقد أمدتها بالدعم والموارد والقوة وبحسّ الاستمرار في مواجهة التدابير القاسية التي كانت تفرضها سلطات الاحتلال الاجنبية . وقد منح ذلك كله هذه الحركات ضربا من الاستقلال الذي تحتاج إليه لوجودها وانتصارها .

أما في حالة الفلسطينيين فإن مخيمات اللاجئين في لبنان ، التي صارت حتى سنة ١٩٨٢ بمثابة المركز السياسي والثقافي والعسكري شبه المستقل للحركة الوطنية الفلسطينية ؛ كثيرا ما كانت مصدر ضعف للفلسطينيين . وكانت منظمة التحرير الفلسطينية تتلقى الدعم وتستمد مواردها من الفلسطينيين المنتشرين في أنحاء الشتات ، ولكن قاعدتها الاستراتيجية كانت في مخيمات اللاجئين في لبنان . ومن سخرية الأقدار أن طبيعة هذه المخيمات نفسها ، لا سيما ضيق رقعتها الجغرافية ، كانت تعني أن منظمة التحرير الفلسطينية منفية بمعنى ما ، لافتقارها إلى بعض الموارد المهمة . وقد أثرت هذه الحال في استقلالها ، وزادت المشكلات الأمنية والتنظيمية تفاقما .

وقد حملت هذه القيود والحدود الجغرافية منظمة التحرير الفلسطينية على توسيع قاعدة عملياتها ، لكن سواء أجاء عمل المنظمة هذا من قبيل الدفاع عن النفس أم من قبيل ضمان مواقع أفضل ، فقد وجدت المنظمة نفسها في حال صراع مستمر على الأراضي اللبنانية . فمن ذلك أن قدرة المنظمة على انتزاع ادارة شؤون المخيمات ، التي كانت لم تزل حتى سنة ١٩٦٩ تحت سيطرة الحكومة اللبنانية ، شكلت تحديا لسلطة الدولة اللبنانية ولتفردها المطلق بحق استعمال القوة على أراضيها . وقد اعتبرت الدولة اللبنانية ذلك تدخلا في شؤون البلد الداخلية . وقد كانت الحكومة اللبنانية تخشى أيضا الغارات الانتقامية الإسرائيلية ، وما قد تحمله هذه الغارات من عواقب على التوازن الداخلي الطائفي الدقيق في البلد . لذلك راحت الصدامات منذ ١٩٦٩ ، تتكرر بين الدولة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية .[١٩] وقد أتاحت المواجهات المسلحة للفلسطينيين الفرصة لتوسيع قاعدة عملياتهم في اتجاه الجنوب وفي اتجاه المناطق المتاخمة لمخيمات اللاجئين .

أدى توسع منظمة التحرير الفلسطينية (في لبنان) إلى ردة فعل من قبل قوات الكتائب الموالية للحكومة ، وإلى تورط منظمة التحرير الفلسطينية في الحرب الأهلية اللبنانية التي اندلعت سنة ١٩٧٥ . [٢٠] وقد أدارت المنظمة مع حلفائها من اللبنانيين مناطق كاملة من لبنان ، وكانت مسؤولة عن تأمين الغذاء والمحروقات والخدمات للمناطق الواقعة تحت سيطرتها .[٢١] وفي الوقت نفسه ، خاضت المنظمة وحلفاؤها معارك ضارية ضد القوات السورية سنة ١٩٧٦ . يضاف إلى ذلك أن حلفاء المنظمة من الحركة الوطنية اللبنانية بدأوا

يطالبون بمزيد من التنسيق فزادوا الأوضاع تعقيدا . وقد تنامى تخوف الحركة الوطنية اللبنانية من الوجود الفلسطيني القوي والمسيطر في كثير من الأحيان . وبحلول أواخر صيف سنة ١٩٧٦ كانت إسرائيل قد أفلحت في زرع أسباب الشقاق والاحتكاك في الجنوب اللبناني ، ثم أوجدت قوة لبنانية مقاتلة في الجنوب اللبناني معزّزة أمن مناطقها الحدودية . وفي سنة ١٩٧٨ ، وبعد اجتياح إسرائيل الكثيف للجنوب اللبناني ، أرسلت قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام .(٢٢)

كانت منظمة التحرير الفلسطينية تحارب في لبنان على أكثر من جبهة واحدة : ضد الأسرائيليين والكتائبيين والسوريين وحركة أمل .(٢٣) وبحلول سنة ١٩٨٠ كان لبنان يتساءل عن الحكمة في كونه مقرا لقيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، ذلك بأنه بات غير قادر على تحمل مسؤولية كونه البلد العربي الوحيد ذا الجبهة المفتوحة على إسرائيل . وهكذا واجهت منظمة التحرير عقبة أخرى في وجه وجودها ونشاطها .

لقد طرح وجود منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان أسئلة عدة : كيف يمكن لحركة وطنية أجنبية(بالمفاهيم المحلية الوطنيه) متركزة في مخيمات اللاجئين في لبنان – وطرف في حربه الأهلية – أن تتوقع كسب حرب استقلال أو تحرير ضد بلد آخر يحتل أراضيها ؟ كيف يمكن لحركة وطنية فلسطينية أن تتوقع الفوز في حين أن مواردها وقواعدها الاجتماعية – الاقتصادية لا تضاهي بأية صورة موارد وقواعد خصمها الراسخ القواعد والمتحكم في موارد وافرة وفي الأرض التي يسعى الفلسطينيون لتحريرها ؟

في المرحلة الأولى كانت هذه الحركة قد أملت بأن يعينها التدخل العسكري العربي على استعادة أرضها السليبة . وفي المرحلة الثانية كان خيارها الوحيد ، بسبب الحرب الأهلية اللبنانية ، أن تضرب في لبنان جذورا أعمق فأعمق بحيث يتعذر اقتلاعها . تلك كانت استراتيجيتها السياسية والعسكرية . لكن سرعان ما ذبل الأمل بنصر عسكري على اسرائيل ، ثم سعت منظمة التحرير الفلسطينية لمقايضة موقعها في لبنان ، ولا سيما سيطرتها على الجنوب اللبناني ، بدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة (يساعدها في ذلك الضغط العربي وأمكان تسوية سلمية مع إسرائيل بعد حرب ١٩٧٣) . وإذا لم تأخذ التسوية العربية – الاسرائيلية المقترحة طموحات الفلسطينيين في الحسبان ، فسيكون في وسع منظمة التحرير الفلسطينية أن تصد أية تسوية مقترحة كهذه من موقعها الحصين في لبنان .

وقياسا بالنموذج المعتاد لحركات التحرر الوطني العربية ، كانت التحديات الفريدة التي واجهت منظمة التحرير الفلسطينية تعني أن تأثير الدول العربية الأخرى ، سواء أكان إيجابيا

أم سلبيا ، يكتسب أهمية حيوية وحاسمة في تطور الحركة الوطنية الفلسطينية . وقد أضر التنازع في النفوذ بين الدول العربية الاثنتين والعشرين بمنظمة التحرير الفلسطينية . يضاف إلى ذلك أن تأثيرات الحركة الوطنية الفلسطينية في كل بلد عربي قد جعلت هذه البلاد حساسة لما يصدر عن الحركة الفلسطينية من أعمال وسياسات ؛ فالأردنيون كانوا يخشون التوسع الاسرائيلي ، كما أن صراع حكومتهم الطويل مع منظمة التحرير الفلسطينية بشأن تمثيل الفلسطينيين كان يعبر عن اهتمامهم بالضفة الغربية ورغبتهم في السيطرة على نتائج أية تسوية بحيث تعزز موقعهم في المنطقة . أما السوريون ، المعنيون بالحفاظ على دور قيادي إقليمي ، فإنهم رأوا في الحركة الوطنية الفلسطينية امتدادا لاهتماماتهم السياسية أكثر مما رأوا فيها حركة مستلقة لها مجالها الخاص بها . وقد سعت سوريا ، جراء حرصها على دورها في أية تسوية مستقبلية لوضع هضبة الجولان ، للتأثير في جميع الأطراف التي تشكل ما تعدّه سوريا الكبرى (لبنان والأردن والفلسطينيين) . وأما مصر ، أكبر الدول العربية وأهمها ، فقد وقعت سنة ١٩٧٨ اتفاقية سلام مع إسرائيل ، الأمر الذي أضعف الحركة الفلسطينية في مواجهة السياسة الإسرائيلية من جهة ، والمحاولات السورية لاحتوائها من جهة أخرى . وأما العراق ، البلد الأقل أهمية من حيث العلاقة بالصراع العربي - الإسرائيلي ، فقد حاول التعويض عن موقعه الخلفي بالمواقف والشعارات الداعية إلى مطالب الحد الأقصى . وقد حاول ، على هذا النحو ، أن يستخدم الحركة الوطنية الفلسطينية من اجل خدمة أهدافه الخاصة ، وأن ينازع سوريا ومصر بشأن زعامة العالم العربي . وكانت كل دولة عربية في المنطقة تحدد علاقتها بالحركة الوطنية الفلسطينية بحسب أهدافها الخاصة . وقد أعاق ذلك جهود الفلسطينيين لخدمة قضيتهم وعقّد مسارها . فكان أن تركزت الصراعات بين منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية على مسألة التحكم في حركة التحرر الوطني الفلسطيني .(٢٤)

إن أحدث الأمثلة الساطعة للصراعات العربية - العربية ولما خلفته من آثار في الحركة الوطنية الفلسطينية هو أزمة الخليج في إبان الاحتلال العراقي للكويت . ذلك بأن ضعف القاعدة الاجتماعية - الاقتصادية لمنظمة التحرير الفلسطينية خلال الأزمة ، وعجزها عن تقويم الأزمة تقويما صحيحا ، أفضيا إلى تبعيتها لسياسة العراق . فهي إذ اقترحت على الرئيس العراقي فكرة "الربط" بين الانسحاب من الكويت وحل القضية الفلسطينية ، ثم ما كان من تأييدها لبيانه في ١٢ آب/أغسطس ١٩٩٠ ، بدت أنها تحاول إحياء صيغة جديدة لسياستها في لبنان . وظنت منظمة التحرير الفلسطينية ، وكان ذلك الظن من أسوأ أخطائها

الاستراتيجية ، أن الوضع الذي أوجـده العراق سيسـاعد في تجديد شباب الحركة .[٢٥]

لقد أثرت الأزمة تأثيرا شديدا قاسيا في وضع الفلسطينيين في الخليج (الذين كان عددهم يتراوح بين ٦٠٠,٠٠٠ و ٧٠٠,٠٠٠) .[٢٧] وخلفت في نفوس مواطني دول مجلس التعاون الخليجي ، ولا سيما شعب الكويت ، مشاعر المرارة والألم تجاه الفلسطينيين . ونمت في نفوس الكويتيين مشاعر شديدة المرارة والقسوة حيال الجالية الفلسطينية برمتها بعد التحرير . وقد ضربت هذه المرارة جذورها في فترة الغزو العراقي والمترابطة مع سياسة منظمة التحرير الفلسطينية خلال الأزمة ، والدور الذي قامت به أقلية نشيطة من الفلسطينيين المتعاونين مع قوات الإحتلال العراقية ، وصور التأييد الفلسطيني العلني لصدام في الأردن وغيره من الدول ، والدور الذي قامت به عدة فصائل فلسطينية مسلحة (وان كانت محدودة العدد) عملت في مدينة الكويت على نحو مشابه لعمل العراقيين .[٢٧]

وبينما أظهرت أحوال الكويت بوادر التعافي والتحسن منذ حزيران/يونيو ١٩٩١ ، ازدادت الجالية الفلسطينية في الخليج ضعفا على الصعيدين الديموغرافي (السكاني) والاقتصادي . فقد تقلصت هذه الجالية في الكويت إلى ١٥٠,٠٠٠ نسمة خلال الاحتلال العراقي . وبحلول كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ ، كان هذا العدد قد انخفض إلى ما يقارب ٥٠ ألفا . وقد جمدت أنشطة منظمة التحرير الفلسطينية العلنية كلها ، وفي ذلك نكسة كبرى ومؤسفة للمنظمة .

إن رقاص العلاقات الفلسطينية – العربية لا يزال يتأرجح بين طرفين قصيين . فالصدامات السياسية والعسكرية مع سوريا والأردن ولبنان قد أثرت في الحركة الوطنية الفلسطينية في هذه الدول . وأزمة العلاقات بدول الخليج عقب الحرب مثال آخر للظاهرة نفسها التي تهدد الحركة الوطنية الفلسطينية . إن كون الحركة الوطنية الفلسطينية تعمل داخل حدود دول أخرى وتعتمد على تلك الدول ، يجعلها في صراع معها . وقد كانت أزمة الخليج أسوأ هذه الصراعات بسبب إفراط منظمة التحرير الفلسطينية في الاعتماد على العراق ، وبسبب قدرة العراق على إثارة الجماهير الفلسطينية .

مصاعب
المناخ الدولي

في النموذج المعتاد لحركات التحرر الوطني العربية ، كان المناخ الدولي كثيرا ما يعمل على نحو مؤات لها . فالرأي العام بين مواطني الدولة المستعمرة وبين دول العالم كان عاملا مهما

وقابلا للاستثمار في مصلحة الحركات العربية الاستقلالية . يضاف الى ذلك أن الحفاظ على المستعمرات كان قد غدا عبئا اقتصاديا لا جدوى من استمراره مع دخول العالم عصرا جديدا يعتمد على علاقات التبعية أو التبادل الاقتصادية والسياسية والعسكرية .

لقد تشكلت حركة الاستقلال الفلسطينية في عالم كان الرأي العام فيه قد بلغ أهمية متعاظمة ، لكن كان عليها في الوقت نفسه أن تسعى لتحقيق غايتها في عالم ما بعد الاستعمار ، في عالم بات للدول القومية والمستعمرات السابقة فيه مصالح جديدة وثابتة ، ضمن مناخ دولي مستقطب بين الشرق والغرب . وقد واجه الفلسطينيون بالتالي عالما أقل استعدادا للإصغاء إلى مطالبهم .

ومما عوّق حركة الفلسطينيين أنهم كانوا في صراع مطلق مع اليهود . فقد كان الغرب ينظر إلى إسرائيل باعتبارها الملاذ الوحيد لليهود الذين نجوا من المحرقة الكبرى في الحرب العالمية الثانية . وكان الفلسطينيون طبعا ينظرون إلى الأمور نظرة مغايرة لهذه . والتعاطف الدولي كان في اتجاه الدولة اليهودية الوحيدة في العالم ولذلك ، كان نفر غير قليل ينظر إلى الفلسطينيين كامتداد للقوى المعادية لليهود والشائعة في تاريخ اليهود (في الغرب) .

ومن جهة أخرى ، فلئن كانت حقبة الحرب الباردة قد أفادت الفلسطينيين من حيث دعم الاتحاد السوفياتي ودول أوربا الشرقية والعالم الثالث لقضيتهم ، فإنه مع نهايتها تعرضت المطالب الفلسطينية والكثيرمن الدعم الذي تتلقاه الحركة الفلسطينية لوقائع جديدة . فـ "النظام العالمي الجديد " و "أزمة الخليج " سارا في اتجاه معاكس للمساعي التي يبذلها الفلسطينيون من أجل بلوغ المرحلة الأخيرة من نموذج التحرير المعتاد – الاستقلال وإقامة دولة خاصة بهم .

الانتفاضة :
البحث عن القاعدة بعد فقدانها

إن طبيعة الصراع الفلسطيني – الاسرائيلي العصية والمطلقة ، وتشتت الفلسطينيين وما نجم عنه من قيام الحركة الوطنية الفلسطينية على قاعدة من اللاجئين ، وتضمينات النزاع الإقليمية ، والمناخ الدولي ، كل ذلك عوامل أدى تضافرها إلى خلق حركة وطنية فريدة . ونظرا إلى الصعوبات الناتجة من تضافر هذه العوامل ، فقد تمكن الإسرائيليون من كبح مسيرة الحركة الوطنية الفلسطينية . وقد كان الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢ ، وما نجم عنه من فقدان قواعد منظمة التحرير الفلسطينية ، ومثله حرب المخيمات ، بمثابة تذكرة بهذه

الصعوبات.[٢٨] وتفاعل هذه العوامل، وما استتبعه من تعقيدات إقليمية ودولية ولدا أزمة مستمرة في الحركة الوطنية الفلسطينية، ومنع هذه الحركة من الاقتداء بالنموذج المعتاد وتحقيق نتائجه. ونظرا إلى الصعوبات الفريدة الماثلة، فقد استغرقت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية وبناها التنظيمية في بحث مشكلة الاستقرار الداخلي وفن البقاء. وتعلمت المنظمة أن تناور في العالم العربي، ولم تكن تود أن تولد الاحتكاكات أو الانشقاق بين الفلسطينيين مهما تكن الأوضاع. لذلك، فإنها اتبعت سياسة الإجماع غير المجدية، إذ سعت لأرضية مشتركة توحد القوى والجماعات كلها.

إن الانتفاضة التي انطلقت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٧، يمكن أن تعد عملا يقارب بعض أوجه النموذج المعتاد لحركات التحرر الوطني. فالنكسات التي عانتها حركة التحرر الوطني الفلسطيني في الشتات على مدى عقدي السبعينات والثمانينات، ومثلها قدرة الفلسطينيين على صون الاستقلال السياسي في الضفة الغربية وقطاع غزة، قد حولت، في إطار الانتفاضة، إلى الطاقة السياسية والثقافية والاقتصادية والانسانية المطلوبة لإنشاء دولة. إلا إن الانتفاضة، كظاهرة تضاهي النموذج المعتاد، بلغت ذروتها في فترة ١٩٨٨/١٩٨٩.

وفي حين أن التحديات كانت تتعاظم في وجه الحركة الوطنية الفلسطينية، وعلى الاخص منذ نشوء الانتفاضة، فإن منظمة التحرير الفلسطينية لم تتكيف مع الوضع الجديد. إذ إنها بانهماكها في مواجهة جمهرة المنافسين الدائمة الحضور، والتحسب لتدخل الدول العربية، ومحاولة حماية المصالح الشخصية السطحية لبعض قادة الفصائل داخل التراتبية القيادية، تساهلت حيال سوء تصرف الأفراد في صفوفها. وقد عوق ذلك محاولات الإصلاح الديمقراطي وعطل قدرتها على تقييم ما يواجهها من مخاطر قديمة وجديدة تقييماً صحيحا.[٢٩]

أن تاريخ الفلسطينيين منذ سنة ١٩٤٨ محاولة لإعادة خلق الهوية والوجود الفلسطيني. ولكن الانطلاق نحو استيعاب مهام المرحلة القادمه، تتطلب تقييماً جديدا للتجربة الفلسطينيه يضعها في سياق النظام العالمي الجديد، والتحركات الهادفة إلى حل الكثير من النزاعات المستعصية في العالم. كما يجب ان يقيّم هذا التاريخ نقديا في اطار النموذج المعتاد لحركات الاستقلال ضد الاستعمار لا بمعزل عنها. اذ مثلت الانتفاضة أعلى مراحل مواجهة استعمار استيطاني في اطار بحث عن الذات وشروط الاستقلال. ان الحقبة المقبلة من التاريخ الفلسطيني ستعتمد على قدرة الفلسطينيين (مثلما تبين من خلال تطبيقات مراحل الحكم الذاتي الاولى والانتخابات الفلسطينية للمجلس التشريعي التي تمت في يناير ١٩٩٦) على إلتماس نماذج بقاء تتجه نحو المستقبل بدلا من أن تظل متخندقة في الماضي. وعلى الرغم

من التعقيدات كلها التي تعترض هذا السبيل ، فإن نهج التعاون في إطار سلمي ، هو وحده الكفيل بأن يحقق للشعب الفلسطيني التقدم الاقتصادي والاستقرار والبقاء السياسي .

هوامش الفصل الثاني

١-أنظر :-

George Lenczowski (ed.) The Political Awakening in the Middle East (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1970), pp.72-78; P.J. Vatiklotis, The History of Egypt: From Muhammed Ali to Mubarak (Baltimore, MD: The Johns Hopkins University Press, 1985), pp.247-270

٢- أنظر

Howard Sachar, A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time: (New Youk: Alfred Knopt, 1979), pp.64-88, 138-162.

٣- أنظر :

Benny Morris, "Operation Dani and the Palestinian Exodus from Lydda and Ramle in 1948," Middle East Journal, 40 (Winter 1986), pp. 82-109; Benny Morris, The Birth of the Palestinian Refugee Problem 1947-1949 (Cambridge: Cambridge University Press, 1987); Erskine B. Childers, "The Wordless Wish: From Citizens to Refugees," in Ibrahim Abu-Lughod (ed), The Transfomation of Palestine: Essays on the Origin and Development of the Arab-Israeli Conflict (Evanston, IL: Nothwestern University Press, 1971), pp. 165-202.

٤- أنظر :

Tom Segev, 1948: The First Israelis (New York: The Free Press, 1986).

5- ثمة مجتمعات عربية اختبرت أشكالا من التهجير مختلفة وأقل كثافة بسبب استيطان المستعمرين ، أنظر : عبد الملك التميمي ، "الاستعمار الاستيطاني في الوطن العربي" ، سلسلة "عالم المعرفة" (الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ١٩٨٣) .

٦- وقد عبرت "فتح" عن هذه السياسة في كراريس عدة في فترة ١٩٦٥/١٩٦٦ . أنظر حركة التحرير الوطني الفلسطيني(فتح) ، "من منطلقات العمل الفدائي : تحرير الأقطار المحتلة"ك وانظر أيضا : "الجلسات الحركية" ، الأعداد ١-١٢ ، ١٩٦٥ .

٧- أنظر : فيصل حوراني ، " الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤ : دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية" (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية- مركز الابحاث ، ١٩٨٠) .

٨- Stephen Hemsley Longrigg, Syria and Lebanon Under French Mandate (New Youk: (Octagon Books, 1972);

انظر ايضا : وميض نظمي ، " الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق" (بيروت : مركز دراسات الوحده العربيه ، ١٩٨٤) .

٩- مثل هذا التفكير كل من سياسة حركة القومية العربية وحزب البعث والناصرية ، أنظر :

Yezid Sayigh, "Reconstructling the Paradox: The Arab Nationalist Movement, Armed Struggle, and Palestine, 1951-1966," Middle East Journal, 45(Autumn 1991).

١٠- "من منطلقات العمل الفدائي" ، مصدر سبق ذكره ، ص ٨٤ .

١١- Alan Gresh, The PLO: The Struggle Within (London: Zed Books Ltd., 1983) pp. 34-57

١٢- Ibid., pp. 131-175

١٣- Sheila Ryan, "Plans to Regularize the Occupation," in Naseer H. Aruri (ed.), Occupation: Israel over Palestine (Belmont, MA: Association of Arab-American University Graduates, 1983), pp. 339-375 .

١٤- Jenet Abu-Lughod, "The Demographic Consequesnces of the Occupation,: in Aruri (ed.), Ibid., 258.

١٥- من أجل معطيات بشأن الفلسطينيين بعد سنة ١٩٤٨ ، أنظر :

Rosemary Sayigh, Palestinians: From Peasants to Revolutionaries (London:Zed Press, 1979); Pamela Ann Smith, Palestine and the Palestinians, 1876-1983 (New York: St. Martin's Press 1984);

يزيد صايغ ، "الاردن والفلسطينيون" (لندن : رياض الريس للكتب والنشر ، ١٩٨٧) ؛

Shafeeq N. Ghabra, Palestinians in Kuwait: The Family and the Politics of Survival (Boulder, CO: Westview Press, 1987); Laurie A. Brand, Palestinians in the Arab World : Institution Building and the Search for State (New Youk: Columbia University Press, 1988).

١٦- أنظر : بلال الحسن ، الفلسطينيون في الكويت : دراسة إحصائية" (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الابحاث ، ١٩٧٤) .

١٧- Brand, op. cit.

١٨- مقابلة مع أبو إياد (صلاح خلف) ، عضو اللجنة المركزية في "فتح" الكويت ، ربيع ١٩٩٠ .

١٩- كانت صدامات تشرين الأول / أكتوبر ١٩٦٩ وأيار/ مايو ١٩٧٣ أشد الصدامات دلالة .

٢٠- أنظر :

David C. Grodon, The Republic of Lebanon: Nation in Jeopardy (Boulder, CO: Westview

Press, 1983); Walid Khalidi, Conflict and Violence in Lebanon (Cambridge, MA:Harvard Center for International Affairs, 1979).

٢١- انظر :

Rashid Khalidi, Under Siege: PLO Decisionmaking during the 1982 War (New York: Columbia University Press, 1986), pp. 17-41.

٢٢- من أجل دراسة تحليلية لهذه الفترة أنظر :

Helena Cobban, The Palestinian Liberation Orgenisation: People, Power and Politics (New York and Cambridge, UK:Cambridge University Press, 1984.)

٢٣- ابتداء من سنة ١٩٧٩ ، وقعت في الجنوب اللبناني وفي بيروت بصورة متقطعة اشتباكات بين حركة "أمل" وجبهة التحرير العربية ، التي يدعمها العراق ، والحزب الشيوعي اللبناني وغيرهما من المنظمات اللبنانية ، وقد حافظت "فتح" على حيادها إلى أن انجرت إلى الصدام مع "أمل" سنة ١٩٨١ .

٢٤- أنظر :

Alan R. Taylor, "The PLO in Inter-Arab Politics," Journal of Palestine Studies, Vol. II, No.2 (Winter 1982); Aaron D. Miller, "Jordan and the Arab-Israeli Conflict: The Hashemite Predicament," Orbis, 29 (Winter 1986).

٢٥- Walid Khalidi, "The Gulf Crisis: Origins and Consequences," Journal of Palestine Studies, Vol. XX, No.2 (Winter 1991), pp. 16-17.

٢٦- Rashid Khalidi, "The Palestinians and the Gulf Crisis," in Micah L. Sifry and Christopher Cerf (eds,) The Gulf War Reader: History, Documents, Opinions (New York: Times Books, Random House, 1991), p. 427.

٢٧- مقابلات مع مواطنين كويتيين ومع فلسطينيين مقيمين في الكويت . الكويت ، تموز/يوليو-تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩١ ؛ أنظر تقريرنا عن مرحلة الاحتلال العراقي للكويت Shafeeq Ghabra, " The Iraqi Occupation of Kuwait: An Eyewitness Account," Journal of Palestine Studies, Vol. xx, no. 2 (Winter 1991), p. 112-125

٢٨- Rashid Khalidi, Under Siege, op. cit

٢٩- أنظر بشأن هذا الموضوع : صبري جريس ، "حوار من نوع آخر" شؤون فلسطينية" العدد ١٧٠-١٧١ (أيار/مايو - حزيران/يونيو ١٩٨٧) ، ص ٣-٣٢ .

الفصل الثالث:
الانتفاضة الفلسطينية: بين الاسباب والاثار*

* تم نشر صيغة سابقه واوليه لهذا الفصل : شفيق الغبرا ، "الانتفاضة الفلسطينية : أسبابها ، الية استمرارها ، وأهدافها ." المستقبل العربي ،١١٣(١٩٨٨/٧) ص٥٩-٧٤ . وقد قمنا بالتعديلات والاضافات اللازمة ليكون هذا الفصل متناسبا والاطار الخاص بهذا الكتاب من حيث التوقيت والمعلومات .

منذ بدء الانتفاضة الفلسطينية ، اضيف الى الصراع العربي - الاسرائيلي بعداً جديداً . فقد برزت الانتفاضة داخل الأرض المحتلة كفعل شعبي عميق الجذور أعزل السلاح تستند وسائله الكفاحية الى جرأة عالية وفهم لعقل المحتل . اذ تميزت الانتفاضة ببروزها كنموذج شعبي يعبر عن جماعة مسلوبة الحقوق دون ان تكون مسلوبة الارادة والفعل . لقد واجه الكيان الاسرائيلي نتيجة للانتفاضة ، أكبر وأهم تحدٍ واجهه على مدى ٤٠ عاما منذ اقامته . فكل الحروب السابقة - وكل أشكال القتال - لم تهدده في ضميره السياسي وفلسفة استمراره واسس علاقاته الداخلية كما هددته الانتفاضة . لقد ابتلعت اسرائيل مليوني عربي ، لتكتشف أن لهم هوية ونظاما جماعيا وحقوقا وقيما لا يمكن القفز فوقها . بل اكتشفت مع الوقت ، أن ما ابتلعته يفعل فعله في احشائها ، لا على حدودها الخارجية حيث يسهل الانقضاض عليها . وانه بلا حل سياسي عادل تقبل به الضحية أولا ، فلن يكون المستقبل سوى استمرار لحالة الصراع الحالية . ان نجاح الانتفاضة الاساسي تمثل على مدى السنوات في مقدرتها على مواجهة أكثر الجيوش والادارات الاستعمارية حداثة وتنظيما وحنكة ، وبالتالي في مقدرتها المساهمة في احداث تغيرات هامة في اسرائيل ، لصالح حل المشكلة الفلسطينية حلا متفقاً عليه بين الشعبين . بل ان نجاحها الاهم ، يتلخص في انها وضعت الحركة الوطنية الفلسطينية في الاطار الصائب كحركة استقلال تنطلق من على ارضها ، وتسعى لنيل حق تقرير المصير في اطار القانون الدولي فوق اراضيها المحتلة عام ١٩٦٧ . لقد طرحت العديد من الأسئلة المتعلقة بجذور وأسباب الانتفاضة . وطرحت أسئلة حول بدايتها ، هل هي ثورة عفوية أم منظمة ؟ وأثيرت أسئلة أخرى تتعلق بأهدافها ومراميها . هذا ما ستحاول هذه الدراسة الاجابة عنه .

مسلسل الاحداث السابق للانتفاضة

منذ الضربة المأساوية للحركة الوطنية الفلسطينية في عام ١٩٨٢ خارج الأرض المحتلة (غزو لبنان) ، وداخلها (حلّ البلديات المنتخبة) ، بدا واضحا أن الفلسطينيين دخلوا عهدا مظلما . فبينما كانت الحركة الوطنية الفلسطينية في أواسط السبعينات ، في داخل الاراضي المحتلة وخارجها ، في أوج قوتها واكتمال بنيانها الذاتي ، جاءت الحرب الاهلية اللبنانية ، ثم حرب عام ١٩٨٢ ، ليدفعا بها خطوات الى الوراء .(١) فنتيجة لأحداث عام ١٩٨٢ ، دفعت الحركة الوطنية الفلسطينية فاتورة الخلل الكبير في ميزان القوى ، والناتج عمّا ال اليه الوضع العربي في مواجهة موجة استيطانية جديدة بقيادة الليكود .

وعندما تأكد لأبناء الداخل المحتل ، بأن تجربة العمل المسلح في الخارج تواجه ظروفا صعبة ، بدأ الوضع يأخذ منحى جديدا . أي بدأت تبرز تحولات تشير الى أن الأرض المحتلة في طريقها للتحول الى مركز ثقل جديد للحركة الوطنية الفلسطينية . وقد برزت البدايات الجديدة في الضفة الغربية وغزة عام ١٩٨٥ ، وذلك على شكل حملة اغتيالات فردية موجهة ضد المستوطنين اليهود . ففي تموز/يوليو ١٩٨٥ ، قُتلت مدرستان اسرائيليتان في الضفة الغربية ، وبعدها بأيام ، قتل وسط نابلس أحد أعضاء الحكم العسكري المعروفين بعنصريتهم .(٢) ثم في العاشر من آب/أغسطس ١٩٨٥ طعن مستوطن اسرائيلي بوسط الخليل . وفي الرابع والعشرين من الشهر نفسه قتل مستوطن آخر في طولكرم . وتوّج هذا التوجه الجديد في أواخر آب/أغسطس ، عندما هاجم شاب بسكينه جنديين اسرائيليين وهما يقومان بمهام الحراسة في وسط مدينة الخليل ، فقتل الأول وجرح الثاني قبل أن يتوارى عن الأنظار .(٣)

لقد شكّلت هذه الأحداث بداية تراكمات عنيفة ناتجة من وسط المجتمع الواقع عليه الاحتلال . وقد جاءت معبّرة عن نمو جيل جديد من الفلسطينيين ، اذ تبيّن أن هذه الأعمال من صنع شبان صغار ولدوا وترعرعوا تحت الاحتلال . فقد جاءت تعبيرات هذا السلوك الجديد ، لتدل بأن هذا جيل تعلم أن لا يخشى عدوه ، وأنه يتمتع ، من دون الأجيال السابقة ، بروح ملؤها المبادرة المدروسة . لقد انتجت اسرائيل على مدى السنوات نقيضها وشبيهها في المجتمع الفلسطيني ،وهذا ما بدأ يتطور في اواسط الثمانينات . ضمن هذه الأجواء ، أعلنت اسرائيل سياسة القبضة الحديدية . وعلى مدى عدة شهور ، في أواخر عام ١٩٨٥ قتلت ٧ فلسطينيين وجرحت العشرات . وقد رافق ذلك رمي حجارة ، وتظاهرات بالاضافة الى ردود فعل عنيفة من قبل المستوطنين .(٤)

وهكذا وبعد أزمات كبرى عصفت في الحركة الوطنية الفلسطينية الحديثة ، بدأ أبناء الداخل اعتماد سياسة تحويل الأرض المحتلة لبؤرة أساسية للنضال الوطني الفلسطيني . وقد سار عام ١٩٨٦ وعام ١٩٨٧ على المنوال نفسه الذي شهدته الأرض المحتلة عام ١٩٨٥ ، اذ استمر الفلسطينيون في سياسة طعن جنود ومستوطنين ، ثم النزول الى الشوارع لممارسة انتفاضات صغرى . وقد استمرت بعض هذه الانتفاضات أسبوعاً وأسبوعين ، كان بعضها ، بخاصة في شهر شباط / فبراير ١٩٨٧ ، عنيفا ، إذ خرج السكان بتظاهرات ، ورموا الحجارة وأقاموا الحواجز تأييدا للمخيمات الفلسطينية المحاصرة في لبنان ، ورفضا لسياسة القبضة الحديدية المطبقة في الأرض المحتلة .(٥) بل لقد اعتبرت تلك التظاهرات الأعنف منذ انتفاضة الفلسطينيين التي نتجت عن قيام اسرائيل بحل البلديات المنتخبة عام ١٩٨٢ .

لقد ثار الفلسطينيون مرات على الاحتلال . وشكلت انتفاضتهم عام ١٩٧٦ ، والتي تمت في ظلها انتخابات البلديات الوطنية (في الضفة الغربية وغزة) وبداية يوم الأرض في صفوف فلسطينيي عام ١٩٤٨ ، محطات مهمة على طريق مقاومة الاحتلال بأشكال شعبية . كما شكلت انتفاضة الفلسطينيين عام ١٩٨٢ ، احتجاجا على حل البلديات المنتخبة ، محطة أخرى في الدفاع عن الوجود الوطني .(٦) الا أن الأهمية الكبرى للتطورات الجارية منذ عام ١٩٨٥ ، تعود أساسا لحدوثها بعد النكبة التي حلّت في الحركة الفلسطينية عام ١٩٨٢ ، وبنفس الوقت لتحول زمام المبادرة نحو جيل جديد ، وفي ظل نمو للفكر الاستشهادي والاسلامي في الاراضي المحتلة .

لقد أخذت الأوضاع ، بخاصة في غزة ، منحى جديدا عندما قتلت قوات الاحتلال في الأول من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٧ ، ثلاثة فدائيين ينتمون الى منظمة الجهاد الاسلامي . ثم بعد ذلك بأيام ، وخلال اشتباك دام ، قتلت اسرائيل أربعة فدائيين من المنظمة نفسها ، بينما فقدت ضابط استخبارات كبير . وتبين أن ثلاثة من الشهداء السبعة ، هم من الفدائيين الذين استطاعوا الهرب ، إبان صيف عام ١٩٨٧ ، من سجن نفحة المعروف بتشديد الحراسة فيه .(٧) ولكن الجديد أن السجناء الهاربين لم يخرجوا من غزة ، واستطاعوا القيام بمهام قتالية ضد قوات الاحتلال .

وقد نتج عن استشهاد هؤلاء السبعة ، ان تحركت كل غزة ، إذ بدأت خلال شهر تشرين الأول / اكتوبر ١٩٨٧ اضطرابات ، انطلقت أولا من غزة ، ثم امتدت الى الضفة الغربية . وقد ترافقت مع محاولات لمتطرفين يهود في اقتحام المسجد الأقصى . كما أن الاضطرابات ظلت تتأجج نتيجة قيام نقاط التفتيش الاسرائيلية بإطلاق النار (بصورة متكررة) على

السيارات المدنية العربية ، مما ادى إلى وقوع جرحى وخسائر في الأرواح .(٨)

ثم وقعت عملية النسر (الطائرة الشراعية) التي عبرت من جنوب لبنان في ٢٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٧ . وقد أكّدت هذه العملية على أنه بالامكان تحدي اسرائيل والتفوق عليها . بل بدأ الشبان الصغار يسخرون من الجنود الاسرائيليين علنا خلال دورياتهم المسلحة بالأرض المحتلة .(٩) لقد لعبت هذه العملية دور الصاعق الذي مهّد لانفجار كل التناقضات المتراكمة على مدى عشرين عاما من الاحتلال ، وأربعين عاما من النكبة ، ومائة عام من الصراع .

اسباب الانتفاضة :
استيطان وعنف ونمو قوى اجتماعية جديدة

لا يوجد عامل واحد مفجّر للانتفاضة ، إذ إنها نتيجة عوامل متفاعلة متداخلة . ولكن العامل الرئيسي والتاريخي ، يتعلق بطبيعة الاستعمار الذي تعرض له المجتمع الفلسطيني الاعزل . أنه نمط من الاستعمار الذي يجمع بين الاستيلاء على الأرض واقتلاع السكان . وعلى مدى عشرين عاما من الاحتلال منذ عام ١٩٦٧ ، مارس هذا الاستعمار سياسة عزل وتشويه اجتماعي – اقتصادي – انساني – سكاني تجاه مجتمع بكامله . فعبر مصادرة الأرض ، اصبح أكثر من ٤٠ بالمائة من أراضي الضفة الغربية وغزة مملوكا للاستيطان الاسرائيلي ، وعبر بناء المستعمرات والحد من التنمية الزراعية والصناعية ، ثم عبر ربط اقتصاد الضفة وغزة بـ «اسرائيل» عام ١٩٤٨ ، وتطويق القدس العربية بأحياء سكنية كاملة يقطنها عشرات الالوف من الاسرائيليين(٨٠ الف حتى عام ١٩٨٧) ، سعت اسرائيل الى ابتلاع الأرض وقهر السكان .(١٠) بل وعبر فرضها للبضائع الاسرائيلية على الفلسطينين ، وجعلهم في الاراضي المحتله ثاني مستهلك لبضائعها في العالم بعد الولايات المتحدة الامريكية (بما يدر ٦٨٠ مليون دولار على «اسرائيل» ويشكل ٩٠ بالمائة من كل واردات الأرض المحتلة) أكملت اسرائيل اعتماد الأرض المحتلة عليها .(١١) كما أن ضرب الحرف المحلية ، والمساهمة في تحويل ٣٧ بالمائة (٩٠ألفا) من قوة العمل في الأرض المحتلة الى عمال مياومين في مصانع ومستعمرات اسرائيل الواقعة في أراضي عام ١٩٤٨ ، تم استكمال محاولة تشويه المجتمع الفلسطيني .(١٢)

لقد قام الليكود أيضا ، وقبله وبنسب اقل ، تآلف حزب العمل ، بقطع أشواط تاريخية لصالح الضم والالحاق . فكل يوم من أيام الاحتلال ، شهد تطبيق قوانين وسياسات جديدة

تربط الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ بالأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ . فعبر مسار تاريخي عنيف ، قامت اسرائيل بتحويل القوانين العربية المعمول بها في الأرض المحتلة (القانون الأردني أساسا) ، الى قوانين هامشية تخضع لقوانين الكنيست والأوامر العسكرية الصادرة من قبل الحاكم العسكري . فهذه الأوامر العسكرية لها فعل القوانين .[١٣] لهذا ، ولأسباب أخرى متعلقة بالضم والالحاق ، جاءت الخرائط الاسرائيلية الجديدة بلا حدود وفروقات بين الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ والاراضي المحتلة عام ١٩٤٨ .

لقد قطع الليكود أشواطا مهمة في ممارسة الاستيطان ، فقبل مجيئه إلى الحكم عام ١٩٧٧ ، انشأت اسرائيل ٣٤ مستعمرة في الضفة الغربية وغزة . وقد كانت هذه المستعمرات التي انشأها العمل قبل عام ١٩٧٧ ذات طابع استراتيجي ينسجم مع خطة آلون القاضية بإعادة ٥٠ بالمائة من الضفة الغربية و٢٥ بالمائة من غزة الى السيادة العربية .[١٤] ولكن منذ مجيء الليكود ، وعبر خطط بدأها رئيس قسم الاستيطان بالمنظمة الصهيونية العالمية ماتتياهو دروبليس (Matityaho Drobless) عام ١٩٧٨ ، تم وبسرعة شديدة انشاء ما يزيد عن ١٠٠ مستوطنة في جميع أنحاء الأرض المحتلة [١٥] ، إذ بدأ الاستيطان يتوجه الى المناطق الفلسطينية الكثيفة السكان ، التي لم تشملها خطة آلون . ومنذ عام ١٩٨٣ وضعت خطة مشتركة بين وزارة الزراعة الاسرائيلية وقسم الاستيطان بالمنظمة الصهيونية العالمية ، كلفت ٢,٥ مليار دولار . وقد ركزت الخطة على مضاعفة اعداد المستوطنين ، من ٢٧ ألف مستوطن في الضفة الغربية وغزة عام ١٩٨٣ ، الى ٥٢ ألفا عام ١٩٨٥ . وعبر الخطة نفسها تم بناء مستعمرات اسرائيلية غير زراعية . فهذه أول مرة تقدم المنظمة الصهيونية العالمية على بناء مستعمرات هي أقرب الى الضواحي الموصولة عبر سلسلة من الطرق السريعة ، بالمدن الاسرائيلية الرئيسية (تل ابيب ، القدس) . هذه السياسة الاسرائيلية أدت الى استيطان العديد من الأسر التي وجدت في هذه الضواحي حياة هادئة رخيصة ، اذ أصبحت طبيعة الاستيطان الجديد تتم لأسباب مصلحية تتعلق بأبناء الطبقة الوسطى الاسرائيلية ، وليس لأسباب عقائدية كما عوّدتنا الحركة الاستيطانية عبر تاريخها . وعبر الخطة نفسها ، تم أيضا بناء من ٥ الى ٦ آلاف منزل للاستيطان سنويا . كما وتم تعبيد ١٠٠ الى ١٥٠ كلم طرقات سنويا داخل الأرض المحتلة .[١٦] والجدير بالذكر ، أن كل طريق عبّد تم ادخاله ضمن نظام الطرق الاسرائيلية ، وتم وصله بالأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ . وعبر ممارسة هذه الخطة ، شددت اسرائيل أيضا على لجم الزراعة الفلسطينية ، ومنعت حفر الآبار الجوفية الممكن استخدامها لصالح الزراعة الفلسطينية .[١٧]

وكما كان يؤكد ميرون بنفنستي (Benvenisti) نائب رئيس بلدية القدس سابقا والمسؤول

عن مشروع بنك المعلومات الخاص بالأراضي المحتلة ، فلقد حوّل الاحتلال المجتمع الفلسطيني الى مجتمع ملحق بإسرائيل ، وان العودة بعقارب الساعة الى الوراء ، أي الى حالة فصل هذين التوأمين لن تكون ممكنة بعد الآن . لقد أصبح الاحتلال متجذرا بحيث يستحيل اقتلاعه . فهذا الجسم الاستيطاني ، حسبما يرى بنفنستي ، ألحق الفلسطينيين جغرافيا ، واقتصاديا ، بالفعل لا بالقول ، باسرائيل . لهذا لن يقدر المجتمع الفلسطيني على التفكير بنفسه دون أن يرى في المرآة جزءه الآخر المرتبط بواقع الاحتلال واستمراره . وهذا وضع الفلسطينيين في مأزق حقيقي ، فأما ان يطرحوا قضيتهم في اسرائيل ، لا على أساس أنها قضية شعب يسعى للتحرر الوطني والاستقلال ، بل على أساس انها قضية مساواة وحقوق سياسية ومدنية داخل اسرائيل ام ان يبدؤا ثورة للانفصال عن اسرائيل لا تنتهي الا بنيل حقوق سياسيه للمناطق المحتلة منذ عام ١٩٦٧ .(١٨)

ولكن ، وهنا تكمن الثنائية التاريخية المهمة ، بينما كانت اسرائيل تبتلع فلسطين بالمعنى الاقتصادي والسكاني ، وقفت عاجزة عن ابتلاعها بالمعنى السياسي . بل والأهم ، انها في غمرة التركيز على الضم والتهويد والالحاق ، حولّت العقل الفلسطيني المقاوم ، الى حالة ترتسم ملامحها المستقبلية داخل الكيان الاسرائيلي ، عوضا عن أن ترتسم على حدوده الشمالية حيث يسهل الانقضاض عليها بين الحين والآخر . وبدلاً من أن يؤدي ذلك الابتلاع الجغرافي الاقتصادي الاسرائيلي الى قبول فكري - عقائدي - سياسي - اداري فلسطيني بالأمر الواقع ، فقد أدى الى سعي دؤوب صامت ، فاعل ، على مدى السنوات العشرين ، للتمسك بالتمايز السياسي . وقد ادى هذا التمايز السياسي لبروز طاقة انتاجية بنائية ، في ظل الاحتلال ، ساهمت في نمو الادارة والمؤسسات والقوى الاجتماعية الفلسطينية القادرة على الرد على الالحاق والاحتلال . فالتناسب هنا كان طرديا . كلما تجذّر وتعمّق الضم والتهويد ، تبلورت ونمت البنى التحتية المكوّنة لنواة الكيان الفلسطيني .(١٩)

ومن هنا كان لسياسة «صامد» التي اتبعت في المجتمع الفلسطيني قبل الانتفاضة ، والمستندة الى وسائل لا عنفية أساسها الاستمرار على الأرض ، أكبر الأثر على تماسك الوضع الفلسطيني بالأرض المحتلة . وكما يقول المحامي رجا شحادة ، فقد شكّل أسلوب الصمود طريقا ثالثا بين طريق الخضوع للاحتلال وطريق مقاومته المطلقة في ظل ظروف غير مؤاتية . «فالصمود» أو منهج «صامد» شكّل على مدى سنوات الاحتلال انعكاسا لقدرة الفلسطينيين على ابقاء تماسكهم ووجودهم الروحي والمادي في ظل قهر الاحتلال .(٢٠) فكما هو حال الحركة الصهيونية التي ربطت المستعمرة ، بالاقتصاد ، بالايديولوجية ، بالزراعة ، بدأت

الحركة الفلسطينية بالداخل ، ومنذ السبعينات بالربط بنجاح واضح ، بين الفكر والممارسة بين الأرض والاقتصاد المستقل .(٢١) فالصمود في البيت ، في الحقل ، والمصنع ، سمح للمجتمع الفلسطيني ، الذي فقد الجزء الأكبر من طاقاته الشابة في السنوات التي تلت حرب عام ١٩٦٧ ، بأن يصحح الخلل الكبير في الهرم السكاني الشاب . وعلى مدى السنوات القاسية ، تعلم الفلسطينيون كيف يبنون مؤسسة ، ناديا ، جمعية ، نقابة ، تنظيما ، وجامعة ، تعمل جميعا تحت الاحتلال وتقاومه بنفس الوقت .

والأمثلة المعبّرة عن نمو القوى الاجتماعية ذات الجذور العميقة في المجتمع الواقع عليه الاحتلال كثيرة . وهي التي ترسم الفرق بين النضال السياسي ذي الصيغ السطحية ، والنضال السياسي المستند الى قوى اجتماعية صاعدة في أحشاء المجتمع الفلسطيني وبناه . فالجامعات الفلسطينية التي نشأت في السبعينات بمبادرات محلية أصبحت ، نظرا لاستقلالها عن كيان الاحتلال ، إحدى أهم هذه القوى الاجتماعية الفلسطينية الصاعدة . فبعد حل البلديات المنتخبة ، والتي شكلت حتى عام ١٩٨٢ قيادة النضال الوطني الفلسطيني في الداخل ، بدأت الجامعات التي نشأت بعد عام ١٩٦٧ ، والتي بلغ تعداد طلبته عام ١٩٨٧ أكثر من ١١ ألف طالب وطالبة ، بالتحول الى حاضن كبير للثقافة والسياسة الفلسطينية الوطنية . فعبر مساهمات الطلبة برز الفن ، الغناء والفولكلور المرتبط بالحفاظ على الهوية . ومن الجامعات ، وبمساهمات من أساتذتها ، انطلقت محاولات للبحث عن المجتمع الفلسطيني ، عن قراه ومدنه ، اقتصاده وتاريخه ، حاضره ومستقبله . كما أصبحت الجامعات وسيلة اتصال مع العالم الخارجي ومكان لزيارات الصحافة العالمية وجمعيات حقوق الانسان .(٢٢) لقد تجاوز دور الجامعة في الأرض المحتلة ذلك الدور الذي يناط بالجامعة بأي مكان آخر بالعالم ، اذ جمعت بين العلم وأبعاده وبين الثورة وأشكالها .(٢٣)

وعبر سنوات الكفاح ، صهرت الجامعات طلبة وطالبات من القرى والمدن والمخيمات من الجنوب والشمال ، فخلقت مجتمعا جامعيا صغيرا قادرا على مواجهة الاحتلال بنسبة من التجانس . وعبر أشكال العمل التطوعي المنظّم الذي بدأته جامعة بيرزيت ، ربطت الجامعات الفلسطينية بين العمل الفكري واليدوي ، وبين الزراعة والصمود . فعلى مدار السنة ، كان مئات من الطلبة يذهبون الى المخيمات والقرى لتنظيف الشوارع او لبناء منازل هدمها الاحتلال ، أو للمساهمة بالزراعة . لقد أدى هذا الى نمو في الوعي الوطني الاجتماعي للطلبة ، كما للقطاعات الشعبية المتفاعلة مع العمل التطوعي .(٢٤)

ولعبت قوى اجتماعية أخرى دورا مهما مرتبطا بدور الجامعات . فأولا شكلت المدارس قوة

ضخمة رديفة للجامعات . فهناك أكثر من ٤٤٠ ألف طالب وطالبة بمدارس الضفة الغربية وغزة ، وهم يشكلون ثلث السكان .(٢٥) ودورهم السياسي ليس مفصولا عما يجري في الجامعات والتيارات السياسية الفاعلة فيها . كما أن للجوامع المنتشرة بالضفة وغزة ، والتي يبلغ عددها بالضفة الغربية لوحدها ٨٥٠ جامعا ، دورا مهما في الاتصال بين جميع أبناء المناطق المحتلة(٢٦) كما نمت الصحافة الفلسطينية المحلية ، والجمعيات ، والنقابات العمالية والمهنية ، وأصبح لها دور أساسي لا يمكن فصله عن الجامعات وعن بقية أجزاء المجتمع .(٢٧) فعلى سبيل المثال ، فان جمعيات النفع العام في الضفة الغربية ، والتي يبلغ عددها ١٦٦ جمعية يتفرع عنها ٤٢٨ مؤسسة عاملة في داخل الأرض المحتلة . ويستفيد من خدماتها ما يزيد عن ٦٨ ألف مواطن .(٢٨)

وشكّل أيضا المخيم الفلسطيني في داخل الأرض المحتلة ، قوة شعبية من صلب العصب المقاوم للاحتلال . ففي المخيمات ، استقر ابناء الأرض الذين شردتهم الصهيونية قبل غيرهم عام ١٩٤٨ . انهم الحالمون بالعودة التي لم تتحقق منذ ١٩٤٨ . ففي مخيماتهم تحول الحلم الى غضب وممارسة سياسية لا تهدأ . وشكّل سكان المخيمات قاعدة شعبية عريضة ، ففي مخيمات الضفة الغربية الاحدى والعشرين قطن عام ١٩٨٧ ما يقارب ١٤٠ ألف مواطن .(٢٩) وفي مخيمات غزة الثمانية ، قطن حوالي ٢٨٠ ألف مواطن .(٣٠) ولو احتسبنا أعداد الفلسطينيين الذين لجأوا الى الضفة الغربية وغزة عام ١٩٤٨ ، القاطنين الآن في مختلف مدنها وقراها ، والمسجلين أيضا لدى وكالة غوث اللاجئين ، لوصل العدد الكامل لهذه القاعدة الشعبية ، أي القاطنة بالمخيم وخارجه عام ١٩٨٧ والتي تعود في اصولها لاراضي ١٩٤٨ ، الى ٧٨٥ ألف مواطن . ويشكّل هذا العدد نصف سكان الضفة الغربية والقدس وغزة البالغ حتى عام ١٩٨٧ ١,٦ مليون نسمة . .

أما السجون التي كانت تحوي آلاف المحكومين لسنوات طويلة ومؤبدة ، فتحولت هي الأخرى الى مراكز بل الى قوة اجتماعية فاعلة على الصعيد الوطني العام . فالفلسطينيون يدخلونها شبابا صغارا ، ليخرجوا بعد عشرة أو خمسة عشر عاما متميزين بقدرات تنظيمية وقياديه تعلموها في السجون . ففي السجن يتعلمون لغة العدو (العبرية) وينهون الثانوية العامة . وفي السجن يتعلمون فن الكتابه ، ويمضون اوقات طويلة في القراءة والترجمة ، كما انهم ينظمون اضرابات السجون الطويلة . وعلى مر السنوات يكتسبون الكثير من المناعة ويكتنزون خبرات في وسائل مقاومة السجانين .(٣١)

لقد خرج المئات من المساجين المحكومين لسنوات طويلة أثناء عمليتي تبادل لاسرى

اسرائيليين كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد أسرتهم في لبنان عام ١٩٨٢ . وقد أصّر أغلب هؤلاء السجناء على البقاء في الضفة الغربية وغزة . وقد ساهم السجناء المحررين ، بخبراتهم ، بتصليب عود الحركة الوطنية الفلسطينية بالداخل . ففي كل جامعة ، وقرية ومخيم ، هناك من بينهم من يعيد انتاج تجربته في المجتمع الأكبر .

لقد ارتبط كل هذا أيضا بنمو دور المنظمات الفلسطينية في الداخل ، وارتفاع قدراتها الادارية والتنظيمية والعسكرية . ولقد ارتفعت في صفوف هذه المنظمات روح المبادرة . فبدلا من انتظار أوامر من الخارج ، بدأت تتصرف حسب ظروفها وحاجاتها الكفاحية ، دون أن يعني هذا عدم استجابتها لمتطلبات التفاعل مع الخارج .(٣٢) ومن الواضح أن التفاهم الفلسطيني بعد سنوات القطيعة التي بدأت منذ عام ١٩٨٣ بين فصائل الخارج في لقاء المجلس الوطني المنعقد عام ١٩٨٧ في الجزائر ، ترك آثارا مهمة على الانتفاضة . إذ شكلت بعد ذلك المجلس ، لجنة لمتابعة العمل في الأرض المحتلة شاركت فيها الفصائل الفلسطينية بقيادة خليل الوزير «أبو جهاد » . (هذا التنسيق ونشاط ابوجهاد بالتحديد كان سبب اغتياله على يد المخابرات الاسرائيليه عام ١٩٨٨ .)

ان الانتفاضة كما تجسدت لا يمكن أن تعبّر عن عوامل اليأس . ويشهد التاريخ الانساني كما تؤكد نظرية جيمس ديفيس (James Davis) ، أن الكثير من الحركات والثورات الاجتماعية العميقة ، تمت بعد حصول انتكاسة بعد مراحل من الانتعاش وارتفاع الآمال وتطور البني الاجتماعية والسياسية والاقتصادية .(٣٣) ان الانتكاس المفاجيء في وضع القضية الفلسطينية بعد تكرار حالة ارتفاع الآمال في السنوات الواقعة بين ١٩٦٨ - ١٩٨٢ ، تحول الى عامل رئيسي في احتقان الوضع الفلسطيني في الأرض المحتلة .

فبينما كان نمو القوى المنظمة والاجتماعية الفلسطينية داخل الأرض المحتلة يأخذ صيغا جديدة من حيث الحجم والشكل والمضمون ، كانت في الوقت نفسه جميع المبادرات السياسية العربية والعالمية الهادفة الى تحريك الوضع ، واخراج الاحتلال ، تواجه الفشل تلو الآخر . وقد ترك ذلك اثراً كبيراً على قناعة المجتمع الفلسطيني ، بأنه لا خيار أمامه سوى أن يرمي بكل ثقله لتحريك الابعاد السياسيه لقضيته . هذا وقد أوصل حصار منظمة التحرير الفلسطينية اسرائيليا في بيروت عام ١٩٨٢ ، ثم فلسطينيا وسوريا في طرابلس ، ثم لبنانيا في مخيمات لبنان ، الى نتيجة مفادها أن المدد العسكري لن يأتي من الخارج ، وبأنه لن تقوم هانوي او قاعدة ارتكاز للثورة الفلسطينية . بل وجدوا أن تآكل الحركة الوطنية الفلسطينية في ظل الجمود العام الذي تشهده القضية الفلسطينية ، وفي ظل تفاقم الحرب العراقية -

الايرانية ، قد يؤدي الى افنائها . وهذا قد يؤدي الى تبلور حالة من الضياع الفلسطيني وغياب التمثيل شبيهة بتلك التي عرفها الفلسطينيون إبان السنوات التي تلت نكبة عام ١٩٤٨ . وقد ساهم مؤتمر القمة العربي المنعقد في عمان تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٨٧ في تأكيد هذه الاستنتاجات .(٣٤)

ولقد تداخل هذا الوضع مع بعض خطط التنمية العربية التي قوّت مؤسسات الاحتلال بدلاً من أن تقوّي مؤسسات المجتمع الواقع عليه الاحتلال .(٣٥) وساهمت أطروحات ادارة المنطقة المحتلة ، بتفاهم عربي - اسرائيلي (التقاسم الوظيفي) ، المرسخة للاحتلال والمحددة لشرعيته والمتلاقية مع أطروحات الحكم الذاتي المحدود ، الذي يشمل السكان ولا يشمل الأرض والمياه والسياسة ،(٣٦) الى اقناع الشعب بأن استمرار الاحتلال قد يكسبه شرعية دولية وعربية .(٣٧)

ولا شك بأن تحوّل غزة الى واحدة من أكثر المناطق في العالم اكتظاظا بالسكان ، وارتفاع نسبة البطالة في الأرض المحتلة بين خريجي الجامعات ، قد ألقى مشكلات كبرى على المجتمع الفلسطيني .(٣٨) وقد تداخل هذا مع الأزمة الاقتصادية العامة في البلاد العربية (الخليج والأردن) والتي حدّت من المساعدات المالية التي يقدمها ابناء الأسر الفلسطينية العاملين بتلك البلدان لأسرهم في الأرض المحتلة . ان جميع هذه العوامل ، اضافة الى إغلاق سوق العمل والهجرة العربيين أمام العمالة الفلسطينية الخارجة من الأرض المحتلة ، قد أوصلت المجتمع الفلسطيني الى منحدر صعب وقاس .(٣٩)

مع حلول عام ١٩٨٧ توفرت كل شروط الانفجار . وقد شهد ذلك العام ، كما وضحت في هذه الدراسة أحداثا كثيرة تعبّر عن وضع جديد . لقد كان العنف الشعبي يتجمع ، والعاطفة المقاومة للاحتلال تتكثف ، تمهيدا لانقلاب جديد بالعلاقة بين الحركة الصهيونية والحركة الفلسطينية . أي تبلورت بدايات فك الارتباط ، لا على مستوى رأس المجتمع الفلسطيني فحسب ، بل أيضا على مستوى الاقتصاد والأرض .

بداية الانتفاضة

في الثامن من كانون الأول / ديسمبر ، صدم سائق اسرائيلي بشاحنته سيارتين فيهما عمال فلسطينيون من غزة . وعلى الفور قتل أربعة عمال ، وجرح تسعة آخرون ، و «اعتبر ابناء غزة بأن الحادثة مفتعلة وذلك ثأرا لمقتل بائع اسرائيلي قتل بغزة في السادس من ديسمبر» . (٤٠)

وتشاء الصدف ان يكون ثلاثه من القتلى الاربعة من مخيم جباليا بغزة ، مما اثار المخيم وبقية المدينة . وابان الدفن الليلي للشهداء حضر اربعة الاف شخص ممتلئين بالغضب .(٤١)

في اليوم التالي (٩ كانون الأول / ديسمبر) ، قام المئات بتظاهرات داخل المخيم ، فقتل شاب في المخيم برصاص الاحتلال .(٤٢) وجاء رد فعل الجنود على التظاهرات مليئا بالبطش ، اذ نكلت قوات الاحتلال بمخيم جباليا لتعلمه درسا . فما كان من السكان إلا وأن بدأوا في مقاومته وبعنف لم يعرفه الاحتلال سابقا . فهاجموا مركزا عسكريا اسرائيليا في المخيم ، ثم بدأت الاضطرابات تنتقل الى بقية غزة .

وهكذا أشعلت ردود فعل الاحتلال النار وسط شعب لم يعد قادرا على تحمل وجود هذا الاحتلال واستمراره . وبينما الانتفاضة على أشدها في غزة ، بدأت الثورة تمتد لتشمل في الأيام التالية ، مدن وقرى الضفة الغربية والقدس ، ثم انتقلت التظاهرات وأشكال التضامن والتأييد الى عرب عام ١٩٤٨ ، أولا في الجامعات الاسرائيلية ، ثم أمام منزل اسحق شامير في ١٩٨٧/١٢/١٥ ثم الى قرى ومدن الجليل والمثلث في وسط اسرائيل .(٤٣)

وهكذا شكّل رد اسرائيل على الانتفاضة الشاملة التي بدأها الشعب ، بداية لإدخال كل المجتمع الفلسطيني في صراع شامل معه ، إذ سارع الجميع للنزول الى الشارع . ابناء الشعب وبناته ، الذين ينتمون الى منظمات العمل الفدائي والذين لا ينتمون .

ومنذ الأسبوع الأول ، بدأت الانتفاضة تدخل حيز التنظيم . فلا يمكن لانتفاضة عفوية ان تستمر دون أن تدخل حيز التنظيم . وبسرعة تبلور التحالف بين الاتجاه الاسلامي الناشئ حديثا والذي ازداد قوة منذ اواسط الثمانينات في غزة ، مع تنظيمات المقاومة المعروفة «فتح» ، وهي الأكبر (تضاعفت قوتها داخل الأرض المحتلة إبان الانتفاضة عشرات المرات) ، بالاضافة الى الجبهة الشعبية ، الجبهة الديمقراطية ، الحزب الشيوعي الفلسطيني . وقد جاء هذا التحالف بناء على علاقات نتجت عن مواجهات مشتركة ضد الاحتلال ، تبلورت خلال العام المنصرم . وقد نتج عن هذا التحالف تلقيح كل تيار للآخر . فساهم الاسلاميون ببلورة الزخم العاطفي المحصّن بالايمان ، بينما قدم الوطنيون خبراتهم الكبيرة المكتنزة على مر السنوات والمقرونة بالحماس الوطني .(٤٤)

وقد تبلورت آلية استمرار الانتفاضة الفلسطينية في داخل الارض المحتلة ، عندما بدأ التيار العفوي العام ، الذي صنع الانتفاضة وأمدّها بالطاقة ، يلتقي مع التيار المنظم . وبدأت تنمو حالة وحدة وتفاعل وتأثر وتأثير بين التيارين . أي بدأ التداخل يتبلور بين المنظمات الفلسطينية والمؤسسات الوطنية في الأرض المحتلة من جهة ، وحركة الشعب العفوية المعادية

للاحتلال من جهة أخرى .

والجدير بالذكر ، ان المنظمات الفلسطينية في داخل الأرض المحتلة ، كانت عند بدء الانتفاضة منتشرة في جميع المؤسسات ، من نقابات وصحافة واتحادات وجامعات ومدارس . كما أن كلاً منها امتلك اطارا سريا يمتهن العمل المسلّح . وامتلكت هذه التنظيمات في الوقت نفسه أطراً علنية معروفة لا علاقة لها بالعمل المسلح . إطر تمتهن العمل الشعبي السياسي وتتصرف كحزب سياسي ، فتقوم باحياء المناسبات الوطنية ، وتدعو الى التظاهر والاضراب ، وتقاوم الاحتلال بالوسائل العلنية المتاحة . ونادرا ما كان يدخل طالب أو طالبة الى جامعة بيرزيت او جامعة النجاح (مثلا) دون أن ينتمي سياسيا الى احد التيارات السياسية الفلسطينية .(٤٥) وامتلكت هذه التنظيمات (الأحزاب) أطراً شعبية منتشرة في جميع الأحياء والقرى . فلحركة فتح اطارها الشعبي المعروف (الشبيبة) (٤٦) ، وللجبهة الشعبية اطارها (لجان العمل) ، وللحزب الشيوعي اطاره ، وللجبهة الديمقراطية اطارها ايضا . هذا البناء العام والانتشار التنظيمي ذو الجذور الشعبية في غزة والضفة الغربية ، داخل المخيم والقرية والمدينة اصبح أساسيا لاستمرار الانتفاضة . لقد تبلورت هذه الوسائل الشعبية الجديدة بعد سنوات من الأعمال العسكرية داخل الأرض المحتلة . فمنذ أواخر السبعينات ، بدأت المنظمات الفلسطينية باتباع هذا الأسلوب . ان هذه المؤسسات «الحزبية» المرتبطة بمنظمة التحرير والتي عبرت عن نفسها من خلال صيغة القيادة الموحدة للانتفاضة ، أعلنت عن وجودها عبر بيانها الأول في ٤ كانون الثاني / يناير ١٩٨٨ .

ولكن عندما أنتبه العدو الى بدايات الفعل المنظّم ، بدأ سياسة هدفها فصل السمك عن الماء . فسياسة تجويع السكان في المخيمات ، التي بدأت في أوائل كانون الثاني / يناير ١٩٨٨ ، كانت محاولة ذكية من جانب اسرائيل لعزل القوى المنظمة عن السكان . وجاءت ردة فعل عفوية من السكان القاطنين حول المخيمات الفلسطينية في غزة . اذ فتحوا كل مزارعهم وأراضيهم الزراعية لأبناء المخيمات المحاصرة . وجاءت ردة فعل ثانية ، اذ تألفت أولاً في الناصرة (عرب عام ١٩٤٨) ، ثم في بقية المناطق المحتلة ، لجان شعبية أرسلت للمخيمات المحاصرة الغذاء والدواء والحاجيات الأساسية .(٤٧) وعندها عرف ابناء المخيمات أن التضحيات هذه المرة ستقدم من جميع أبناء الشعب لا من فقرائه فقط . هكذا استمروا في الانتفاضة ، وفشلت خطة الاحتلال في الايقاع بين الفعل الشعبي العفوي والفعل التنظيمي الثوري .

لهذا ، يمكن الجزم بأن انضمام التجار وأبناء الطبقة الوسطى الى صفوف الانتفاضة اعطاها زخما أساسيا مهما . وقد جاءت هذه المساهمة لتعبر عن طبيعة هذه الثورة الوطنية . فهي

تعبير حي عن كل الشعب بجميع طوائفه وطبقاته وفئاته . انها انتفاضة للطلاب والعمال والفلاحين والتجار والمسيحيين والمسلمين والنساء والاطفال .(٤٨) وانها أيضا ثورة تلعب فيها المرأة دورا كبيرا . ان هذا التداخل والتلاقي بين كل فئات المجتمع الفلسطيني في الداخل ، عبر عن نمط متقدم من العمل السياسي .

واللجان الشعبية التي تكوّنت ، اصبحت أساسية لاستمرار الانتفاضة . فقد أصبح المجتمع الفلسطيني ، عبر تفاعل اللجان الشعبية مع جميع المؤسسات والأطر والهيئات ، مجتمعا شبه منظم على الصعيد الأفقي والعامودي ، وقد ساهم هذا الامر بادامة الانتفاضة في زخمها الاساسي لشهور طويله . اذ تطورت لجان للعمل التعبوي والاعلامي ، ولجان للاشتباك مع قوات الاحتلال(أي لتنظيم الاضراب والتظاهر ورشق الحجارة) ، ولجان للاعتناء بأسر الشهداء وبأسرى الانتفاضة وأسرهم . وهذه لجان شعبية الطابع واسعة العضوية ، ولها أطر وهيئات ، وتستند الى المبادرة والعمل الطوعي . فقادتها برزوا ضمن الحي والمخيم بناء على ممارستهم للمهام المرتبطة باللجان . والجدير بالذكر أن صيغة هذه اللجان ، المستندة الى عمل شعبي وعضوية واسعة النطاق ، تسمح لها بإيصال قادة جدد كلما نجح الاحتلال بأسر القادة السابقين . فهذه لجان متجددة بقيادتها وبأطرها وبطريقة عملها . واللجان المتخصصة بالاسعاف والتمريض (على سبيل المثال) ، بإمكانها أن تضم كل من يريد المساهمة في هذا المجال .

وخوفا من إجهاض الانتفاضة قرر الاطار «المنظم» أن يستبق محاولات جديدة من قوات الاحتلال لضرب بعدها الشعبي العفوي . فبينما وقع الضغط الاسرائيلي في البداية على غزة ، تحول فيما بعد نحو مناطق أخرى . لا شك ان في هذا جانبا يتعلق بمنطق الأحداث . لكن هناك جانبا يرتبط بحاجة الأطر المنظمة لاشراك الجميع ولتوزيع الجهد ضمن الممكن . لهذا وجدنا أن بؤر الانتفاضة الملتهبة انتقلت من مدينة الى أخرى ، ومن المدينة الى الريف ، ثم الى الجوامع ، ومن قطاع الى آخر ، ومن جبهة الى أخرى . بل من الملاحظ ان ضعف الانتفاضة الناتج عن حملات الاعتقال الشاملة في احدى المناطق ، كان يتحول الى قوة في منطقة اخرى . بدا واضحا ان المجتمع اراد ان تدوم الانتفاضة لاطول فترة ممكنه ، لتحدث اكبر تداعيات سياسية لصالح استقلال وتحرر المجتمع الفلسطيني ، وفي الوقت نفسه لصالح اقرار تسويه عادلة . وقد تبلور وعي جماعي يتعلق بآلية الانتفاضة ، اذ سعت هذه الارادة الجماعية المرتبطة بالقيادة الموحدة للانتفاضة ، ليكون يوم الجمعة من كل أسبوع بداية لأسبوع نضالي جديد . اذ ان تخصيص يوم محدد للشهداء وآخر للغضب الشعبي ، وثالث للاحتفال

بذكرى الكرامة ويوم الأرض ، وآخر للاضراب العام ولاستقالات أفراد الشرطة ، أو لزيادة الانتاج وتحسين الزراعة ، يعتبر أساسياً لآلية استمرار الانتفاضة . كما سعت الانتفاضة الى خلق التوازن المطلوب بين النضال وأشكاله ، وبين حاجات الشعب الاقتصادية . فعبر دعوة الشعب لتخصيص ساعات أو أيام محددة للانتاج الزراعي والصناعي ، لتربية الدواجن وزراعة قطع الأرض الصغيرة ، لفتح المحلات ودعم المناطق المنكوبة ، لفتح المدارس والجامعات او اغلاقها ، ثم تخصيص ساعات أو أيام للكفاح والنضال وإقامة المتاريس الجماعية المعبّرة عن قوة روح المجتمع المقاوم للاحتلال ، خلقت الانتفاضة ذلك التوازن الضروري بين استمرار الثورة واستمرار الحياة .

اهداف الانتفاضة

لقد صيغت مطالب الانتفاضة يوم ١٩٨٨/١/١٤ في اجتماع شاركت به جميع المؤسسات الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة . وقد تبلورت واتضحت هذه المطالب والأهداف والشعارات عبر بيانات القيادة الموحدة للانتفاضة . ويمكن القول ان هذه الاهداف المعلنة مثلت لحظة تاريخية عفوية في مدى توضيحها للاهداف العملية للانتفاضة بصفتها تقترب من نماذج التحرر الوطني العربي في مواجهة استعمار اجنبي . ان أي قراءة لشعارات الانتفاضة كما لبيانات القيادة الموحدة ، تؤكد لنا أن الهدف المرحلي المركزي للانتفاضة ، دولة فلسطينية مستقلة تكون عاصمتها القدس . لهذا فالانتفاضة ترجمت من خلال طرحها برنامج منظمة التحرير الفلسطينية المعلن منذ عام ١٩٧٤ . كما اكدت جميع البيانات التمسك بمنظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للفلسطينيين ، وذلك انطلاقا من ان هذا الاطار السياسي والتاريخي والرمزي(منظمة التحرير) يحوي في طياته الشرعية السياسية والدولية التي تقوي فرص التحرر والاستقلال .

لكن للوصول الى هذا الهدف الصعب المنال ، وكما يؤكد بيان المؤسسات الوطنية الفلسطنية و القيادة الموحدة ، وشعارات الانتفاضة اليومية ، أي لكي تعبر الانتفاضة نحو الهدف المركزي : دولة مستقلة ، هناك أهداف أصغر منه (مرحلية أكثر) تحوي تبدلات مهمة وتراكمية لا بد من انجازها . وهذه الأهداف الصغرى التي عبرت عنها بيانات الانتفاضة الاولى - كانت تدور حول (على سبيل المثال) :

١ - سحب الجيش الاسرائيلي من المدن والقرى والمخيمات .

٢ - جلب قوات الأمم المتحدة للحلول مكان مواقع الجيش الاسرائيلي لكسر احتكار اسرائيل للمنطقة .
٣ - اطلاق سراح جميع سجناء الانتفاضة .
٤ - إلغاء قانون الطواريء .
٥ - عمل انتخابات محلية شبيهة بانتخابات البلديات عام ١٩٧٦ .
٦ - إلغاء القيود الاقتصادية الاسرائيلية التي تحد من التنمية المحلية .
٧ - إيقاف الاستيطان .
٨ - كل هذا وصولاً الى فرض المؤتمر الدولي الفاعل .

لقد جاءت مطالب الانتفاضة تتويجا لحركة التحرر الوطنية الفلسطينية المطالبة بالاستقلال والسيادة فوق اي جزء متوفر من أرضها . وتعبّر الانتفاضة في مطالبها ووحدة موقفها ، عن فعل الضحية التي وقفت على مدى مائة عام من الصراع ، لترى رقعة الارض تصغر ، وحالة اللجوء تتحول الى واقع ، والدولة الصهيونية تمتد وترسخ شرعيتها . ووجدت الضحية الفلسطينية ، أن الحركة الصهيونية تلاحقها أيضا في الخارج . فعبر الملاحقة المستمرة من الأردن الى لبنان ، ومن الجنوب الى صبرا وشاتيلا وبيروت ، ومن هناك إلى تونس ، اصبح من الواضح انه بالحق وحده لا تنتصر القضايا العادلة . وما أكثر القضايا العادلة المنسية والخاسرة . لهذا اصبح من البديهي ان يكون هناك شعار وأسلوب عمل ومراحل وفهم دقيق لموازين القوى والتحالفات ومعرفة بالاطار المحلي والاقليمي والدولي . وان ذلك لا يغني عن العمل الدؤوب ، كشرط مهم لتحويل البكاء والحزن والألم والمأساه ، الى فعل جماعي متفائل يعبر عن اصرار المجتمع المكبل بالاضطهاد على صياغة حاضره ومستقبله على وفق أسس انسانية وديمقراطيه ومستقلة .

إن الهدف المرحلي الملّخص بالدولة الفلسطينية ، أساسي للمشروع التحرري الفلسطيني والعربي . فكما أقامت اسرائيل كيانها وحولّته الى آلة سياسية - اقتصادية - عسكرية - فكرية نحو الاستيطان والتوسع ، بأمكان الحركة الوطنية الفلسطينية تحويل كيانها الواقع عليه الاحتلال والهائم في الشتات الى دولة تتحول الى آلة لبناء مستقبل افضل ، ولتحصيل المزيد من الحقوق الوطنية الفلسطينية والعربية في فلسطين . فالدولة لن تحل كل مشاكل الفلسطينيين ، لكنها ستكون بداية مهمة نحو حل الكثير من مشاكل الهوية والاستقلال والتحرر والديمقراطية والحرية والانسانية ومشكلات التنقل والشتات والأمان السياسي والاقتصادي والاجتماعي .(٤٩)

وكما أن الدولة تعني الكثير للفلسطينيين ، فلها اكبرالمعاني عربيا . فقيامها امتداد للصراع العربي – الصهيوني وآفاقه . انها أساسية لالغاء فكرة آرييل شارون والليكود القائلة بأن «الدولة الفلسطينية قائمة أو يجب ان تقوم في الأردن» ، وهي اساسيه ايضا في الحد من منطق اسرائيل الكبرى والمتوسعة . فنجاح المشروع العربي نحو الاستقلال الفلسطيني سيمنع تحويل القضية الفلسطينية الى همّ عربي – عربي والى صراع عربي – عربي وبالتالي اخراجها من باب المزايدات العربية العربية .

ان مشروع الدولة الفلسطينية يحوي آلية للمستقبل تحد من طموحات اسرائيل وتوسعها . إنه نذير قيام اسرائيل الصغرى التي تحيا في حدود واضحة معترف بها . فهو المشروع الذي قد يعيد للعرب بعضاً من وزنهم في المنظومة الدولية ، إذ قد يشكل بداية لاعادة صياغة علاقة العرب مع أنفسهم ومع العالم .

لهذا ، ففي شعارات واساليب واهداف الانتفاضة تحديا مهما لبنية التفكير السياسي العربي ازاء المسألة الفلسطينية . فالانتفاضة حملت في ثناياها آلية تحول الشعار الى واقع ، والواقع الى تحولات وتغيرات في العلاقات في البنى وفي الاذهان . فالانتفاضة لم تقم لتطبيق شعاراتنا التاريخية : «الوحدة طريق فلسطين» ، «فلسطين طريق الوحدة» ، «تحرير الأرض من البحر للنهر» ، «تصفية الوجود الصهيوني» ، « الثورة العربية » وما شابه . وهي لم تتخل عن المستقبل البعيد . فكل الشعارات مهمة وجميلة ، وبإمكاننا أن نضيف اليها شعارات أكثر جمالاً وبريقا . ولكن الانتفاضة لم تتعامل (كما نتعامل جميعا مع أطروحاتنا السياسية وشعاراتنا) مع ما لا تملك تقريره في هذه المرحلة ، ولم تطرح ما هو فوق قدراتها الفعلية (قدرات هذا الجيل) وقدرات العرب والفلسطينيين في هذه المرحلة التاريخية . فعندما كانت تدعو الشعب الى تقديم التضحيات ، وتحمل الخسائر ، فهي كانت تعمل هذا ضمن شعارات علمية لها مصداقية شعبية ، ممكنة التحقيق ، ملموسة ، ترتبط بواقع السكان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي اليومي ، لا بعواطفهم وخسائرهم التاريخية وامانيهم واحلامهم فقط . هذا هو الفرق بين الثورة العلمية من ناحية ، والمغامرة وردة الفعل العفوية من ناحية أخرى . بهذا تكون الانتفاضة قد أضافت على الخطاب السياسي العربي بعدا جديدا(٥٠)

وقد تكون الانتفاضة اضافة الى انها اعادت تشكيل علاقه الفلسطينيين بمحتليهم لصالح تحررهم واستقلالهم ، انها ايضا دخلت في صلب الحوار والصراع القائم بين المجتمع والدولة في البلاد العربيه . فعبر المناخ الذي صنعته ، ساهمت في خلق المزيد من الحاجة للجرأة السياسية

في العمل السياسي العربي اليومي . اذ ساهمت بطبيعة الحال في اثارة الاسئلة حول علاقة المجتمع العربي مع دوله وحكوماته التي تسيطر وتهيمن ولا تسأل او تناقش في امر من امورها . وليس من الغريب ان تترافق انتفاضة الضفة وغزه بانتفاضة صغيرة وهامة في الاردن حول الحقوق والديمقراطية ، او اخرى في الجزائر عام ١٩٨٨ . (٥١)

الانتفاضة والواقع الصعب : تراجعات وتحديات

ولكن وعلى الرغم من عمق التحول وشمولية الانتفاضة ، تبقى الحقيقة ان احتلال اسرائيل لفلسطين كان قاسيا ومنظما . فهو احتلال استند الى معرفة الصهيونية بتجارب ألوف السنين من الاضطهاد وأشكال المقاومة التي عرفها اليهود . أنه احتلال استند أيضا الى قدرة الحركة الصهيونية ، في توظيف خبرات اليهود وابداعاتهم الادارية والعلمية ، لخدمة قهر المجتمع الفلسطيني . ولهذا ، بقيت المسافة الواقعة بين الاهداف والقيود ، وبين المستقبل وحرياته ، من الحجم الذي يتطلب عملا طويلا وقاسيا .

و لسوء حظ العرب والفلسطينيين ، تحرك صدام حسين في عدوانه على دولة الكويت ، ليعيد تشكيل كل الاوراق في اطار جديد . فقد توحد الاسرائيليون بعد ان انقسموا في ظل الانتفاضة ، لمواجهة التمدد العراقي الجديد ، كما اصطفت منظمة التحرير في المكان الخطأ والزمان الخطأ ،فبدت في موقع اقرب الى العراق والى مغامرته ، مما افقدها الكثير من التعاطف الشعبي والرسمي الخليجي والعربي . وفي ظل كل هذا عانى العالم العربي من اسوأ انقسام في تاريخه الحديث ، واصبح الحشد لتحرير الكويت ، هو عنوان المرحلة التي بدأت بعد مرور اكثر من عامين ونصف على بدأ الانتفاضة . هكذا في اوج حرب تحرير الكويت ، وفي ظل المغامرة العراقيه ، وفي اطار سقوط الاتحاد السوفياتي المدوي ، كانت مرحلة جديدة يسودها التشوش والتخوف تنشأ في العلاقات العربية - العربيه . لقد قادت مغامرة صدام حسين ، الى تكسير اية اسس لقوة عربيه اقتصادية او سياسية او ثقافية او عسكرية . هكذا مرة واحدة استخدم العراق كل القضايا العربيه وعلى رأسها القضية الفلسطينيه ، استخداما رخيصا نتج عنه تراجع كبير في وضع القضية الفلسطينية ، وفقدان للاجماع الذي تمتعت به الانتفاضة في الضمير الخليجي والعربي العام .

وبعد غزو العراق للكويت ، ومع استمرار الانتفاضة ، دون ان يتجسد افق واضح لحل

سياسي سلمي متفق عليه بدأت الاوضاع الفلسطينية في الاراضي المحتلة تتحول الى نقيضها . فمع مرور الوقت ، كان الثمن الاجتماعي والاقتصادي والنفسي والاسري ، الذي يدفعه المجتمع الفلسطيني للاستمرار في الانتفاضة يتعدى الوصف . فعلى مدى سنوات الانتفاضة ، تعطلت المدارس مما أنتج اجيالاً غير متعلمه لا تجيد القراءة والكتابة . كما تعطلت الجامعات مما اضاع مستقبل جيل كامل من الطلبه . وكذلك اغلقت المتاجر والمحلات والاسواق ، مما اساء للقدرات الاقتصادية للسكان . وبرزت قوى عديدة من ممارسي العمل المسلح ، ممن اخذوا القانون بيدهم فأمعنوا في تصفية مئات من الشبان الذين يعتقدون وفق تصوراتهم الخاصة انهم متعاملين مع العدو . وهؤلاء الذين ربما حقدوا على المجتمع الذي بدأينتقد مغالاتهم في تعطيل الحياة العامه لقاء استمرار المواجهة ، امعنوا في الوقت نفسه في ممارسة حالة تخويف للمجتمع ، خاصة في مواجهة اية احتجاجات سكانية على الاضرابات الطويلة والاغلاق شبه الدائم والممل والمتكرر للاسواق . هكذا بدأت العقليه التي سادت الانتفاضة في المرحلة الاولى والتي تميزت بالتوازن والدقه والربط بين الصمود والجهد ، بالتراجع لصالح عقلية جيل جديد خرج الى قيادة الاحداث ، عندما اعتقلت اسرائيل كل القيادات المجربة وصولا للصف السادس والسابع . هكذا برز من بين شبان الانتفاضة ، الصغار الاقوى والاجرأ والاكثر قدرة على ممارسة التطرف بكل انواعه في مواجهة العدو كما وفي مواجهة المجتمع الذي يعتبرونه ذو نفس قصير متذبذب في مواجهة الاحتلال . لقد بدأ الشارع وبدأت الانتفاضة تحكم من قبل الشبان الصغار والقادة الصغار المطاردين في الجبال او المختبئين في احياء المدن والمخيمات المكتظة . ولم يعد احد في المجتمع الاوسع قادر على ابداء رأي اخر في الاسلوب والممارسة . ان تهم التعاون مع الاحتلال ، بدأت تتحول إلى حالة من العصبية الثأرية العائلية مما انتج تشققات عائلية كبيرة . كما ان الحصار الاقتصادي الدائم ، وحالات منع التجول الدائمة من جانب اسرائيل ، دفعت قطاعات من المجتمع للانغلاق النفسي والديني والى التزمت والتطرف . كما ان قطاع المرأة الذي شهد تطورا هاما في البدايه بدأ يتراجع .

ورغم كل هذا ، استمرت الانتفاضة في تحديها للاحتلال في كل المراحل ، وبدأت منذ ديسمبر ١٩٩١ تستمر كحاضن متعدد الابعاد يفرض نفسه على الحدث السياسي وعلى المفاوضات بين اسرائيل ومنظمة التحرير . وبالرغم من ان الانتفاضة فقدت بعدها التنظيمي والشعبي الذي برز في شهورها الاولى وتميزت به ، الا ان عنفها ومقدرتها على غلق الكثير من الاحياء والقرى في وجه اسرائيل استمر . واستمر معها بالتأكيد اثرها الاهم على السياسة الاسرائيلية : ضرورة ايجاد حل سلمي معترف به بين الفلسطينيين والاسرائيليين يقوم على

الاعتراف المتبادل والانسحاب واقرار الحقوق .

هوامش الفصل الثالث

١- انظر حول أحداث عام ١٩٨٢ وآثارها ، ووضع الحركة الوطنية الفلسطينية قبل تلك الاحداث :
Rashid Khalidi, Under Siege: P.L.O. Decision Making During the 1982 War (New York: Columbia University Press, 1986); Emil D. Sahliyeh, The PLO after the Lebanon War (Boulder Colo.: Westview Press, 1986); Naseer H. Aruri, "Dialectics of Dispossession," in : Naseer H. Aruri, ed., Occupation: Israel over Palestine (Belmont: Association of Arab-American University Graduates, Inc. 1983), pp.3-27, See also Helena Cobban, The Palestinian Liberation Organization, People, Power and Politics (Cambridge, Mass.:Cambridge University Press, 1984).

٢ - "Nablus under Curfew," Al-Fajr (Palesinian Weekly), (2 August 1985), p. 1.

٣ - Maher Abukhater, "Army Turns Territories into War Zone," Al-Fajr (13 September 1985), p. 1.

٤ - أنظر دراسة جويل بينين القيمة حول هذه التطورات .
Joel Benin, "Marching toward Civil War," MERIP Reports, vol. 15 , nos. 8-9 (October-December 1985), pp. 3-6.

٥ - Baher Ashhab, "Confrontation Characterizes Week of Protest, " Al-Fajr (20 february 1987), pp. 1 and15.

٦ - انظر دراسة نصير عاروري الشاملة حول الموضوع :
Aruri, "dialectics of Dispossesion, " pp. 3-27

انظر ايضا :
Moshe Ma'oz, Palestinian Leadership on the West Bank: The Changing Role of the Mayors under Jordan and Israel (London :
Frank Cass, 1984).

وعن الفلسطينيين في أراضي عام ١٩٤٨ ، انظر :
Ian Steven Lustick, Arabs in the Jewish State: A Study in the Effective control of a Minority Population (Austin: University of Texas Press 1980); Elia T. Zureik, Palestinians in Israel: Study in Internal Colonialism (London: Routledge an Kegan Paul 1979).

٧ - Khalil Touma, "Protest Rage throughout Occupied Areas," Al-Fajr (18 October 1987), pp. 1-2, and "Israel Adopts Harsher Policy toward the Gaza Strip," Al-Fajr (25 October 1987), pp.1 and 15.

٨ - المصدر نفسه .

٩ - انظر مقابلة للكاتب مع قادمين من الأرض المحتلة في الكويت (شباط/فبراير ١٩٨٨) .

١٠- انظر :

Sara Roy "The Gaza Strip: A Case of Economic De-Development," Journal of Palestine Studies, Vol.17, no.1 (Autumn 1987), pp.56-88; Sara Roy, The Gaza Strip: A Demographic, Economec, Social and Legal Survey (Boulder, Colo: Westview Press, 1986); Ann Mosely Lesch, "Gaza: Forgotten Corner of Palestine," Journal of Palestine Studies, vol.15 no.1 (Autumn 1985), pp.43-61; Meron Venvenisti, The West Bank Data Project: A Survey of Israel's Politics (Washington, D.C.: American Enterprise Institute for Public Policy Research, 1984) ; Meron Benvenisti, Ziad Abu-Zayed and Danny Rubinstein, The West Bank Handbook: A Political Lexicon (Boulder Colo.: Westview Press, 1986).

١١- انظر :

Sara Graham-Brown, "The Economic Consequences of the Occupation, " in: Aruri, ed. Occupation: Israel over Palestine, pp.201-204, and also Roy, The Gaza Strip: A Demographic, Economic, Social and Legal Survey, p.70.

١٢- Joost R. Hiltermann, "The Emerging Trade Union Movement in the West Bank," MERIP Reports, vol.15, no 8-9 (October-December 1985), p.27

١٣- Benvenisti, Abu-Zayed and Rubinstein, The West Bank Handbook: A Political Lexicon, pp.37-40, and also Raja Shehadeh, Occupier's Law:
Israel and the West Bank (Washington, D.C.: Institute of
Palestine Studies, 1985).

١٤- Benvenisti, Abu-Zayed and Rubinstein, Ibid., pp.4-6.

١٥- المصدر نفسه ص ٦٣ - ٦٥ .

١٦- المصدر نفسه ص ٦٢ .

١٧- المصدر نفسه ص ١-٤ .

١٨- انظر :

Benvenisti, The West Bank Data Project: A Surtvey of Israel's Politics.

١٩-انظر :

Dov Shinar, Palestinian Voices: Communication and Nation Building in The West Bank (Boulder, Colo.: Lynne Rienner Publishers, 1987).

٢٠- Raja Shehadeh, The Third Way: A Journal of Life in the West Bank (London: Quartet Books, 1982).

٢١- Shinar, Ibid., pp. 9-10.

٢٢- المصدر نفسه ، ص ١٠٢-١١٠ . ومن أجل معلومات اضافية عن الجامعات في الأرض المحتلة ، أنظر :

Sara Graham-Brown, Education, Repression and Liberation: Palestinians (London: World University Service, 1984), pp.82-105.

٢٣- Sara Graham-Brown, Ibid., p.82.

٢٤- Shinar, Palestinian Voices: Communication and Nation Buildig in the West Bank, p.105.

٢٥- Graham-Brown, Ibid., pp. 62-81.

٢٦- Shinar, Ibid., p.81.

٢٧- انظر حول نمو النقابات العمالية في الأرض المحتلة :

Hiltermann, "The Emerging Trade Union Movement in the West Bank," pp.26-31.

انظر ايضا حول الصحافة والاعلام والجمعيات المهنية : Shinar, Ibid.

٢٨- Benvenisti, Abu-Zayed and Rubinstein, The West Bnk Handbook: A Political Lexicon.

٢٩- المصدر نفسه ، ص ١٨٤ -١٨٨ .

٣٠- Roy, The Gaza Strip: A Demographic Economic, Social and Legal Survey, P.10.

٣١- مقابلات وحوارات مع سجناء سابقين في الكويت والولايات المتحدة الامريكية (١٩٨٤ ، ١٩٨٥ و ١٩٨٦) .

٣٢- مقابلات متفرقة مع عاملين في الحركة الوطنية الفلسطينية في الداخل (الكويت ، ربيع ١٩٨٨) .

٣٣- "Toward a Theory of Revolution," in : James C. Davies, When Men Revolt and Why: A Reader in Political Violence and Revolution (New York: Free Press, 1971), pp.134-147.

٣٤- Said Al-Ghazali, "No Hope from Amman. Says the Public," (Al-Fajr), (8 November 1987). p.1.

٣٥- Daoud Kuttab, "Jordanian Plan to Develop Traditional Sectors," Al-Fajr (8 August 1986), pp. 8-9.

٣٦- Edward W. Said, The Question of Palestine (London: Routledge; New York: Times Books, 1979).

٣٧- انظر : Al-Fajr (4 July 1986).

٣٨- Graham-Brown, Education, Repression and Liberation: Palestinians, pp. 99-101.

٣٩- Yehuda Litani, "West Bank Gazan Workers Need Real Solution toUnemployment Woes," Al-Fajr (26 October 1984), p.16.

٤٠- "Demonstrations Sweep Occupied Territories," Al-Fajr (13 December 1987), p.1.

٤١- المصدر نفسه

٤٢- المصدر نفسه

٤٣- "Solidarity Comes from Inside Green Line," Al-Fajr (13 December 1987), pp.1 and 15.

٤٤- Daoud Kuttab, "The Next Steps in the Uprising" Middle East International (23 January 1988),p.5.

٤٥- مقابلات وحوارات مع طلبة وأستاذة من جامعة بيرزيت (الولايات المتحدة الامريكية ، ١٩٨٥ - ١٩٨٧) .

٤٦- انظر :

Daoud Kuttab , "The Palestinan's Unified Command," Middle East International February 1988), pp. 10-11.

٤٧- مقابلات مع عاملين في الحركة الوطنية الفلسطينية إبان زيارات لهم خارج الأرض المحتلة (الكويت ، ربيع ١٩٨٨) .

٤٨- عبر لقاءات مع شخصيات قادمة من الارض المحتلة تم التأكد من هذه الجوانب (الكويت ، ربيع ١٩٨٨) .

٤٩- انظر حول الدولة الفلسطينية الدراسات التالية :

Alain Gresh, Towards an Independent Palestinian State (London: Zed books, 1983); Emile Nakhleh The West Bank and Gaza: Toward the Making of a Palestinian State (Washington, D.C.: American Enterprise Institute for Public Policy Reserach, 1979); Emile Nakhleh, ed., A Palestinian Agenda for the West Bank and Gaza (Washington, D.C.: American Enterprise Institute for Public Policy Reserach, 1980); Mark A . Heller, A Palestinian State: The Implica-

tions for Israel (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1983); Said, The Question of Palestine, pp. 115-238; Richard J. Ward, Don Peretz and Evan M. Wilson, The Palestine State: A Rational Approach (Port Washington; New York: Kennikot Press, 1977); Walid Khalidi, "Thinking of the Unthinkable: A Sovereign Palestinian State," Foreign Affairs, vol. 56, no.4 (July 1978), pp. 695-713 .

٥٠- لنقد الخطاب السياسي والقومي العربي التقليدي ، انظر : محمد عابد الجابري ، الخطاب العربي المعاصر : دراسة تحليلية نقدية (بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٥) ، ص ٧٧ - ١٣٦ .

٥١- انظر على سبيل المثال الدراسات التالية ، التي تعكس العلاقة بين الدولة والمجتمع في البلدان العربية : غسان سلامة ، المجتمع والدولة في المشرق العربي (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧) ؛ محمد عبدالباقي الهرماسي ، المجتمع والدولة في المغرب العربي (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧) ؛ وخلدون حسن النقيب ، المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية : من منظور مختلف (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٧) .

الفصل الرابع:
السياسة الاسرائيلية وصراع التيارات *

* نشر هذا الفصل في صيغته الاوليه في مجلة العلوم الاجتماعية ، ١٨ (صيف ، ١٩٩٠) ٤٩-٨٢ . وقد ادخلنا عليه تعديلات عديدة ، كما تمت اضافة اجزاء جديدة تغطي الفترة منذ عام ١٩٩٠ بما فيها الانتخابات الاسرائيليه ١٩٩٢ ، ١٩٩٦ .

إن بلورة تصورات متعمقة حول السياسة الاسرائيلية ينطلق أساسا من القناعة العربية بأن الصراع مع اسرائيل لم يعد مطلقا عدميا يحسم بانقضاض الجيوش السريع . بل من الواضح أن العرب سيتعايشون الان وعلى مدى طويل مع اسرائيل ، ولكنهم بنفس الوقت سوف يتصارعون بوسائل الاقتصاد والتنافس . فاسرائيل في اواخر السبعينات عقدت سلاما ، مع اكبر واهم دولة عربية .

وفي الثمانينات غزت لبنان بعد ان جاء الليكود الى السلطة ، اذ امعنت في سياسة هدفها تفتيت العرب وضربهم . وسعت في الثمانينات ايضا الى ابتلاع الاراضي المحتلة عبر تهويدها واقتطاع اجزاء كبيرة منها من أجل الاستيطان ، كما انها مارست تنكيلا مستمرا بحق الشعب الفلسطيني .

ونحن في التسعينات وفي إطار بدء مرحلة التعايش البعيد الأمد نجد انها عقدت سلاما مع الفلسطينيين والاردنيين وانها ستعقد في المستقبل القريب سلاما ايضا مع السوريين واللبنانيين وبقية العرب .

ولهذا أصبح مطلوبا منا أن نعرف عن أحزاب اسرائيل وقواها السياسية واقتصادها وإنتخاباتها وعن القوى المؤهلة للعب دور قيادي فيها . ومن الطبيعي أن نتساءل ، هل اسرائيل مجتمع واحد أم فيها ألوان سياسية مختلفة؟ هل يتضمن هذا الكيان قوى سلام الى جانب قوى الحرب؟ ما قصة اليهود الشرقيين والغربيين ومادور اليهود المتدينين؟ هل هناك نظام

سياسي متكامل في اسرائيل مثله مثل الانظمة السياسية في اي مكان اخر فيه يمين ويسار ، وفيه طبقات وطوائف ، خلافات واتفاقات ، أم أن هذا النظام حالة خاصة فيه بعد واحد؟

المرحلة الاولى :
الحزب الحاكم وبناء الدولة

تميز العقد الاول من عمر اسرائيل ، الذي بدأ مع إعلان الدولة في أيار ١٩٤٨ بحكم الحزب الواحد (الماباي) ، وبسيطرة بن غوريون الكاملة على عملية صنع القرار. فالماباي(حزب أرض إسرائيل العمالي) هو الحزب الذي نجح تحت قيادة بن غوريون في مرحلة ماقبل اعلان الدولة ، باقامة مؤسسات دولة كاملة البنية . إذ نشأ نتيجة وحدة حزبين صغيرين هما أشدوت هافودا وهابويل هشزير العماليين اللذين نشآ في ظروف العمل في المستعمرات وعودة اليهود للعمل في الارض حسب التصور الصهيوني (١) . والماباي هو الحزب الذي قاد الحرب الاسرائيلية الاولى عبر قواته العسكرية الهاغانا ضد العرب .

وفي ظل حكم الماباي ، وعلى الاخص أبان المرحلة مابين ١٩٤٨-١٩٦٧ ، وضعت الاقلية العربية تحت الحكم العرفي حتى عام ١٩٦٦ ، كما وشرعت إسرائيل في عملية مصادرة اراضي اللاجئين الفلسطينيين . وكان هم الحزب الحاكم الحفاظ على الدولة ومنع اللاجئين الفلسطينين من العودة وذلك ضمن سياسة هدفها فرض الامر الواقع على العرب . وقد شكل سعي الدولة الاسرائيلية لجلب مئات الالوف من اليهود المهاجرين خاصة من البلاد العربية ، لكي يكونوا عمادا لجيشها الذي تنقصه الاعداد المقاتلة ، أحد اهم اسس الدولة في السنوات الاولى . كما تميزت الدولة في مرحلتها الاولى بغياب عناصر أساسية من الديمقراطية الغربية . فعلى سبيل المثال فرضت الرقابة العسكرية على المسرح والسينما إضافة لاقرار العديد من القوانين التي تحد من الحريات(٢) .

والمتفحص للسياسة الاسرائيلية منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧ يكتشف ان اليمين الاسرائيلي وخاصة حزب حيروت بزعامة مناحيم بيغن ، لم يكن له اي دور حقيقي في الحياة السياسية الاسرائيلية ، إذ لم يمتلك حزب حيروت اليميني في ذلك الوقت ما يسمح له بالتمايز عن حزب الماباي ، الذي نجح في التحكم بالقضية الوطنية عبر تمسكه بحدود حرب ١٩٤٨ ، وحدود اتفاقات رودوس لعام ١٩٤٩ . كما نجح الحزب في التشدد مع العرب حول جميع مطالبهم الخاصة باعادة اللاجئين . كما اتبع بن غوريون سياسة التحالف مع الغرب على

الصعيد الخارجي طوال فترة حكمه .

هذا ولقد تميز البنيان الحاكم في تلك الفترة ، بتحالف بن غوريون في الحكومة ، مع القوى السياسية الوسطية الاخرى التي إمتلكت بعض الاصوات في الكنيست . فقد تحالف مع الصهاينة العامين (General Zionists) (وهم من بواقي جهاز المؤسسات المدنية اليهودية التي نشأت تحت الحكم البريطاني) ومجموعات الليبراليين والمهنيين ، وتحالف مع حزب المابام اليساري بما في ذلك احد فروعه آهدوت هافودا . المهم ان حزب المابای استثنى من حكمه في ذلك الوقت ، حزبين هامشيين تواجدا في الكنيست وهما حزب حيروت اليميني بزعامة بيغن ، بالاضافة الى الشيوعيين .(٣)

لكن الظروف التي سبقت حرب ١٩٦٧ اتت بعوامل جديدة . فحزب المابای كان قد بدأ يواجه مصاعب سياسية داخلية ، ناتجة عن بداية رفض العديد من قواعد الحزب الصاعدة لسلطة بن غوريون المطلقة . ففي أزمة لافون التي تعود جذورها لعام ١٩٥٤ ، والتي فاقمت الخلافات بين قادة المابای عام١٩٦٠ ، كانت بداية التشققات في المابای ، وبداية ردة الفعل على سلطة بن غوريون المطلقة . بل نتج عن الازمة إستقالة بن غوريون من رئاسة الوزراء ، وخروج عدة قوى من المابای الحاكم ، وتحديد إنتخابات جديدة للكنيست قبل الموعد المحدد لها بسنتين . وقد نتج عن الانتخابات عام ١٩٦١ خسارة حزب المابای لخمسة مقاعد ، رغم إستمرار دوره القيادي بقيادة بن غوريون ، الذي عاد وإستقال نهائيا عام ١٩٦٣ .(٤) كما أدت التشققات في المابای الحاكم الى خروج بن غوريون عن المابای ومعه دايان وبيريز اللذان شكلا حزب رافي عام ١٩٦٥ . لكن بن غوريون لم يعد للحياة السياسية بعد إستقالته ، إذ أصبح دوره في حزب رافي ذي طبيعة معنوية .

كما ان الظروف التي سبقت حرب حزيران ١٩٦٧ ، اتت بحكومة للوحدة الوطنية بقيادة ليفي أشكول ، الذي خلف بن غوريون المستقيل عام ١٩٦٣ ، نتج عنها اعطاء قوة لتيارات اخرى على حساب حزب المابای . إذ لاول مرة منذ إنشاء الدولة يشارك في الحكم حزب حيروت اليميني عبر تحالف الغاهال . والمعروف ان الغاهال تحالف تكون من حزب حيروت إضافة لقوى ليبرالية نشأت في الستينات كردة فعل على سيطرة المابای على الهستدروت ، وإتباعه لسياسة رأسمالية الدولة ، وتهميشه لدور القطاع الخاص . فحزب حيروت سعى لان يتضمن برنامجه كل ما يتناقض مع المابای بما في ذلك على صعيد السياسة الاقتصادية ودور القطاع العام . وقد نجح الغاهال (الذي مهد لبروز تجمع الليكود عام ١٩٧٣) في تحصيل ٢٦ مقعدا في كنيست عام ١٩٦٥ .(٥) كما شارك مع المابای في تلك الفترة التي سبقت الحرب عام ١٩٦٧ حزب رافي

الذي سبق وإنشق عن الماباي . وكان هذا الامر قد فرض فرضا وعبر مفاوضات وضغوط على ليفي أشكول رئيس الوزراء . إن الحزب الحاكم (الماباي) إذن كان قد بدأ ، مع مطلع الستينات ، يواجه عناصر ضعف في قوته وإمكاناته السياسية . بل وسعيا للمحافظة على قوته و استمراره في الحكم سعى الماباي ، بعد حرب ١٩٦٧ ، للدخول في وحدة مع حزب رافي (دايان ، وبيريز من أهم اركانه) ، كما وتوحد مع احدوت هاعافودا(اليساري) ، لتشكل معا حزب العمل الاسرائيلي وذلك في يناير ١٩٦٨ . وقد تكون المعراخ (التحالف) عام ١٩٦٩ باضافة المابام وبعض القوى اليسارية الشبيهة له .(٦) لهذا السبب يطلق على العمل اسم حزب العمل اي الجزء الذي تكون عام ١٩٦٨ ، ويطلق عليه ايضا المعراخ (التحالف) ليعكس التحالف الاكبر في الكنيست الذي ضم قوى جديدة عام ١٩٦٩ . كما ويطلق على هذا التجمع اسم العمل دون الاشارة الى الحزب وبذلك المقصود جميع اطراف العمل .

حرب ١٩٦٧ وتجدد الصراع على الارض

شكلت حرب ١٩٦٧ نقطة تحول مركزية في السياسة الاسرائيلية ، إذ أن القوى السياسية والاجتهادات والاراء التي أطلقتها تلك الحرب اعادت فتح ملف حدود ومستقبل ودور إسرائيل . ومازالت القضايا التي أثيرت نتيجة لاحتلال إسرائيل لبقية فلسطين إضافة لاراض عربية أخرى ، متحكمة الى يومنا هذا بمصير الصراع العربي الصهيوني وبموقف إسرائيل من مسألة الارض والأمن .

إن ردة الفعل الاسرائيلية الاولى على الحرب ، مالت الى إستغلال الحرب كوسيلة لنيل السلام والاعتراف من العرب . فدايان انتظر المكالمة العربية التي لم تأته بخصوص السلام والاتفاق على صيغة ارض مقابل سلام . وتشير الادبيات حول تلك المرحلة الى أن السياسة الاسرائيلية بعد حرب ١٩٦٧ إستعدت لعقد صفقة سلام موسعة مع العرب ، رغم معارضة دايان (رافي) و(الغاهال) ، مقابل التراجع عن معظم الاراضي المحتلة (باستثناء القدس) وتعديلات على الحدود .(٧) بل وفي عام ١٩٦٩ حين جرت انتخابات الكنيست السابعة ، نظرت أغلبية الاحزاب الاسرائيلية ، الى الارض المحتلة بما في ذلك الجولان وسيناء كأوراق للمساومة لا كاراضي يمكن الاحتفاظ بها.(٨) اما بخصوص الرأى العام الاسرائيلي الذي يؤثر في القرار ، فقد مال بعد الحرب مباشرة لمبادلة الارض بالسلام على كل الجبهات . إي انها نظرت الى اغراءات السلام كحالة افضل من اغراءات الاحتفاظ بالاراضي في ظل استمرار

الحرب والصراع . (٩)

لكن افق الصراع هو الذي تحكم بالموقف ، فبينما كان الوضع العربي يستعد لمسح آثار الحرب عبر تبنيه للعمل الفدائي الفلسطيني ، وعبر اعلانه اللاءات العربية (لا للصلح ، لا للتفاوض ، لا للاعتراف) في مؤتمر الخرطوم ، بدأ الاسرائيليون بالتراجع عن استعدادهم للانسحاب . فالقول بالانسحاب كان لحظيا ومحكوما بسرعة وحجم الانتصار الذي فاجأ إسرائيل ، كما انه كان لحظيا لان الجانب العربي ايضا لم يكن مستعدا له وكان يفضل الاستعداد للمواجهة وتحرير الارض بالقوة . هنا بدأت القوى التي ترفض مبدأ الانسحاب ، داخل وخارج حزب وتجمع العمل الحاكم ، تنشط هي الاخرى بعد الحرب مما فاقم الخلافات في الساحة السياسية الاسرائيلية .(١٠) لهذا وجدت إسرائيل في خطة آلون خير بديل وحل وسط . فالخطة ركزت على التخلص من معظم السكان والاحتفاظ بجزء كبير من الارض إضافة لبقاء الجيش الاسرائيلي عند نهر الاردن . ان اطروحات هذه المدرسة هي التي اصبحت فيما بعد اساس سياسة العمل الحاكم .(١١)

نتج عن هذا الوضع سيطرة الجمود السياسي على تعامل الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة من ١٩٦٧ حتى حرب ١٩٧٣مع مسألة الارض والأمن والسلام . بل لولا هذا الجمود السياسي لما كانت حرب ١٩٧٣ ، التي سعى العرب عبرها لالغاء حالة اللاحرب واللاسلم التي عملت ضد مصلحتهم . فالحكومة التي حكمت اسرائيل من ١٩٦٧ حتى ١٩٧٠ بقيادة ليفي اشكول ثم غولدا مائير هي حكومة وحدة وطنية بمشاركة الغاهال(بيغن ونواة الليكود الذي أُنشىء عام ١٩٧٣) . وقد استمر هذا التحالف الحاكم قائما حتى عام ١٩٧٠حيث انسحب الغاهال بعد ذلك احتجاجا على موافقة الحكومة على خطة روجرز الثانية التي تضمنت و قفا لاطلاق النار في حرب الاستنزاف على جبهة قناة السويس مع مصر لمدة ٣ شهور(١٢) . ان مجرد الموافقة على مبادرة روجرز كانت كفيلة بخلق أزمة رغم ضعف الغاهال في ذلك الوقت . وقد ساهم هذا في خلق المزيد من التردد في الحكومة الاسرائيليه . بل منذ ذلك الوقت إتبعت الحكومة الاسرائيلية السياسة التي ستلتصق بالكثير من الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة ، التي مفادها اللاقرار والجمود في التعامل مع مستقبل الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ .(١٣) وهذا هو اللاقرار الذي شكل باستمرار ازمة دائمة في السياسة الاسرائيلية ، لانه يسمح للقوى الاسرائيلية الاكثر تطرفا ، والتي تتسرب في غياب القرار ، بالسيطرة على الموقف وفرض تصوراتها .

فعلى سبيل المثال سمحت سياسة اللاقرار الاسرائيلية بعد حرب ١٩٦٧ لموشى دايان ، الاكثر تشددا من بين أقطاب العمل الحاكم في ذلك الوقت ، ليصبح بعد حرب ١٩٦٧ ، الحاكم

الفعلي للاراضي المحتلة خاصة الضفة الغربية وقطاع غزة . إذ بدأ دايان بربط اسرائيل بالارض المحتلة عن طريق فتح الطرق الجديدة ووصل محطات الكهرباءالفلسطينية بالاسرائيلية . كما شجع على بناء المستعمرات من قبل تيارات حزب العمل في مناطق محددة للاستيطان . و دشن سياسة البناء الطموحة حول القدس العربية . ومن أهم اعمال دايان في هذا الاطار السماح للعمالة الفلسطينية تحت الاحتلال بالذهاب الى إسرائيل للعمل ، كما إنه بدأ سياسة الجسور المفتوحة التي سمحت لالوف العائلات من الارض المحتلة والشتات الفلسطيني بالخروج أو القدوم للزيارة .(١٤) وقد أدت الخلافات السياسية في حزب العمل الى تبلور الصراع الحاد بين جناح ابا إيبان الذي آمن باعادة الارض مقابل السلام ، وجناح دايان الذي كان يفضل بناء وقائع جديده في الاراضي المحتلة . وامام احتمال انسحاب دايان من حزب العمل قبل انتخابات ١٩٧٣ نتيجة الخلاف على هذه المسائل ، تبنى العمل سياسة اكثر تشددا تدور حول بناء المستعمرات وادخال الاراضي المحتلة في الاقتصاد الاسرائيلي بشكل أكثر فعالية .(١٥)

إن الجمود السياسي الاسرائيلي طبق نفس المعايير على دائرة الصراع مع الفلسطينيين . فبالرغم من التغيرات الكبيرة في الوضع الفلسطيني بعد حرب ١٩٦٧ من حيث نمو الهوية الوطنية ودور منظمة التحرير ، الا ان الحكومات الاسرائيلية لم تقر بهذا الوجود .(١٦) فقد إتسعت الاشتباكات بين المقاتلين الفلسطينيين والقوات الاسرائيلية على الجبهة الاردنية ثم اللبنانية ، كما وسعت القوات الاسرائيلية دائرة ردها على الحركة الوطنية الفلسطينية في الداخل والخارج لكن دون ان تعترف في ذلك الوقت باي وجود للشعب الفلسطيني ، لا في اطار سياسي او حتى إجتماعي . ومن أكثر التصريحات شهرة ذلك الذي نقلته وسائل الاعلام عن غولدا مائير والذي مفاده أن شيئا أسمه الفلسطينيون لا وجود له .

إن نمو اليمين الشعبي وسط حالة اللاقرار وغياب التفكير الاستراتيجي في إسرائيل ، وتحول الارض المحتلة عام ١٩٦٧ الى سلعة في سوق الخلافات والمساومات الاسرائيلية التكتيكية ، كان الثمن الكبير الذي بدأ يدفعه العمل الحاكم . ان هذا التيار اليميني كان قادراً على تجاوز حزب العمل ومواقفه البراغماتية اللحظية . وقد ربط هذا التيار بين النظرة الامنية من جهة ، والمسألة الدينية التوراتية الايديولوجية من جهة اخرى . اذ برز من يقول بارض اسرائيل الكبرى التي تشمل جميع مناطق الارض المحتلة عام ١٩٦٧ . وشكل قلب هذا التيار حركة سميت في حينها "حركة ارض اسرائيل" .(١٧) وكانت هذه الحركة خليطاً من عدة عناصر وسطية ويسارية ساهمت سياسة الدولة المتذبذبة تجاه الاراضي في تحويلها نحو اليمين والتعصب . وهي ايضا مكونة من عناصر دينية ، وعناصر متعصبة جغرافيا ونفسيا لقوة وعظمة

اسرائيل ، بالاضافة لجذبها الافراد الذين يؤمنون بعدم امكانية إقامة التعايش و السلام مع العرب ، وذلك لرفض العرب لاي تعايش مع اليهود لاسباب دينيه وسياسيه وعقائديه . هؤلاء امنوا بالصراع الابدي وان المعركة مع العرب هي معركة مفتوحة .(١٨)

ولقد أثرت ايضا قضايا دينية في بدايات نمو اليمين . فعلى سبيل المثال كان الحاخام زفي كوك يحاضر أمام طلبته قبل حرب ١٩٦٧ بثلاثة أسابيع قائلا بإنهم سيشهدون في حياتهم وحدة أرض إسرائيل . وحينما وقعت الحرب ، تحول النصر الاسرائيلي الى نبوءه . وبدأ هؤلاء الطلبة يتحولون لنواة حركة الاستيطان المتطرفة في الارض المحتلة . واصبح الحاخام كوك ملهم هذه الحركة .(١٩) لقد رأت هذه المجموعات في النصر الاسرائيلي عبورا جديدا للعبرانيين لا يقل عظمة عن عبور البحر الاحمر في عهد فرعون . وقد أثر كل هذا في الرأي العام الاسرائيلي الذي بدأ يميل لصالح الضم والتهويد والاحتفاظ بالارض المحتلة .(٢٠) وبدأ حزب حيروت بقيادة بيغن باستغلال الموقف من الارض . كانت هذه هي بداية الرفض على صعيد قطاعات من المجتمع ونذير التطورات اللاحقة التي أدت فيما بعد الى نشوء اليمين المتطرف .

ومن وجهة نظر هركابي المفكر الاستراتيجي الاسرائيلي ، ادت حرب ١٩٦٧ الى جعل العرب يفصلون بين الهدف الاكبر في تحرير فلسطين من جهة ، وبين السياسة اللازم اتباعها وتطبيقها مرحليا لحماية المصالح العربية من جهة أخرى . وهو يعني بهذا ان العرب تحولوا نسبيا نحو الواقعية منذ تلك الحرب . لكن هذه الحرب شكلت البداية التي ادت الى جعل اسرائيل وقواها السياسية تربط باحكام بين السياسة الاسرائيلية المرحلية من جهة والحلم الاكبر في اسرائيل الكبرى من جهة أخرى .(٢١) فبينما كان التصور الاسرائيلي قبل الحرب يدور حول الضربة السريعة ثم السلام مع العرب ، اصبحت الحاجة لابعاد الجيوش العربية عن مراكز السكان المرتبطة بالعمق الجغرافي الاسرائيلي تشكل التصور الجديد الذي بدأ التعبير عنه يتنامى اكثر فأكثر عبر مقولة "حدود يمكن الدفاع عنها" .(٢٢)

حرب ١٩٧٣ :
بين تفجير أزمة العمل ، وأسباب نمو اليمين والليكود

أ- حرب ١٩٧٣ وتفجير ازمة العمل : جاءت حرب ١٩٧٣ التي نقلت الوضع العربي العام الى مواقع الهجوم العسكري والسياسي لتفجر ازمة حزب العمل . فقد بدا الحزب الحاكم وكأنه لم يكن مستعدا للحرب مما أنتج شعورا إسرائيليا بضرورة تغيير القيادة . ومع أن هذا الامر لم

يعكس نفسه بوضوح في انتخابات الكنيست في ديسمبر ١٩٧٣ ، الا ان التطورات اللاحقة التي ادت الى استقالة غولدا مائير ومجيء إسحاق رابين لرئاسة الوزراء ، فتح الباب واسعا لجملة من التغيرات . فالقيادة الجديدة لحزب العمل ، التي تميزت بدور ثنائي وتنافسي سلبي بين إسحاق رابين وشمعون بيريز ، كانت تعبر عن تفاقم حالة التآكل في حزب العمل .(٢٣)

وفي المقابل تداخلت نتائج حرب ١٩٧٣ مع حالة الفساد الاداري التي كانت قد عمت حزب العمل قبل الحرب ، والمتفاعلة مع سيطرة الحزب على القطاع العام والاقتصاد ، لتؤدي الى كسر الثقة بين هذا الحزب وقطاعات شعبية عريضة من الرأي العام وعلى الاخص الطبقة الوسطى . لقد بدا حزب العمل بعد الحرب بلا قيادة وضعيفاً في الاخلاقيات العامة . كما بدأ حزب العمل يواجه الانتقاد من قواعده التي طالبت بضرورة إدخال الديمقراطية الى هيئات الحزب .(٢٤) وقد نتج عن التآكل في الحزب نشوء الحركة الديمقراطية للتغيير بعد حرب ١٩٧٣ إضافة الى حركات احتجاج أخرى أكلت من قوة حزب العمل في الكنيست .(٢٥)

كانت ردة الفعل الاولى لحكومة حزب العمل على صدمة الحرب ، ميلا للاعتدال ولامكانية القبول بالانسحاب من الاراضي المحتلة .(٢٦) لكن هذا الموقف ما لبث أن عاد وتغير في اطار المساومات الداخلية مع الحزب الوطني الديني(المفدال) ، الذي احتاجه حزب العمل لتكوين حكومة الاغلبية عام ١٩٧٤ بعد انتخابات الكنيست عام ١٩٧٣ . (٢٧) وقد ادى هذا الى عدم مقدرة الحكومة لاسباب سياسية داخلية على التعامل ايجابيا مع المشروع الاردني ، الذي عرف بإسم المملكة المتحدة الذي طرحه الملك حسين ، في محاولة منه لاستثمار نتائج التغير المحدود في السياسة الاسرائيلية الناتجة عن الحرب . ولقد شاع الاعتقاد في صفوف المقاومة الفلسطينية في تلك الفترة أن التسوية السلمية قادمة نتيجة لحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وأنه لابد من تحديد موقف فلسطيني واضح منها . وكانت نتيجة هذا الاعتقاد ، ونتيجة القناعة الفلسطينية بالحاجة لتحصيل مكاسب سياسية في معركتها الوطنية ، أن المنظمة خرجت ببرنامج النقاط العشر ، الذي اقر مبدأ إقامة السلطة الوطنية الفلسطينية فوق اي أرض تنسحب منها قوات الاحتلال .

إلا ان الخلافات في صفوف حزب العمل وأزمته العامة ، جعلت الحكومة اضعف من أن تأخذ قرارا بالانسحاب من الاراضي المحتلة ، او ان تتفاوض على سلام مع العرب . فقد كان الحزب عاجزا عن التحرك بسبب الخلافات بين شمعون بيريز الذي عمل على إستغلال المسالة الجغرافية والارض المحتلة ، لكي يساهم في عزل رابين واخذ رئاسة الوزراء منه .(٢٨) فرابين على سبيل المثال ، خشي من اي تنازل محدود عن الارض في سيناء عام ١٩٧٥ وان كان قد

قبل ما سبق وأن رفضه بعد عدة شهور . وكان السبب في الرفض الاول خوف رابين من الفشل وامكان ان ينجح بيريز الذي كان يستعد لاستلام رئاسة الوزراء منه .(٢٩)

ومما ساعد الاسرائيليين على المناورة وعدم البت في الانسحاب ، قناعتهم بعد الحرب بان عودة العرب للقتال لاسباب عسكرية ومالية وسياسية لم تعد سهلة . وأن إسرائيل ستشهد عدة سنوات من الهدوء بعد قيامها بتثبيت فصل القوات الذي رعاه وزير الخارجية الامريكي هنري كيسنجر حول سيناء ثم الجولان . كما تبين لها ان التضامن العربي الفعال لم يكن الا حالة موقتة ، إذ ما لبث هذا التضامن السوري ، العراقي ، المصري ، الاردني ، والفلسطيني ، ان تفكك في خضم الصراعات ، الامر الذي اضعف المقدرة العربية التفاوضية . كما أن تراجع علاقات مصر السوفيتية بعد إخراج الرئيس المصري انور السادات للخبراء السوفييت ، أثر هو الآخر على الموقف العربي ، هذا بالاضافة الى ميل مصر لعلاقات مميزة منذ ذلك الوقت مع الولايات المتحدة التي عملت ما وسعها لتحقيق بعض المكاسب للسادات مقابل ضمان هدوء الجبهة المصرية الاسرائيلية (فض الاشتباك الاول عام١٩٧٣ ثم الثاني ١٩٧٦) . كما أن حرب لبنان الاهلية التي بدأت في نيسان ١٩٧٥ ، كانت هي الاخرى مجالا لاستنزاف قوى الحركة الوطنية الفلسطينية واللبنانيه اضافة لاستنزاف جهود البلاد العربية لاطفائها ، عدا عن تورط سوريا فيها دبلوماسيا ثم عسكريا .

أزمة حزب العمل تعززت حينما عادت المسألة الامنية بعد حرب ١٩٧٣ لتطفو على السطح في إسرائيل . فالحرب اثبتت للاسرائيليين ان امنهم ضعيف ، مما ساهم في التوجه الذي يميل للاحتفاظ بالاراضي المحتلة او الجزء الاكبر منها . كما أكدت حرب ١٩٧٣ للاسرائيلين مدى اهمية العمق الاستراتيجي ، مما ساهم في بلورة تيار شعبي أكثر ميلا نحو حزب حيروت وطروحاته ، الى درجة بدأ فيها العديد من نشطاء حزب العمل بالتحول نحو الليكود .(٣٠) ونتج عن هذا نمو في الايديولوجيا التي ترى في اراضي فلسطين ١٩٦٧ اراض يهودية وضرورة أمنية ، مما أطلق العنان لحركة غوش امونيم التي تاسست عام ١٩٧٤ . وبدأ اليمين الشعبي يرى أن الانسحاب من الخليل يشبه تماما الانسحاب من تل أبيب ، وأن مبرر الوجود الاسرائيلي في يافا وعكا هو نفسه الذي يبرر إستيطان الخليل ونابلس . ففي ظل ضعف حزب العمل بدأت القوى التي تريد تعبئة الفراغ بالنهوض ، وبدأت جبهة المعارضة اليمينية بالاتساع على الصعيد الشعبي من اجل هزيمة حزب العمل وضم الاراضي المحتلة وفرض برنامج اليمين التاريخي .

ب-حرب ١٩٧٣ والجذور الموضوعية لنمو الليكود وقوى اليمين : مفهوم التطرف اليميني بدأ في

الولايات المتحدة على يد العديد من الكتاب في الخمسينات والستينات ليعني اساسا العداء للشيوعية ، المتداخل مع الشوفينية القومية ، والمختلط بالاصولية الدينية ، والعسكرية ، والمعاداة للغريب . ولقد تمت استعارة هذا المفهوم للوضع الاسرائيلي .(٣١) وقد شكلت غوش امونيم أحد اهم مظاهر نمو هذا اليمين الاسرائيلي المتطرف الجديد . اذ قامت ببناء مستعمرات متفرقة في اماكن هامة مكتظة بالسكان في الارض المحتلة متحدية حزب العمل ، مشكلة قوة ضغط واحراج لسياسته الوسطية . فبعد حرب ١٩٧٣ وبينما كانت إسرائيل تتكلم عن امكان المساومة وهي مترددة ، بدأت غوش امونيم تشعر بالحاجة لتنظيم النفس وفرض الاستيطان على الدولة على مقربة من المناطق العربية المأهولة بالسكان . وقد برزت غوش امونيم من تحالف قوى يمينية صغيرة نشأت بعد حرب ١٩٦٧ وهي تجمع المؤمنين ، وحركة أرض إسرائيل .(٣٢) وحين تشكلت غوش امونيم كانت جزء من الحزب الوطني الديني (المفدال) المتحالف مع حزب العمل . لكنها بعد١٩٧٣ انشقت عنه واعلنت استقلالها (٣٣) .

هذه هي الصهيونية الجديدة التي كانت تعكس تيارا متناميا يعكس الاحتفاظ بالارض وإستيطانها المطلق ويحمل اطروحات مطلقة . وقد كانت النظرة الغوش أمونومية هذه تقوم على اساس الخلاص الديني وبروز المهدي المنتظر عن طريق استيطان الضفة الغربية وقطاع غزة .(٣٤) ففي باطن المجتمع واجهزة الدولة بدأ هذا التيار في التنامي . بل ساد الشعور بتجديد الحركة الصهيونية والعودة للجذور الاولى التي بدأتها الحركة الصهيونية قبل قرن من الزمان . بهذا بدأت غوش امونيم في كسب مشاعر كثيرة في المجتمع الاسرائيلي .(٣٥) كما أن مجموعات الحاخام كاهان مؤسس وقائد حزب كاش اليميني المتطرف ، كانت قد بدأت في العمل الجدي في اسرائيل بعد ١٩٧٣ .(٣٦) إذ خطّتْ سياسة ترهيب السكان والاغارة على القرى والمدن الفلسطينية في كل مكان . ولقد وقفت حكومة حزب العمل عاجزة عن منع امونيم من الاستيطان ، وعاجزة حتى عن اتباع سياسة واضحة تجاهها ، ومن جهة أخرى فقد وجدت نفسها مضطرة لتقديم بعض التنازلات على جبهة فك الارتباط مع سوريا ومصر .(٣٧)

إن نمو اليمين لم يكن مفاجئا ، بل جاء بهدوء وعلى مراحل . فالتحول لليمين في الكنيست الاسرائيلي مثلا يمكن ملاحظته كالاتي . فالمعتدلون البراغماتيون(الذين يقولون بامكان المساومة المحسوبة مع العرب) تحولوا من ٧٣٪ عام ١٩٦٦ الى ٤٩ ٪عام ١٩٧٧ . بمعنى اخر كان انصار إسرائيل الكبرى يتزايدون سنويا.(٣٨) وقد عكست إنتخابات ديسمبر ١٩٧٣ الوضع الجديد . فبينما كان الفارق بين الغاهال(وهو نواة الليكود المكون من حزب حيروت

اليميني ، والليبراليين الرافضين لاشتراكيه العمل) والعمل عام ١٩٦٩ يتحدد بـ ٢٦ مقعدا للغاهال مقابل ٥٦ مقعدا للعمل ، اصبح الفارق عام ١٩٧٣ يتحدد بـ ٣٠ مقعدا للغاهال الى ٥١ مقعدا للعمل .[٣٩]

لقد شكل نشوء الليكود عام ١٩٧٣ ، كتجمع سياسي جديد خلف الغاهال ، ومكون من حزب حيروت اليميني إضافة لمشاركة الليبراليين وعناصر من يمين حزب العمل ، إنعكاسا دقيقا للتطورات الجديدة في المجتمع الاسرائيلي . إذ شكل بداية ودفعة لتحدي البنيان السياسي القديم الذي كونه الماباي وحزب العمل .[٤٠] ولقد ساعد في نمو شعبية الليكود انه لم يحد وقلبه حزب حيروت عن البرنامج الصهيوني الصافي ، إذ حافظ على رؤيته التاريخية المتصلبة في السياسة الخارجية . وكونه لم يشارك في الحكم ، اي لم يتحول لحزب حاكم ، فقد اصبح مرشحاً للعب دور تاريخي في تجميع قوى اليمين الصاعدة ، اضافة لتجميع القوى التي قادها تدينها وطموحها السياسي وخوفها من العرب الى اعتبار الارض المحتلة ١٩٦٧ جزء من الخلاص الابدي والديني لليهود . ولقد ادى إخلاص حزب حيروت لمبادئه الى قيامه بالانسحاب من حكومة الائتلاف الوطني ، عند حصول تغير بسيط في السياسة عام ١٩٧٠(قبول الحكومة حينها بمبادرة روجرز لوقف اطلاق النار بعد حرب الاستنزاف بين مصر واسرائيل) . ويكفى أن نعرف هنا ان بيغن واليمين انما قبلوا بتقسيم ١٩٤٧ على مضض وعلى أمل الغائه في أول فرصة ممكنة .[٤١]

ان وجود قائد من الرعيل الاول يتمتع بالمصداقية السياسية والاخلاقية التي لم تمتلكها قيادات حزب العمل الجديدة عمل لصالح الليكود .فبيغن بخطاباته وقوة حديثه وهجومه على قادة العديد من الدول ، بل وثقته بنفسه وبقدراته ، اعطى الاسرائيليين شعوراً بالقوة التي يحتاجونها بعد حرب دامية مع العرب(١٩٧٣) إكتشفوا عبرها تقصير قادتهم . كما أن بيغن الصريح والمخلص لمبادئه منذ مرحلة ماقبل الدولة ، اصبح في نظر الاسرائيليين الرجل الافضل خلقيا لاعادة بناء إسرائيل القوية ، ولمواجهة الضغوط الدولية التي تطالبها بالتنازل عن بعض الارض مقابل السلام .[٤٢] فلقد ضرب بيغن بعرض الحائط جميع القيود الدولية حين أعلن خلال الحملة الانتخابية عام ١٩٧٧ بأن الضفة الغربية وقطاع غزة هي أراض إسرائيلية الى الابد . وأمام التحدي الذي سينشأ عن إبتلاع الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة إقترح بيغن اعطاء الجنسية الاسرائيلية لكل عربي "موالي" لدولة اسرائيل . كما كان واضحا من تصريحات بيغن وزعماء حزب حيروت أن تحالف الليكود سيبقي على المستعمرات في سيناء في إطار اي صيغة للمستقبل .[٤٣]

لقد نجح حزب الليكود وبجدارة في رصد اخطاء حزب العمل . وكان بامكانه ان يقول وهو في مواقع المعارضة انه قادر على إتباع سياسة أفضل . فعلى سبيل المثال وعد الليكود ناخبيه بتخفيض التضخم ، من ٣٠٪ الى ١٥ ٪ خلال عام ، ووعد برفع المدخول القومي العام(GNP) بنسبة ٤٠٪ عبر تشجيع الاستثمار ، وبيع مؤسسات الدولة الاستثمارية الهستدروت للقطاع الخاص .(٤٤) هكذا بدأت شعبية بيغن بالارتفاع لا في صفوف اليمين فحسب بل في صفوف جميع المعارضين لسياسة حزب العمل الداخلية او الخارجية . فقد نشات بعد حرب ١٩٧٣ الحركة الديمقراطية للتغيير ، التي عكست التذمر من حزب العمل على صعيد السياسة الداخلية والفساد ، والتي دخلت بعلاقة تحالف مع الليكود (حصلت على ١٥ مقعدا في الكنيست عام ١٩٧٧ وتحالفت حينها مع الليكود لتشكيل الحكومة) .

والتغير نحو التطرف في مسألة الارض ،عنى ايضا التحول في مواقف القوى الدينية لصالح التشدد يمينا والاقتراب من مواقف الليكود بعد ان كانت هذه القوى اقرب للعمل في المراحل السابقة .(٤٥) فالقوى الدينية كانت وباستمرار مع الحزب الاقوى ، ومع التيار الاهم لانها في الجوهر تبحث عن مواقع لها في الحكومة وعن سياسة الدولة تجاه الدين اكثر منه تجاه العرب . وقد إنعكس هذا على الحزبين الدينيين الرئيسيين منذ مرحلة ما قبل الدولة وهما الحزب الوطني الديني "المفدال" (وأصلة مزراحي) وحزب "أغودات إسرائيل" . لكن هذين الحزبين عادا وفقدا الكثير من قوتهما بعد ذلك لصالح قوى دينية إضافية .

كما نجح بيغن (حزب حيروت) وزعيم الليكود في الوصول الى اليهود الشرقيين الذين جاءوا الى إسرائيل في الاعوام الاولى بعد نشوء الدولة من العراق ، واليمن ، والمغرب ،وغيرها ، وعانوا من المعاملة القاسية في اسرائيل . فهم الذين يمثلون الفئة الاكثر ابتعادا او عزلة عن النظام السياسي الاسرائيلي . وهم انفسهم الذين يذكرسيغيف ، انه تم رشهم بمادة ال د .د .ت حين جاءوا الى إسرائيل بعد تأسيس الدولة عام ١٩٤٨ ، وانهم وضعوا في معسكرات أشبه بعسكرات اعتقال لمدد تجاوزت السنوات . وهم انفسهم الذين تحولوا من طبقة وسطى حرفية ي البلاد العربية الى طبقة دنيا في إسرائيل تقوم بالاعمال الوضيعة التي يأبى الاسرائيليون من اصل اوروبي القيام بها .(٤٦)

لقد نجح الليكود في كسب تأييد الجيل الجديد من الشرقيين الذين ولدوا في إسرائيل في ظل المعاملة غير اللائقة التي عانى منها آباؤهم حين وصولهم الى إسرائيل من الدول العربية ، وأصبح الانضمام الى الليكود يعني لهؤلاء اخذ موقعهم الطبيعي في إسرائيل . كما أن ايديولوجية الليكود كانت مقنعة لليهود الشرقيين ، خاصة وأن نقمتهم على حزب العمل

أحتوت على نقمة أخرى على خلفيتهم العربية التي سببت لاباثهم الكثير من المتاعب في أرض الميعاد . وقد شكلت هذه الحالة ارضية خصبة لأيديولوجية الليكود والنزوح نحو اليمين . لهذا أصبحت نقمة اليهود الشرقيين شاملة على كل شيئ مثّله حزب العمل بما فيه سياسة اللاقرار غير الواضحة تجاه الارض المحتلة . فاليهود الشرقيون ايدوا سياسة عدم إعادة الارض للعرب ، بعد أن أصبح عشرات الالوف من العمال العرب يقومون في داخل فلسطين ١٩٤٨ ، بالاعمال التي كانوا يقومون بها سابقا . بمعنى اخر ان اعادة الارض للعرب قد تعني عودة اليهود الشرقيين للعمل كعمال في اسرائيل .

لقد ركز اليهود الشرقيون ، في علاقتهم مع الليكود ، على السياسة الداخلية بدرجة أكبر من السياسة الخارجية . فوضعهم العام في إسرائيل هو الذي دفعهم لتبني أيديولوجية حزب حيروت . عَكَسَ ذلك سعيهم للانتقام من حزب العمل والمؤسسة الحاكمة الغربية ، إضافة لطموحهم في تبوأ مراكز أفضل في إسرائيل . لقد كان اليهود الشرقيون كتلة خارج النظام السياسي الذي قاده حزب العمل واستمروا كذلك الى ان جاء بيغن وأشركهم بفعالية وخاطب مصالحهم وكسب ولاء اغلبيتهم .(٤٧) لكن هذا يجب أن لا يعني عداء اليهود الشرقيين الثابت للعرب . فالمسألة أعمق من التصنيف ، واليهود الشرقيون في المحصلة النهائية أقرب حضاريا وثقافيا لعموم أهل المنطقة العربية الاسلامية .

ولاشك بأن غياب التطور التاريخي الطبيعي في حركة اسرائيل الاجتماعية ، اذ ان الجميع ينتمون لاصول تجعلهم اما مقتلعون او مهاجرون من اماكن اخرى ، يجعل الايديولوجية الحيروتية اكثر قبولا ويجعل حالة الصراع أسهل من مواجهة متطلبات السلام والمفاوضات . بل مع شعور المواطن الاسرائيلي انه ضعيف امام التاريخ ، والهولوكوست ، والاقتلاع ، والمعاداة للسامية والازمة الاقتصادية وتداخل كل هذا مع صغر مساحة الدولة وقلة عدد السكان ، وعدم إمتلاكها نفطا وأنهارا غزيرة ، ومياهاً كافية ، "يصبح الصراع العربي الصهيوني رمز الازمة" ومعبر عن كل مخاوفه . وينتج عن مثل هذا الوضع هستيريا جماعية في العلاقة مع الفلسطينيين والعرب والعالم . فالاسرائيليون كانوا مقتنعين طوال حقبات الصراع وحتى الامس القريب الى حد كبير انهم يواجهون ٢٢ دولة عربية وانهم في حالة حرب دائمة معها . وان كل شيء في العالم العربي صنع لقتالهم ، والسادات ، من وجهة نظرهم ، قتل لانه صنع سلاماً معهم وليس لاسباب داخلية .(٤٨) كما ان اليهود نتيجة لتاريخهم مع العالم غير اليهودي يسهل عليهم الايمان بأنهم لن يقدروا على العيش كشعب مثل بقية الشعوب ، فالحرب والصراع قدرهم الابدي ، والمعاداة للسامية حالة دائمة ، والصراع مع العرب والفلسطينين ماهو

الا استمرار لمجازر اليهود التاريخية . كما أن الهولوكوست شيء من الحاضر أكثر منه من الماضي .[٤٩] فعلى سبيل المثال لقد أقحم بيغن الهولوكوست في كل خطاب أو مشروع أو ممارسة متطرفة محملا العالم مسؤولية ما حصل لليهود [٥٠] .

إن المجتمع الذي بنته اسرائيل عاش واستمر يحيا في مخاوف الغيتو . ومع الزمن خلق من إسرائيل غيتو كبير يرى في الامن والارض والتهامها ، مسالة مركزية وسط منطقة عربية اسلامية هي الحضارة الاكبر المنتشرة . كما ان الخوف من الماضي والمستقبل والخوف من تكرار حرب ١٩٧٣ إضافة للأزمة الاقتصادية ، وفساد حزب العمل ، واوضاع اليهود الشرقيين والطموح لضم الاراضي المحتلة قضايا شكلت في مجموعها الجذور الموضوعية والتاريخية لصعود الليكود .

اليمين في السلطة

كانت المفاجأة في إنتخابات ١٩٧٧ تتمثل في صعود الليكود بقيادة بيغن الى السلطة ، حيث حصل الليكود على ٤٣ مقعدا (بزيادة ٤ مقاعد عن إنتخابات١٩٧٣) . لكن المفاجأة الاكبر تمثلت في حصول حزب العمل على ٣٢ مقعدا (بعد ان كان له ٥١مقعدا في إنتخابات ١٩٧٣) . وبالاضافة الى ذلك حصلت الحركة الديمقراطية من أجل التغيير التي أكلت من قوة حزب العمل على ١٥ مقعدا . كما حقق الحزب الوطني الديني المفدال ١٢ مقعدا ، بزيادة مقعدين عن إنتخابات ١٩٧٣ . هذه المفاجآت سمحت لبيغن بتأليف حكومة بالتحالف مع الحركة الديمقراطية من أجل التغيير التي كسب منها ٦ مقاعد ، بعد أن أنشق عنها عدد آخر ، ومع الحزب الوطني الديني (١٢ مقعدا) وأغودات اسرائيل الديني (٤ مقاعد) .[٥١]

بهذا الانقلاب الانتخابي ، الذي عكس نمواً لقوى إجتماعية جديدة في إسرائيل ، نقلت إنتخابات ١٩٧٧ الدولة من حكم الحزب الواحد الى حكم الحزبين . وحدثت لاول مرة منافسة جدية اطاحت بالحزب الحاكم (العمل) . ان عام ١٩٧٧ هو عام تحول اليمين في إسرائيل الى تيار رئيسي في الحركة الصهيونة بعد ان ظل هامشيا منذ ايام جابوتنسكي في العشرينات .[٥٢] وبالرغم من توقع الكثيرين سقوط اليمين في الانتخابات التالية(١٩٨١) الا انه لم يسقط بل استطاع ان يحقق مكاسب اضافية . واصبح الليكود منذ عام ١٩٧٧ جزءاً اساسيا من الحياة السياسية الاسرائيلية بينما تراجع حزب العمل الى الوراء .

ان جذور الخلاف بين القوى الاسرائيلية (اليمين والوسط) ، تعود لمرحلة ما قبل الدولة ، فاليمين آمن بالارض كاملة بما فيها شرق الاردن ، بينما التيار الوسط اراد الدولة أولا وأساسا . واليمين امن بالعنف المطلق بينما آمن الوسط بالعنف المدروس . الفرق بين بناة الدولة الاساسيين ، تيار بن غوريون ، وبين تيار جابوتنسكي وبيغن وشامير هو الفرق بين الممارس للحس السياسي في اطار فن الممكن ، وبناء مؤسسات بهدوء وسط إتقان اللعبة السياسية الدولية والمحلية ، وبين الذي لا يتقن اللعبة بقدر ما يتقن الايديولوجيا وتلبيسها للواقع بقوة وعنف . بانتصار بيغن إنتصرت الايديولوجيا على الواقع ، ودخل الصراع العربي الصهيوني واحدة من أحلك وأصعب المراحل .(٥٣)

أ-المرحلة الاولى لحكم الليكود : خلال الشهور الاولى من حكم الليكود كانت المفاجأة الاكبر لجميع انصار اليمين هي طريقة رد بيغن على زيارة السادات لاسرائيل في نوفمبر ١٩٧٧ ، وموافقته على الانسحاب الكامل من سيناء . لقد شكلت هذه الموافقة الدرس الاول لبيغن في التكتيك السياسي ، وهو القائد الذي لم يمارس الحكم في الماضي ، ولم يضطر لممارسة المساومات السياسية في إطار الضغوط وفن الممكن . وبينما كان حزب العمل ضد الانسحاب الكامل من سيناء ، التزم بيغن بهذا الانسحاب . وفي المقابل انتجت موافقة بيغن على الحكم الذاتي المحدود للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة ، ردود فعل مختلفة في أوساط حزب العمل وفي اوساط اليمين ايضا . فحزب العمل أراد التمسك بخطة الون ، وإعتبر الحكم الذاتي للفلسطينيين ، كما هو منصوص عليه في معاهدة كامب ديفيد ، بداية تحول بطيء نحو دولة ثنائية القومية ، او دولة فلسطينية مستقلة ، وهو ما كان يرفضة كلياً .(٥٤) فحزب العمل كان يفضل اعادة بعض الاراضي وخاصة المأهولة بالسكان للاردن . اما من جانب اليمين فقد عارض شامير وهو حليف بيغن الذي كان ناطقا باسم الكنيست كامب ديفيد لسببين : اولهما ، معارضته للانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ، وثانيهما معارضته لسابقة نزع المستعمرات من سيناء . (٥٥) كما بدأت حركة غوش امونيم اليمينية في مهاجمة بيغن علنا ، وخشيت من ان يقوم الليكود بالموافقة يوما على نزع المستعمرات في الاراضي الفلسطينية المحتلة كونه وافق على نزعها من سيناء . كما انشق عن الليكود غولا كوهين ، ويوفيل نيمين ، إحتجاجا على كامب ديفيد ، ليؤسسا حزب (تحيا) الاكثر يمينية . وخوفا من المساومة على الاراضي الفلسطينية المحتلة ، نما تيار في غوش أمونيم يميل الى ممارسة الارهاب والعنف . وبالفعل نجح هذا التيار في شن عدة عمليات ضد أهداف متفرقة في الاراضي المحتلة ، كان

أهمها تفجير سيارات رؤساء البلديات الفلسطينية عام ١٩٧٩ .[٥٦]

ولكن نوايا الليكود وبيغن الحقيقية ، كانت مركزة على إستغلال كامب ديفيد لفصل مصر عن البلاد العربية الاخرى اولا ، وعلى استغلال الحكم الذاتي الشكلي من أجل أبتلاع الارض الفلسطينية وتهويدها ثانيا . فالليكود لم يكن جادا في مسألة الحكم الذاتي ، إذ إن الحكم الذاتي الجدي والمتمتع بنوع من الحماية السياسية والدولية ، قد يحتمل التطور نحو دولة فلسطينية في مرحلة لاحقة ، وهذا النوع من الحكم الذاتي ذو المصداقية لم يحظ بموافقة بيغن . ولذا فان الحكم الذاتي الذي خطط له بيغن كان الهدف منه تغطية تحييد السكان والرأي العام بينما يقوم هو بإبتلاع الارض . هذا التصور للحكم الذاتي من قبل بيغن كانت نتيجته تبلور خلاف جدي في صفوف الحكومة الاسرائيلية حول مضمون هذا الحكم . إذ وقف وايزمان وزير الدفاع في حكومة الليكود الذي لعب دورا أساسيا في انتخابات بيغن عام ١٩٧٧ ، إضافة لدايان وزير الخارجية ، وإيغال يادين نائب رئيس الوزراء ، مع الحكم الذاتي الفعال والعملي الذي يشمل الارض والسكان (وهذا تداخل مع الرؤية المصرية للحكم الذاتي) . لقد عارض هؤلاء الثلاثة سياسة الحكومة الاستيطانية ، وطريقة تفريغ بيغن لمضمون السلام وتحويله لسلام مع مصر فقط . وقد أدت هذه الخلافات وعدم قدرة وايزمان ودايان في التأثير على القرار السياسي ، الى إستقالتهما عام ١٩٨٠ . (٥٧)

ولقد نجح بيغن فيما بعد بإقناع الاسرائيليين بتفسيره للحكم الذاتي ، من حيث شموله للسكان وعدم شموله للارض . وفي إستبيان عام ١٩٧٩ تبين أن ٥٩٪ من سكان إسرائيل تقبلت هذا التفسير .(٥٨) وقد إعتبر شامير بأن أعادة سيناء الى مصر عنت تخلي إسرائيل عن ٩١٪ من الاراضي التي إحتلتها عام ١٩٦٧ ، وإنه من غير المنطقي ان تتراجع إسرائيل تحت اية ظروف عن أراض أخرى .(٥٩) فبالنسبة اليه فان المسألة المركزية للحركة الصهيونية هي جلب مئآت الالوف من اليهود السوفييت واليهود في العالم الذين يجب ان تستقطبهم إسرائيل .[٦٠]

ب-المرحلة الثانية لحكم الليكود : أمام كثرة الانتقادات الموجهة الى بيغن من قبل قوى اليمين الجديد ، وفي ظل إنشقاق بعض القادة عن حزب الليكود ، إضافة الى شعور بيغن نفسه أنه قدم تنازلات جوهرية لمصر تتناقض مع أيديولوجيته الحيروتية ، فقد سعى للخلاص بسرعة من كل القيود التي تحول دون قيامه بتنفيذ مخططه اليميني الاكبر ، وإثبات إخلاصه لانصاره في اليمين . وكنتيجة لهذا التوجه دخلت حكومته في مرحلتين متميزتين . الاولى وتمتد من

عام ١٩٧٧ وحتى عام ١٩٨٠ ، وقد سيطر في هذه الفترة جو كامب ديفيد والمفاوضات المرتبطة به . وقد عين بيغن في حكومته ، كما ذكرنا سابقا ، وايزمان كوزير للدفاع وموشى دايان كوزير للخارجية وإيغال يادين ، من الحركة الديمقراطية للتغيير ، كنائب لرئيس الوزراء ، مما أعطى وجها محددا للسياسة الاسرائيلية في تلك الفترة وجعلها دون التصور الليكودي المطلق . اما المرحلة الثانية فقد بدأت عام ١٩٨٠- واستمرت بقوة حتى عام ١٩٨٣ حيث انطلق المشروع الليكودي بكامل قوته وذلك على أثر خروج دايان ووايزمن من الحكومة ، احتجاجا على سياستها المغالية تجاه العرب(فلسطينيين ،لبنانيين ،سوريين) . في ظل هذا الوضع الجديد جاء شارون كوزير للدفاع ليبدأ بلعب دور معاكس هدفه تنفيذ التصور الليكودي المطلق ، وساعده في ذلك إستلام شامير لوزراة الخارجية ، وايتان رئاسة الاركان ، وتولّى موشى أرينز منصب سفيراسرائيل في واشنطن . (٦١)

وعلى مستوى الارض المحتلة ،عبرت السياسة الاسرائيلية الجديدة عن نفسها بتسريع عملية التهويد وتنفيذ عملية اقتطاع الاراضي وبناء المستوطنات ، وزيادة عدد المستوطنين ، وبطريقة مكثفة لم تشهدها الاراضي المحتلة منذ بدء الاحتلال عام ١٩٦٧ . وقد ادت هذه السياسة الى ارتفاع عدد المستوطنات من ٣٤ الى١٠٠ مستوطنة وبتكلفة لا تقل عن مليار دولار للاستيطان . كما وإرتفع عدد المستوطنين من ٣٠٠٠ في عهد حزب العمل الى ٣٨ الف في آخر عهد بيغن .(٦٢) و تحولت سياسة مصادرة الاراضي لتشمل كل مكان في الاراضي المحتلة مما رفع مساحة الارض المصادرة الي ما يوازي ٤٠ ٪ من مساحة أراضي الضفة الغربية وقطاع غزة . وقد اخذ التوجه الطموح لابتلاع وتهويد الضفة الغربية وقطاع غزة دفعة جديدة ، حينما رصدت الحكومة ، بالتعاون مع المنظمة الصهيوينة العالمية ، عام ١٩٨٣ مبلغ ٢,٥ بليون دولار للإستيطان . (٦٣) كما وتم فتح كل قنوات الدعم لحركة غوش أمونيم . وبدأت إسرائيل في تطبيق سياسة الضم "القانوني" والجغرافي ، وانشأت الادارة المدنية التي هدفت الى تطبيق مفهومها للحكم الذاتي الذي كان جوهره انشاء روابط القرى ذات الطابع العميل للاحتلال . كما إن إسرائيل انقضت على الحركة الوطنية الفلسطينية في الداخل عام ١٩٨٢ فقامت بإقالة رؤساء البلديات المنتخبين وعملت على سحق التحركات الشعبية الفلسطينية التي سادت في ذلك الوقت .(٦٤)

ولقد توج التصور الاسرائيلي المطلق ، إبان المرحلة الثانية من حكم بيغن ، بشن الحرب على قوات منظمة التحرير في لبنان عام ١٩٨٢ ، وسعيها في الوقت نفسه الى بناء لبنان جديد يقوده بشير الجميل واليمين اللبناني . في هذا الوقت إمتلكت إسرائيل تصورا عاما للمنطقة ،

جوهره سعيها للتحول الى دولة كبرى محلية قادرة على فرض توجهاتها على البلاد العربية في ظل سلام شامل مع مصر . وفي الغزو الاسرائيلي للبنان ، تبلور المشروع الليكودي في أجلى صوره كمشروع يسعى لحل كل مشكلات إسرائيل بواسطة إستخدام العنف المستند الى تفوقها العسكري .(٦٥)

والباحث في تطور السياسة الاسرائيلية لا يستطيع الا ان يقف اجلالا واكبارا أمام المعنى التاريخي لصمود بيروت . ففي هذه المعركة صنعت أقلية من المقاتلين قتالا شكل في مجموعه ما يقارب زمنيا مجموع ايام القتال في الحروب العربية الاسرائيلية منذ عام ٩٤٨ .(٦٦) فالحرب لم تكن نزهة لليكود ، والصمود كان جرعة تاريخية لليكود ودرسا في الواقعية السياسية .(٦٧) ففي هذه المعركة كما يقول :(٦٨)

"وقف جيش صغير من الميليشيا الفلسطينية التي تجسدها منظمة التحرير الفلسطينية وقوات الحركة الوطنية اللبنانية ، والتي لم تتعد في مجموعها ١٥ الف مقاتل من المليشيا الضعيفة التسليح المسنودة ببعض وحدات الجيش السوري التي قاتلت معهم في الاسبوعين الاولين من الحرب ، وذلك في مواجهة جنرالات لم يسبق لهم ان خسروا معركة ، وجيش تصل قوته الى نصف مليون مقاتل موزعين على سبعين لواء ، يملكون ٨٠٠٠ الاف دبابة وعربة مصفحة ، و٥٥٠ طائرة مقاتلة ، اضافة لقوة بحرية متطورة ، وافضل الاسلحة المدفعية والصاروخية الموجودة في العالم لمدة ١٠ أسابيع دون ان يهزموا"

وأبان الحرب وبعدها بدأت إسرائيل تعاني من أزمة تاريخية . فمهما بلغت العقائد والاهداف ، تبقى الوقائع وصراع القوى هي الحكم النهائي . ففي هذه المعركة إكتشف الليكود حدودا للقوة تنم عن مدى استعداده لتحمل الخسائر ، وعن مدى الاهداف السياسية للحرب ، وعن مغزى دخول عاصمة عربية ، وتفاعل الاوضاع الدولية لغير صالح إسرائيل . ومع ان منظمة التحرير خرجت من بيروت الى شتات جديد ، الا ان اسرائيل لم تنجح في فرض حلها على الشعب الفلسطيني في الداخل او في لبنان . فبينما قالت بانها ستفكك المخيمات الفلسطينية في لبنان وتبعثر سكانها ، اكتشفت استحالة تنفيذ ذلك سياسيا ودوليا ، وبينما كان من أهم أهداف الحرب فرض الحكم الذاتي المحدود والمبتور عن اي افق مستقبلي على الاراضي المحتلة ، اصطدمت اسرائيل باستحالة تنفيذ هذا الغرض بدون وجود فلسطينيين يقبلون به .

أعتبرت حرب ١٩٨٢ بأنها الحرب التي كسرت الاجماع الصهيوني لاول مرة ، حيث بدأت معارضة الحرب اولا في اوساط حركة السلام الان ، ثم مالبثت ان انتقلت الى اوساط

قطاعات حزب العمل ، ثم بعد ذلك بدأت الانتقادات التي تناولت سلوك شارون في الحرب تطفو على السطح في أوساط الليكود . وقد شكلت مجازر صبرا وشاتيلا ، وهي المجازر التي سهلتها القوات الاسرائيليه التي حاصرت المخيمين في بيروت ، مرحلة تحول كبيرة نتج عنها نزول نصف مليون مواطن اسرائيلي الى الشوارع احتجاجا على المجزرة . فهذه الحرب سابقة تاريخية ، اصبح لها معان كبيرة على واقع تفكير الحركة الصهيونية وانقسامها حول التعامل مع العرب وجيرانهم حدود استخدام القوة والعنف . بل ان عام ١٩٨٢ وضع الاساس الذي يسمح للاسرائيليين باصطفافات مثيلة في ظل ظروف مشابهة ، أي في حالة دخول إسرائيل المتفوقة عسكريا في حرب لايعتبرها الشارع الاسرائيلي مبررة سياسيا أو دفاعياً(٦٩) .

ولقد فشل الليكود أيضا عام ١٩٨٢ لانه تورط في محاولة تشكيل لبنان جديد . فحين تراكمت الاحداث بعد مقتل بشير الجميل ، وبدأت اعمال المقاومة الفلسطينية واللبنانية ضد القوات الاسرائيلية انطلاقا من البقاع اللبناني ، وجدت إسرائيل انها دخلت في طريق مسدود . اذ شكلت أعمال المقاومة ومن ثم إنتفاضة ابناء الجنوب اللبناني العارمة ضد الجيش الاسرائيلي ، المرحلة الثانية المكملة لمعركة بيروت ، والتي فرضت الفشل على الليكود وسياسته . وبالامكان القول ان معركة بيروت كانت معركة الامتصاص التاريخي لهجوم الليكود وتصوراته المطلقة وعنفوانه وشبابه .

وكنتيجة للحرب ، وعدم واقعية الليكود الذي طرح سياسات لا يحتملها الاقتصاد ولا تستطيع مجاراتها المؤسسات ، تبلورت أزمة مالية ايضا اوصلت الليرة الاسرائيلية الى اسوأ حالاتها .(٧٠) فبيغن الذي وعد الناخبين بحياة اقتصادية افضل وبتضخم اقل ، وصل التضخم في عهده حدودا لم يصلها في الماضي . فعلى سبيل المثال كلفت حرب لبنان ٢,٥ بليون دولار . بينما كلف إستيطان الضفة الغربية وقطاع غزة في مرحلة ١٩٧٧-١٩٨٣ مليار دولار ، ووصلت الديون الخارجية الإسرائيلية مع نهاية حرب ١٩٨٢ الى ٢٠,١ بليون ، ووصل التضخم الى ١٣٠٪ .(٧١) كما أن الصرف الحكومي العام وسياسة الحكومة برفع الاجور الهادف لزيادة شعبية بيغن رئيس الوزراء دفعت بالتضخم الى نسبة ١٠٠٪ . فهذه السياسة كان الهدف منها مساعدة بيغن في حملتة الانتخابية الثانية لليكود لعام ١٩٨١ . بل وصلت الامور عام ١٩٨٢الى حد أن سوق الاسهم شهد نشاطا خياليا ، وتضاعفت أسعارها وبدأ الكثير من الاسرائيليين بترك أعمالهم وبيع بعض ما يملكونه بحثا عن الربح السريع في سوق الاسهم ، مما اضر بالعمل والاقتصاد الانتاجي . وكانت النتيجة ان كل شيء وصل الى طريق مسدود ، والاقتصاد بدأ ينهار ، والاسهم هبطت فجأة بنسبة ٣٠ ٪ كما وان اسهم الصناعات هبطت

بنسبة ٥٠ الى ٩٠٪ . وفي كل منعطف إقتصادي شهده عهد بيغن كان كل وزير للمالية جديد يستقيل .(٧٢)

ومع حلول نهاية عهد بيغن ، تبين ان الحقائق السياسية والاقتصادية اكبر من ان تحل بالقوة العسكرية الهجومية أو بوسائل وهمية . وبدت اسرائيل الكبرى في ورطة حقيقية توجت باستقالة بيغن في سبتمبر ١٩٨٣ . لكن هذا لا يعني أن الموقف العربي آنذاك لم يكن أيضا في أزمة منعته من المساهمة في لجم إندفاعة الليكود ، ومن ثم إستثمارالفرصة السياسية والاقتصادية الناتجة عن معركة بيروت . فالحرب العراقية الايرانية ، وتفتت الموقف العربي وعزلة مصر ، اضافة للصراعات الفلسطينية السورية والفلسطينية الفلسطينية بعد الحرب شكلت عوامل سلبية منعت الهجوم العربي المعاكس سواء علي الصعيد السياسي او على الصعيد العسكري .

الحكومة الائتلافية :
سياسة الترميم في مرحلة إنتقالية .

في عام ١٩٨٤ ، اي قبل سنة واحدة من الموعد المحدد لإنتخابات الكنيست ، وجد شامير ، خليفة بيغن ، انه مضطر لبدء إنتخابات جديدة نتيجة سحب الثقة من الحكومة في البرلمان .(٧٣) وبينما كان الامل كبيرا بين أفراد حزب العمل وقوى سياسية وسطية ويسارية في أن تتحول الانتخابات لفشل ذريع لليكود ، كانت النتيجة تبلور مرحلة سياسية جديدة في تاريخ إسرائيل السياسي . إذ لم ينجح اي من الحزبين بتحقيق الفوز ، ووجد كل منهما انه مضطر للتعامل مع الاخر اذا لم يكن يريد ان يخضع لابتزاز مطلق من الاحزاب الصغيرة التي تمتلك قدراً جيداً من المقاعد في الكنيست . فمن المعروف أن تشكيل الحكومة الاسرائيلية يحتاج الى ما لايقل عن ٦١ مقعدا من عدد مقاعد الكنيست البالغ ١٢٠ مقعداً . وبما أن الليكود حقق ٤١ مقعدا ، وحزب العمل٤٤ مقعدا ، بينما بقية المقاعد الخمسة والثلاثين توزعها ١٣ حزبا من اليمين واليسار اضافة الى القوى الدينية ، فقد وجد كل من الحزبين انه مضطر للتعامل مع الاخر ، وذلك من أجل تشكيل حكومة إئتلاف وطني يكون هدفها تأمين حلول نسبية لاهم مشاكل اسرائيل في تلك الفترة . وعلى رأس تلك المشكلات الازمة الاقتصادية ، والاوضاع في لبنان حيث تتواجدالقوات الاسرائيلية من العام ١٩٨٢ . لقد مثلت حكومة الائتلاف تحالف الخاسرين من مراحل سابقة .(٧٤)

برزشمعون بيريز في حكومة الائتلاف الوطني في مرحلتها الاولى كرئيس وزراء (سبتمبر ١٩٨٤- أوكتوبر١٩٨٦) حاول تطبيق جزء من برنامج حزب العمل الانتخابي . إذ عالج الازمة الاقتصادية ، كما قاد على مراحل الانسحاب الاسرائيلي من لبنان (باستثناءالشريط الحدودي) وتوج الانسحاب في ايار ١٩٨٥ .(٧٥) وسعى شمعون بيريز الى تحسين العلاقات مع مصر التي ساءت نتيجة لحرب عام ١٩٨٢ . كما طرح تصوراً لبدء المفاوضات مع الاردن على اساس الارض مقابل الانسحاب .(٧٦) وقد دفع هذا الوضع منظمة التحرير الفلسطينية ، التي كانت تعاني من فقدانها لقاعدتها الآمنة في لبنان ، لعقد إتفاق مع الملك حسين حول المفاوضات مع إسرائيل عام ١٩٨٥ .

لكن تحرك بيريز على جبهة الاردن بدا صعبا وسط اصرار شريكه (الليكود) على استمرار السيادة المطلقة على الارض . وحتى زيارة بيريز للمغرب في تموز عام ١٩٨٦ فانها لم تصل الى شيء لعدم مقدرة بيريز على تقديم شيء للملك الحسن سواء بالنسبة للمفاوضات مع منظمة التحرير او بخصوص الانسحاب من الاراضي المحتلة . فالواضح ان الليكود استغل الائتلاف ، وسعى بنجاح لزيادة عدد سكان المستعمرات ، وربط الضفة الغربية وقطاع غزة بالاقتصاد الاسرائيلي ، واخذ المزيد من الاراضي والمياه الفلسطينية . (٧٧) ومع أن بيريز حاول تهدئة الامور في الاراضي الفلسطينية المحتلة عن طريق تحسين الوضع الاقتصادي للسكان ، وذلك في إطار تفاهم مع الاردن(التقاسم الوظيفي) الا أن السياسة الاسرائيلية بقيت تجاه الاراضي الفلسطينية ، في جوهرها ، في إطار التصور الالحاقي والتهويدي . ونظرا لهذا فهي لم تنجح في كسب الهدوء ، إذ كانت أشكال المقاومة في تلك الفترة تتعدد وتتعمق مما مهد للانفجار الفلسطيني الكبير عام ١٩٨٧ وذلك في ظل جمود العملية السياسية واستمرار سياسة إسرائيل التهويدية .

الانتفاضة الفلسطينية والسياسة الاسرائيلية :

تفجرت الانتفاضة الفلسطينية في وجه الكيان الاسرائيلي ، في وقت كانت الموجة الصهيونية الاكثر توسعا وإمعانا في تنفيذ مشروعها الكبير ، قد واجهت مأزقا كبيرا بعد حرب ١٩٨٢ ، بحيث تم في معركة بيروت رغم مخاسرها الجمة لبنانيا وفلسطينيا إمتصاص تلك الصدمة الاسرائيلية وتحويلها الى بداية لهبوط المشروع الصهيوني المطلق . كما ان الانتفاضة جاءت كحالة عربية جديدة ولتمثل بداية الرد العربي علي السياسة الاسرائيلية بعد معركة

الامتصاص التاريخي في بيروت . وفي هذا الاطار بامكاننا أن نقدر عبقرية الانتفاضة والشعب من حيث التوقيت والزمن . وبالتأكيد فأن الذين عاشوا تحت الاحتلال وعملوا في مصانع إسرائيل ، وتعلموا لغة سكانها ، واطلعوا على نمط حياتها السياسية والاقتصادية وعلاقاتها الاجتماعية ، لامسوا بعفوية تلك الازمة الاسرائيلية العامة وفهموا مضامينها ، الامر الذي انتج وعيا شعبيا قادرا على الرمي بالثقل الشعبي في خضم معركة غير متكافئة على الصعيد العسكري .

فسياسة حزب العمل المتذبذبة وسياسة الليكود المتطرفة منذ ١٩٧٧ ، قادتا إسرائيل عبر محطات التحول من دولة يهودية الي دولة ثنائية القومية ، فيها شعب عربي مسيّس يصل الى نصف عدد السكان . فسعي إسرائيل للتهويد غير المدروس ، اضاف الي سكانها ما يزيد على مليوني مواطن عربي هم سكان الضفة وغزة ، وهم من خلال وجودهم المدني يهددون مستقبل الدولة يهودية . وبينما كان الطرد الجماعي في الماضي ممكنا كما حصل عام ١٩٤٨ ، تغيرت الاوضاع الدولية والعربية والفلسطينية مما يجعل تنفيذ هذا صعبا . فلقد ورطت الايديولوجية اليمينية اسرائيل في مسائل لم يعد من الممكن الخروج منها بسهولة .

لكن في المقابل ورغم المأزق الاسرائيلي ، إلا أن قوة إسرائيل العسكرية لم تضعف ، وإستعدادها للتطرف وممارسة كل أشكال التنكيل لم تفتر . بل على العكس في مراحل الازمات والتآكل وفشل السياسة عادة ما تكون الاستعدادات للتطرف والقمع المطلق أكبر . لهذا فولادة الانتفاضة في ظل الازمة الاسرائيلية وفي ظل تفوق اسرائيل العسكري ايضا ، عنى ان الانتفاضة ستتحمل وحدها ردة الفعل الاسرائيلية .

في هذا الاطار يمكن ، على سبيل المثال ، تفسير حالة التطرف التي إجتاحت الاسرائيليين بعد الانتفاضة ، إذ مال الرأي العام الاسرائيلي الى المطالبة باخذ إجراءات أشد بحق الفلسطينيين . ففي إستفتاء للرأي عام ١٩٨٨فضل ٥٥ الى ٦٠٪ من اليهود سياسة اكثر تشددا مع الانتفاضة بينما قال ١٠-١٥٪ بان السياسة الاسرائيلية المتبعة في حينه كافية ، بينما قال ٢٥٪ أن الانسحاب من الصراع هو الافضل .(٧٨) وفي إستفتاء آخر في فبراير ١٩٨٨ أكد ٦٣٪ أنهم مع سياسة الحكومة المتشددة في الرد على الانتفاضة ، بينما أكد ٢٧٪ أن هذه السياسة (مرنة) ويجب تغيرها .(٧٩)

لقد تحولت الانتفاضة الى ورقة التحريض الرئيسية في يد اليمين وقطاعات كبيرة من حزب العمل التي نجحت في تصويرها على أنها تهدد مصير الدولة وأمنها كما وانها استمرار للجهد العربي في تصفية دولة إسرائيل .(٨٠) وقد عكست إنتخابات ١٩٨٨ انحرافا نحو اليمين في

إسرائيل . ففي هذه الانتخابات كانت الانتفاضة حاضرة ، وكان تأثيرها على المستوطنين ، وعلى الجنود والجيش ، وعلى الاقتصاد والتكاليف قد بدأ يخلق الضيق . لقد مال الجو العام في إسرائيل للتعامل مع الانتفاضة بقسوة وعنف ، وذلك لكي ينتهي منها ويحبط تأثيراتها السياسية . بل كان رئيس حزب الليكود اسحاق موداي قد اعلن انه سينهي الانتفاضة خلال اسبوع لو انتخب الليكود .(٨١) كما ان حزب ميلوديت العنصري تكون كرد فعل على تفجر الانتفاضة .

لكن التحول نحو اليمين لم يسمح لليكود ولا لشارون باستعادة مواقعه السابقة لحرب ١٩٨٢ . إذ تبين نتيجة لانتخابات ١٩٨٨ أن إسرائيل مضطرة ثانية لتشكيل حكومة إئتلاف وطني . ففي انتخابات ١٩٨٨ حقق الليكود ٤٠ مقعدا ، يضاف اليها ٧ مقاعد لاحزاب يمينة علمانية (تحيا ،تزوميت ، موليديت) . أما حزب العمل فحقق ٣٩ مقعدا ، يضاف اليها ١٠ مقاعد لاحزاب قريبة من حزب العمل(راتز ،مابام ،شينوي) . أما الاحزاب العربية والتي لا ينظر اليها كاحزاب يمكن التحالف معها في ظل حكومه ائتلاف يشارك بها الليكود فحققت ٦ مقاعد .

لهذا أمسكت الاحزاب الدينية العصا من الوسط ، فهي في مجموعها حققت ١٨ مقعدا . إذ حقق الحزب الوطني الديني (المفدال) المتحالف مع الليكود ٥ مقاعد ، وحقق شاس المعبر عن اليهود الشرقيين ٦مقاعد ، وحقق اغودات اسرائيل الاورثوذكسي والمتحالف مع الليكود منذ ١٩٧٧ ، ٥ مقاعد ، وحقق ديغيل هاتوراه المنشق عن اغودات والذي يميل للحل السلمي مع العرب مقعدين .

ان هذا الوضع لم يسمح لكل حزب من الاحزاب الرئيسية بتشكيل حكومة لوحده ، وبما ان كل واحد منها سيحتاج لعدد كبير من الاصوات في الكنيست ليؤلف حكومة بقيادته ، فالمساومة مع الاحزاب الصغيرة في الكنيست وخاصة الدينية كانت ستكون أكبر .(٨٢) ومن المعروف أن الاحزاب الدينية ، التي يغلب عليها التفكك وميلها لتأييد الطرف الاقوى في التحالف الحاكم ، تهتم أساسا بكسب المزيد من المواقع والتطبيقات الدينية الشرعية مثل تعريف اليهودي .(٨٣) كل هذا ادخل اسرائيل في أزمة وزارية حقيقية اضطر على اثرها الحزبان للعودة الى حكومة اللاقرار والترميم . لكن هذه المرة في ظل الانتفاضة الفلسطينية . لقد قرر الحزبان تشكيل الحكومة الائتلافية فور إعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية وبدء الحوار معها . ولا شك أن لهذا مغزى كبير من حيث أثر الانتفاضة على السياسة

الاسرائيلية ولكن من حيث سعي اسرائيل لايقاف او تعطيل هذا الاعتراف عند اول منعطف .

ان إصطدام القوة الاسرائيلية وحكومة الائتلاف الوطني الثانية بقوة الانتفاضة وقدرتها على التحمل بدأ يتحول الي عامل تاريخي هام في تكثيف أزمة السياسة الاسرائيلية . إذ بدأت السياسة الاسرائيلية تكتشف ان الانتفاضة اعمق من أن تصفى بالقوة . وقد عبر هذا عن نفسه عبر تصريحات الجنرال دان شمرون رئيس الاركان ، والجنرال ميتزنا قائد المنطقة الوسطى .(٨٤) لهذا وفي ظل الانتفاضة وإستمرارها وفشل تصفيتها بدأت اسرائيل تنقسم على نفسها . وبدأت تتلاشى الاحلام بإمكان إحتلال الضفة الغربية وقطاع غزةالى ما لا نهاية . وعاد الخط الاخضر الفاصل بين إسرائيل ١٩٤٨ والاراضي الفلسطينية المحتلة عام ١٩٦٧ ، والذي كان الليكود قد بشر أنصاره بانه زال الى الابد ، ليكون خطا فاصلا بين مناطق الفلسطينيين التي مازالت تمتلك هويتها وشرعيتها الفلسطينية السياسية العربية والاسلامية والمناطق الاسرائيلية التي نجحت إسرائيل في إنشاء دولتها عليها عام ١٩٤٨ . وهذا ما تعكسه الصحافة الاسرائيلية وما ينتشر بهدوء بين أعضاء الكنيست وفئات قيادية عديدة .(٨٥)

اذن مع اواخر الثمانينات بدأت الازمة التي تعاني منها إسرائيل في علاقتها بمشروعها الصهيوني وما ال اليه مشروع الليكود من ١٩٧٧ الى ١٩٨٣ تأخذ مجراها في ظل الانتفاضة . لقد سبب هذا قيام حالة جذب بطيئة في إسرائيل . لهذا يمكن الاستنتاج بأن الانتفاضة الفلسطينية تركت ، على المدى الاستراتيجي ، آثارا هامة على مستقبل الصراع العربي الاسرائيلي وعلى التحالفات الحاكمة في إسرائيل كما فعلت الحروب العربية الاسرائيليه .

وعلى سبيل المثال ، فمجرد أخذ إجراء قضائي إسرائيلي في زمن حكومه الائتلاف بحق من يلتقون بمنظمة التحرير يعكس حالة ضعف سياسي كبيرة ، لم تكن قائمة سابقا ، في صفوف السياسة الاسرائيلية . فإذا كانت منظمة التحرير شر مطلق وتستهدف جميع اليهود في العالم كما تؤكد الحكومة الاسرائيلية ، فلماذا تخشى السياسة الاسرائيلية هذه اللقاءات؟ حقيقة الموقف يعكس وعي شامير والليكود بالتحديد أن الطرف الاخر يمتلك "رسالة قد تكون قادرة على إختراق" الواقع السياسي الاسرائيلي .(٨٦)

من جهة اخرى ان مجرد اعلان حاخام اليهود الشرقيين السابق اوفاديا يوسف ، ابان زيارته لمصر في نوفمبر ١٩٨٩ ، انه حسب الديانة اليهودية يجوز التخلي عن الارض لصالح السلام ، تعرض الرجل لهجوم سياسي واعلامي عنيف من اليمين .(٨٧) وحينما نعرف أن الحاخام يوسف هو أحد قادة بل الملهم الروحي لحزب شاس الديني الذي تأسس عام ١٩٨٤ ليكون

حزبا معبرا عن اليهود الشرقيين ، فان تصريحاته تكتسب بعدا سياسيا مهما . فلقد حقق هذا الحزب نجاحاً سريعاً على حساب اغودات والمفدال المتحالفين مع الليكود . ولقد نزل شاس الانتخابات ضمن قائمة تدعو لاعادة أعطاء التراث الشرقي والحضارة الشرقية وزنهما . ولنمو شاس معان كبيرة على المدى البعيد ، خاصة حينما نعرف ان يهود اسرائيل الشرقيين ، المساهمين حتى الان في قوة حزب الليكود الانتخابية ، اكبر عددا من اليهود الغربيين .(٨٨)

ومع إستمرار الانتفاضة ، استمرت التحولات في الرأي العام الاسرائيلي نحو فرز المواقف يمينا ويسارا . اذ برز دعاة الحل السلمي الذين يأخذون بعين الاعتبار اهمية التنازل عن الارض في مواجهة الذين يقولون بعدم امكانية هذا التنازل . لكن الاهم هو ان هذين المعسكرين منذ بدء الانتفاضة ، وفي كل عام جديد كانوا يزدادون تباعدا نحو اليمين او اليسار .(٨٩) فأحزاب مثل ميلوديت ، تزوميت ، وتحيا اليمينية انتقلت ، بعد الانتفاضة ، الى القول العلني بالطرد الجماعي لجميع الفلسطينيين .(٩٠) كما أن الحزب الوطني الديني (المفدال) انتقل الى مواقع أكثر تشددا ، إضافة الى مواقف الليكود وقياداته . هكذا وجدنا ان معسكر اليمين مال اكثر إلى عدم المساومة مطلقا (تصريحات شامير من نوفمبر ١٩٨٩ حتى يناير ١٩٩٠ "الدولة الفلسطينية في الاردن" ، "لن نتراجع عن سنتمتر واحد " ، "نريد إسرائيل الكبرى لكي نوطن اليهود السوفييت")

اما معسكر الوسط واليسار فبدأ يميل للتحرك باتجاه الاعتراف ولو على مراحل وفترات بالحقوق الوطنية الفلسطينية . ففي حركة "السلام الان" حصل تحول كبير نحو الاقرار بحق الدولة الفلسطينية ، وبمنظمة التحرير كهيئة تمثل الشعب الفلسطيني . والجدير بالذكر أن جميع الحوارات الفلسطينية مع حركة السلام قبل الانتفاضة ، لم تقترب حتى مجرد إقتراب من الاعتراف الرسمي بمنظمة التحرير وحق الدولة الفلسطينية . لكن عاما واحدا من الانتفاضة كان كفيلا بتغيير المواقف التي لم تغيرها أحداث ٤٠ عاما .(٩١) نفس الشيء حصل في يسار حزب العمل وكذلك في بعض القوى الوسطية في الحزب . ولكن يمين حزب العمل(رابين) استمر على مواقفه الرافضة للمساومة مع اي طرف شرعي يمثل الفلسطينيين ، لكنه بنفس الوقت كان قد بدأ يعي أكثر من اي وقت مضى ضرورة الحل السياسي للمسألة الفلسطينيه . كما حصل تغير نسبي بين صفوف حزب شاس الديني ، إضافة لوقوع إنشقاق في الحزب الوطني الديني افرز الى الساحة السياسيه الاسرائيليه حزب مياميد الديني ، ذا الاتجاهات السلميه ، كما وتكون حزب ديفيل هاتوراه الديني الذي يميل للمساومة ، والمنشق عن اغودات اسرائيل ، الذي فاز بمقعدين في انتخابات ١٩٨٨ .

ومن الواضح أن القوى السلمية واليسارية اليهودية ، كسبت كثيرا في ظل الانتفاضة . فقد إنتقلت من حالة الجمود والضعف والانكفاء على النفس التي عرفتها بعد إنسحاب القوات الاسرائيلية من لبنان عام ١٩٨٥ ، الى حالة من الديناميكية اساسها وجود قضية سياسية تعمل لاجلها وتكسب الانصار من خلالها . فحركة السلام الان ، على سبيل المثال ، كانت تعاني من الجمود والضعف عام ١٩٨٧ الى أن جاءت الانتفاضة وأنعشتها . كما برزت العديد من القوى السلمية الجديدة التي لا يستهان بدورها خاصة على الصعيد المستقبلي . فبين الاساتذة والعلماء والاطباء تبرز إتجاهات واحيانا قوى تمارس دورا مؤثرا (٩٢) . فبينما لم يكن من الممكن في عام ١٩٨٣ جعل مثقفين إسرائيليين يحتجون أو يتضامنون مع الفلسطينيين ضد أسوأ معاملة في الاراضي المحتلة ، نجد أن هذا النوع من التضامن بدأ يأخذ مجراه في ظل الانتفاضة . أن يطلب ، على سبيل المثال ، رئيس الجمعية الطبية الاسرائيلية من رئيس الجمعية الطبية الامريكية في نيسان ١٩٨٨ بضرورة قيامه بالضغط على حكومة إسرائيل من أجل تأمين الحماية الصحية للفلسطينيين في الاراضي المحتلة يعكس بدايات قد يكون لها تأثير هام في المدى المتوسط . .(٩٣)

لقد انقسمت إسرائيل في ظل الانتفاضة ، وينعكس هذا الانقسام في صفوف جميع القوى الاسرائيلية . فالمدرسة الارضية التوسعية كانت تري ضرورة ابتلاع الارض بغض النظر عن النتائج . وتعتقد ان حكما ذاتيا محدودا سيفي بالغرض . بالمقابل فان المدرسة الديمغرافية الاسرائيليه التي ينبثق منها التيار السلامي ، كانت تخشى اكثر من اي وقت مضى من القنبلة الديمغرافية العربية واثر استمرار ١،٧ فلسطيني بالصراع عبر الانتفاضة الى مالانهاية ، كما وتخشى ، هذه المدرسة ، من امكان ان تنضم اليهم القوة التي يمثلها ٨٠٠ الف فلسطيني في الاراضي المحتلة ١٩٤٨ .(٩٤) من وجهة نظر هؤلاء فان اسرائيل كانت تسير نحو انفجار شامل وحرب اهلية يهودية واسرائيلية فلسطينية تشمل فلسطينيي ١٩٤٨ ، وربما صراع مسلح عربي اسرائيلي مع بعض الدول العربية (سوريا ، العراق) إضافة لامكان سقوط إتفاق السلام مع مصر .(٩٥) لهذا فحينما يكتب المحلل الاستراتيجي الاسرائيلي هاركابي عن ساعة اسرائيل المظلمة ، فهذا هو مقصده . وحينما ينشط دعاة السلام في إسرائيل فهم يخشون من هذا الاحتمال .(٩٦)

إن الليكود الذي استمر على مواقفه اليمينية المتطرفة لم يكن بعيدا عام ١٩٩٠ عن الضغط والتآكل . فحيروت (الغاهال) الذي إنسحب من حكومة الائتلاف الوطني عام ١٩٧٠

احتجاجا على الموقف الحكومي من خطة روجرز ، نجده في بداية تعرضه لعدوى الانقسام . فمواقف رئيس بلدية تل أبيب موشى لاهط في يناير ١٩٩٠ والتي قال فيها انه مستعد للقاء ياسر عرفات ، وان الكثيرين في الليكود يشاطرونه افكاره حول السلام مع منظمة التحرير ، تعكس هذا التشقق الذي لم يسبق له أن نال من وحدة حزب حيروت والليكود في المراحل السابقة .(٩٧) كما وأن إقتراح شمويل توليدانو المستشار السابق للشؤون العربية لدى رئيس الوزراء شاميرفي يناير ١٩٩٠ بإمكان قيام دولة فلسطينية مشروطة تنشأ على مراحل وذلك في إطار اتفاق مع منظمة التحرير وتأكيده على إنسحاب إسرائيل من معظم الاراضي المحتلة جدير بالاهتمام لما يعكسه من بداية تأثر ايديولوجية حزب حيروت بالانتفاضة واثارها .

وبنفس المقياس عكس إستطلاع نفذه معهد داراف الاسرائيلي أن ٥٠ بالمائة من الاسرائيليين ايدوا هذا المشروع في ذلك الوقت .(٩٨) كما أن تصريح إيلي لاندو (الليكودي) رئيس إتحاد رؤساء بلديات إسرائيل الذي أعلن عبره عن ضرورة التفاوض مع منظمة التحرير يعكس إستمرار التشققات في الليكود في ظل الانتفاضة .(٩٩) ولاشك أن مشكلة وايزمن الذي أدخل على نقاشات الحكومة الائتلافية مسألة المفاوضات المباشرة مع منظمة التحرير والذي أزعج رئيس الوزراء لدرجة فصله من الحكومة في يناير ١٩٩٠ ، ثم اعادته بشرط عدم مشاركته في الحكومة المصغرة ، يعد نصرا للتيار السلمي من حيث أن قضية المفاوضات مع منظمة التحرير من الجدية لدرجة أنها تؤثر على التحالف الحاكم وإستمراره .(١٠٠) ولقد أدى سقوط الحكومة الاسرائيلية الائتلافية في مارس ١٩٩٠ الذي جاء كنتيجة لتكثيف الازمة ليشكل اول تفسخ جدي في السياسة الاسرائيلية ناتج عن الصراع المباشر مع الشعب الفلسطيني .

إسرائيل عبر تكتلات اليمين فيها كانت تقاوم عام ١٩٩٠ بشدة مرحلة السلام التي فتحتها الانتفاضة المنطلقة في ظل أزمة الصهيونية ، والمتداخلة مع التوجه العالمي الجديد ، وتغير شكل العلاقة السوفياتية الامريكية بحيث لم يعد هناك حاجة لكيان يضرب المنطقة العربية في إطار الصراع السوفياتي الامريكي . وكانت اسرائيل تقاوم ،ضمن هذا الاطار ، كل ما قد يؤدي الى خلخلة مواقفها لصالح قبولها بمنظمة التحرير أو بانتخابات جدية محمية دوليا في الاراضي المحتلة تساهم ، ولو بعد مرحلة زمنية ، في التطور نحو دولة فلسطينية . وهي سعت عبر تحالفها الحاكم ، وخاصة الجانب الليكودي منه ، لتفادي اي إحتمال قد يوصلها الى مجرد الحديث مع منظمة التحرير ، لان ذلك يتضمن أحتمال الاقرار في آخر الطريق بالحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني . ان السلام يعني تقليص إسرائيل الكبرى ، و يحمل

تحديات الانسجام الاسرائيلي مع الحضارة العربية والاسلامية الاكبر .

من الواضح أن تاريخ السياسة الاسرائيلية تجاه قضية الامن والارض قد وضعها في ازمة . فهي ان ارادت الانسحاب من الارض المحتلة ، سوف تجد انها غير قادرة على تنفيذ ذلك بلا حكومة قوية وإجماع وطني وضغط دولي وعربي وفلسطيني هائل . وهي ان ارادت البقاء في الاراضي المحتلة الى ما لانهاية ، ستجد نفسها تواجه شعبا مصمما على نيل حقوقه بل ونيل المساواة الكاملة في العلاقة مع إسرائيل والنظام العالمي . فهي ان لم تنسحب ستتحول الى جنوب افريقيا مما سيجعلها دولة غير يهودية وفي المسار التاريخي ، اي دولة ثنائية القومية ، وثنائية اللغة والعلم ، والنشيد الوطني والجيش .(١٠١) وهذا بالتأكيد سوف يلغي الصيغة اليهودية والصهيونية التي عرفناها تاريخيا . وهي ان ارادت الانسحاب تواجه صراعا يهوديا يهوديا حول الانسحاب والسلام مع العرب . هذه ازمة اسرائيل عام ١٩٩٠ . كانت في حالة لاقرار وفرز داخلي سريع وتوجه نحو صراع داخلي اعمق .

وفي مأزقها هذا كانت اسرائيل حتى عام ١٩٩٠ ، تتناقض مع نفسها ومستقبلها ومع التيار الجديد الذي يسود العالم . لهذا لم تكن اسرائيل في صدد الوصول لحالة الاجماع حول القضية الفلسطينية وحلها في اطار مقبول نسبيا من قبل اغلبية الفلسطينيين . وهذا بالتأكيد وتحت كل الظروف كان يستلزم حكومة اسرائيلية قوية تتمتع بإجماع وطني إسرائيلي . وهو امر كان مفقودا طوال الحقبة من عام ١٩٨٤ وحتى عام ١٩٩٠ .

لكن انقسام اسرائيل ، كان يبشر عام ١٩٩٠ وكما توقعنا حينها ، بتكون ائتلاف اسرائيلي جديد يكون ذو اتجاه سلمي . وكان ذلك يتوقف على استمرار الانتفاضة ومقدرتها على إمتصاص جميع الضربات الاسرائيلية وعلى مقدرة منظمة التحرير على إدامة تحركها السياسي والميداني على جميع الاصعدة بما فيها على صعيد الرأي العام الاسرائيلي نفسه . كما ويتوقف على الموقف العربي وجديته في دفاعه عن أمنه القطري والقومي تجاه آفاق المغامرة اليمينية الاسرائيلية .

لكن لسوء حظ الشرق الاوسط والعرب والفلسطينيين ، وقوع الغزو العراقي على دولة الكويت ، لتختلط بعد ذلك كل الاوراق في اطار جديد . فقد توحد المجتمع الاسرائيلي كما والدوله لمواجهة التمدد العراقي الجديد ، كما اصطفت منظمة التحرير في المكان الخطأ متبعة السياسة الخطأ في تلك الازمة . كما واصطف الكثير من المثقفين العرب القوميين والاسلاميين بالاتجاه الخاطيء ، مما ترك اسوأ الانطباعات في الشارع الخليجي والكويتي عن القومية والتضامن

والقضايا العربية التي ناصرها على مدى العقود . في ظل كل هذا عانى العالم العربي من اسوأ انقسام في تاريخه الحديث ، واصبح الحشد لتحرير الكويت هو عنوان المرحلة . هكذا في اوج حرب تحرير الكويت ، وفي اطار سقوط الاتحاد السوفياتي المدوي ، كانت تدشن مرحلة جديدة يسودها التشوش والتخوف في العلاقات العربية العربيه . لقد قادت مغامرة العراق في الكويت الى استخدام القضايا العربية وعلى رأسها القضية الفلسطينيه استخداما نتج عنه تراجع كبير في وضع القضية الفلسطينية وفي وضع الانتفاضة ، وفقدان للاجماع الذي تمتعت به في الضمير الخليجي والعربي العام .

الا ان نتيجة تلك الحرب والمواجهة لم تكن بلا ايجابيات رغم ان الغزو العراقي على دولة الكويت ترك ازمة عميقة في العلاقات العربية العربية . لكن الرد على ذلك الغزو كان لابد من ان يخلق وقائع سياسية جديدة . لهذا ففي اعقاب حرب الخليج ، بدأت مفاوضات مدريد برعاية امريكية روسية . ولكن تلك الرعايه لم تستطع تجاوز العقدة الاهم في السياسة الاسرائيلية : اليمين كان ما يزال حتى عام ١٩٩١ في السلطه ، وكان يتحكم بمقاليد الامور ، وكان شامير هو رئيس وزراء اسرائيل الذي قبل بدعوة مدريد على مضض وبهدف افشالها .

انتخابات ١٩٩٢ في اسرائيل :
بدايه التغير

بانتخابات الكنيست الثالث عشر في ٣٢ يونيو ١٩٩٦ في اسرائيل ، حقق حزب العمل فوزا محدودا سمح له بانتزاع الحكومة من الليكود لاول مرة منذ عام ١٩٧٧ . هذا الانتصار شكل بداية تغير تاريخي بالاتجاه المعاكس لذلك الاتجاه اليميني الذي ساد منذ العام ١٩٧٧ . اذ نجح اسحاق رابين بتشكيل حكومة اغلبية لا تتجاوز ٦١مقعدا في مواجهة معارضة تتشكل من ٥٩ مقعدا لليكود وانصاره . لهذا جاءت انتخابات ١٩٩٢ لتؤكد بأن الاسرائيليين مازالوا منقسمين بشكل رأسي واضح ، بين من يؤيد اسرائيل الكبرى التوسعية وبين من يؤيد قيام اسرائيل الصغرى التي تتنازل عن الارض لتحصد السلام والاستقرار .

وقد حقق في هذه الانتخابات الصوت العربي الذي عبر عنه الحزب الديمقراطي العربي ، الذي فاز بمقعدين ، والجبهة الديمقراطيه للسلام والمساواه (هداش) الفائزة بثلاثة مقاعد تقدما هاما في ظل تقدم العمل . هؤلاء سويا حققوا لحزب العمل الخمس مقاعد في الكنيست التي سمحت لرابين بتحقيق الاغلبية المحدودة لتشكيل الحكومة اي ٦١ مقعدا . هكذا لاول مرة في

تاريخ اسرائيل كان الصوت العربي الفيصل في اعادة العمل للسلطه .

وقد تشكلت الاغلبية الجديدة في حكومة حزب العمل من حزب العمل الفائز بـ ٤٤ مقعدا ، وحزب ميريتز الجديد و الفائز بـ ١٢ مقعدا . وميريتز تجمع سلمي نشأ قبل الانتخابات مباشرة من ثلاث قوى سبق وان حظيت اثنتان منها بمقاعد في الكنيست . وهي المابام وحركة حقوق المواطنين (راتز) ، وحزب شينوي . هؤلاء سوية اصبحوا قوة رئيسية في مساندة حكومة العمل من خلال مقاعدهم الاثني عشر . وكما وسبق وذكرنا ، حقق الحزبين العربيين خمسة اصوات . هكذا اصبح المجموع ٦١ مقعدا ، اي النصف زائد واحد من الكنيست البالغ ١٢٠ مقعدا .(١٠٢)

في المقابل حقق الليكود ٣٢ مقعدا اي بخسارة ثمانية مقاعد عن انتخابات ١٩٨٨ . كما وحقق حزب تسوميت اليميني والمتحالف مع الليكود بقيادة رفائيل ايتان تقدما واضحا اذ حصل على ٨ مقاعد ، ، وحقق ميلوديت اليميني ٣ مقاعد . اما الاحزاب الدينية والمتحالفة مع الليكود فقد حققت لنفسها ١٦ مقعدا(بخسارة مقعدين عن انتخابات ١٩٨٨) ، اذ نجح الحزب الوطني الديني (المفدال) المتحالف مع الليكود منذ انتصاره عام ١٩٧٧ بانتزاع ستة مقاعد ، اما حزب شاس الديني اليهودي الشرقي فأخذ ستة مقاعد ، وحقق اغودات اسرائيل الارثوذكسي المحافظ الذي اصبح اسمه بعد ان تحالف مع حزب صغير ديني اخر هو حزب التوراة اليهودية الموحده United Torah Judaism ٤ مقاعد . ان هذا يعطي ما مجموعه ٥٩ مقعدا لليمين . لكن علينا ان نأخذ بعين الاعتبار ان حزب شاس الذي يعبر عن اليهود الشرقيين ،لا يشاطر اليمين كل ارائه ، وانه مرشح في المستقبل لتغير في دوره . بل ان اطراف اخرى من الاحزاب الدينية مرشحة لتغير موقفها من العمل والسعي لاخذ مكاسب في حكومات قادمه يشكلها العمل لصالح التطبيقات الدينيه اليهوديه عوضا عن اضاعة جهودها في دعم الليكود واليمين العلماني .

ان انتصار العمل عبر عن حالة جديدة . فهو في الجوهرشكل انتصاراً لخط الاعتدال النسبي في اسرائيل على خط التطرف . اذ تعزز التيار الاسرائيلي الذي يعتبر المفاوضات مفيدة وبناءة في اطار مستقبل اسرائيل وسلامها مع جيرانها . وهكذا في هذه الانتخابات وعلى الصعيد المرحلي على الاقل تم نزع فتيل الفشل والسير المتردد عن مسيرة السلام العربية الاسرائيلية كما كان الوضع في ظل قيادة شامير الليكودي .

و لو فاز الليكود في انتخابات ١٩٩٢ بقيادة شامير لكانت مفاوضات السلام العربية الاسرائيلية قد راوحت مكانها على جميع الجبهات . ولو جاءت حكومة ائتلافية من الليكود

والعمل لتشكلت حكومة اسرائيلية فاقدة للقدرة على اخذ قرار جاد في شأن التفاوض او وقف الاستيطان او الانسحاب . وبالتأكيد لو انتصر الليكود لكانت حالة التفجير بين الاطراف العربية واسرائيل قد تحولت الى حالة صراع لا نتيجة ترجو منه سوى الانتظار لاربعة سنوات اخرى قبل التقدم في شؤون التفاوض وبناء السلام العربي الاسرائيلي .

ان نجاح حزب العمل في انتخابات ١٩٩٢ ، شكل عامل قوة للسياسة الامريكية ودورها في مؤتمر السلام ، وصب لصالح وجهة النظر المصرية التي تقول ان بدء التفاوض مع اسرائيل وبدء العملية السياسية سيفرز قوى في اسرائيل تريد ان ترى نتيجة لهذا التحرك السياسي التاريخي . ان هذه الانتخابات ، اذن ، نجحت في تخفيف(ولا نقول انهاء او لجم) حالة التفجير الشاملة التي بدأت تطل عبر لبنان الجنوبي ، والصراع السوري الاسرائيلي ، والاوضاع المتردية في الاراضي المحتلة .

وتدل الانتخابات ان الناخب الاسرائيلي بدأ يفهم ان العالم تغير ، وان اسرائيل لم تعد تحظى بنفس التعاطف التاريخي الذي حظيت به في الماضي ابان الانقسام الدولي لمعسكرين متناحرين . وتبين له ان الولايات المتحدة في طريقها الى تغيير بعض مرتكزات سياستها في الشرق الاوسط ، بما في ذلك علاقاتها العربية الجديدة ودورها المكتسب في الخليج بعد الحرب . بل ان شرط استمرار علاقة الدفء والدعم الامريكي لاسرائيل يقوم اساسا على عدم قيام اسرائيل بتخريب الدور الامريكي في الشرق الاوسط ، او حتى القيام باعمال وممارسات تصب لصالح التطرف في الشرق الاوسط . هكذا تبين للناخب الاسرائيلي ان التأقلم مع حاجات ومتطلبات التغيرات الدولية والاقليمية يستلزم قيادة اكثر استعدادا للحوار واكثر فهما لطبيعة التفكير الدولي .

ولكن هذه الانتخابات عبرت عن تغيرات هامة في تصويت اليهود الشرقيين واتجاهاتهم . فقد اصيبوا ايضا بخيبه امل ، خاصة بعد ان تراجع دور دافيد ليفي وهو من قادة الليكود ، الذي عمل وزيراً للخارجية في حكومة شامير . اذ ان ليفي المغربي الاصل الذي كان يسعى لايجاد طريق وسط في مسأله السلام كان ضحية تحالف الغربيين في الليكود لابعاده وابعاد تأثيره . هذا ادى الى حالة احباط بين مؤيدي الليكود الشرقيين ، وهم كتلة كبيرة من السكان . لقد ادى هذا الامر الى خروج ليفي من تكتل الليكود وتشكيل تكتل خاص به .

ان انتخابات ١٩٩٢ ، شكلت اهمية خاصة في اعقاب حرب الخليج . فالناخب الاسرائيلي اكتشف ان العالم العربي والاسلامي ليس اطارا هلاميا متحدا في مواجهته . بل في الثمانينات وقعت الحرب العراقيه الايرانيه وهي بين مسلمين ، وعام ١٩٩٠ وقع العدوان

العراقي على دولة الكويت وهي دولة عربية . بل وتبين ان ترسانة اسرائيل المسلحة ، كانت تقف على الحياد في ظل هبة دول العالم لمساعدة دول الخليج والشعب الكويتي ابان تلك الكارثه . لم تعد القصة ان العراق يريد ان يدمر اسرائيل ، ولم تعد الاطروحة ان العرب يشكلون وحشا يود ان يدمر اسرائيل . بل لاول مرة تبين للجميع ان جميع الاوراق قد اختلطت ، ومن نتائج هذه الاختلاطات ان العرب كانوا في صفين وجبهتين ، وان اسرائيل الكماشة القوية كانت في موقف المشاهد الذي احتاج حماية الولايات المتحدة العسكرية مثلما احتاجتها دول عربية اخرى .

ان انتخابات ١٩٩٢ اعطت حزب العمل فوزا محدودا ليجرب طريقه وخطه السلمي الجديد . وكان العمل قد اختبر سنوات حكم الليكود واليمين ، لهذا كان منذ فوزه مستعدا للدخول بقوة في المسيرة السلمية ، تلك المسيرة التي ستتحول مع الوقت لصالحه في كسب وتعزيز فوزه واخذ تفويض من الشعب الاسرائيلي للانسحاب من الاراضي العربيه المحتله عام ١٩٦٧ وتحقيق اتفاقيات سلام مع العالم العربي بكل ما لذلك من فوائد سياسيه واقتصاديه على اسرائيل . وهذا ما بدأ بيرز على مراحل منذ انتخابات ١٩٩٢ . و يمكن تصنيف التاريخ الاسرائيلي : من ١٩٤٨-١٩٦٧ جمهورية اولى ، ومرحلة ١٩٧٧-١٩٩٢ جمهورية ثانية ، وانتخابات ١٩٩٢ اسست للجمهورية الثالثة التي دُشنت بتحديد وتقليص دور اليمين المتطرف . (١٠٣)

انتخابات ١٩٩٦ : عودة اليمين

شكلت الانتخابات الاسرائيليه (١٩٩٦) خيبة امل كبيرة لكل المؤيدين للسلام في العالم العربي وفي عواصم العالم من اوروبا الى الولايات المتحدة . وبينما كان بيريز يتقدم في بداية الانتخابات ، الا ان المفاجأة الاكبر جاءت في تراجعه التدريجي وخسارته لواحدة من اهم الانتخابات الاسرائيليه بفارق لم يتجاوز ٣٠ الف صوت . فعمليا اخذ بيريز ١،٤٧١،٥٦٦ من الاصوات بنسبة ٤٩،٥ ٪ من الاصوات ، واخذ نتنياهو ١،٥٠١،٠٢٣ صوت بنسبة ٥٠،٤٪ من الاصوات ليتحول الى رئيس وزراء اسرائيل الجديد . وقد عكست هذه الانتخابات مدى انقسام الاسرائيليين حول السلام ، فالفارق بين نتنياهو وبيريز لم يكن ليعكس الا شرخا كبيرا في المجتمع الاسرائيلي .

وهذه الانتخابات كانت الاولى من نوعها في تاريخ اسرائيل ، اذ صوت كل ناخب

اسرائيلي باتجاهين : الاول لرئيس الوزراء بشكل مستقل ، والثاني لاحد اللوائح الواحدة والعشرين المتنافسة على مقاعد الكنيست الاسرائيلي . فهذه الانتخابات أعطت لرئيس الوزراء الاسرائيلي قوة سياسيه تسمح له بالتصرف باستقلال نسبي عن الاحزاب والتيارات التي يتشكل منها الكنيست الاسرائيلي . ولكنها من جهة اخرى عكست مدى تشرذم الهموم المحلية في المجتمع الاسرائيلي . اذ ان النتائج كانت لغير مصلحة الحزبين الكبيرين ولمصلحة الاحزاب الاصغر التي تعبر عن مصالح فئوية . وقد توزعت النتائج بالشكل التالي :

فلقد حقق الليكود لنفسه ٣٢ مقعدا ، ولكن من ضمن هذه المقاعد هناك خمسة لحزب ديفيد ليفي(الجسر)وهو يعبر عن تيار اليهود الشرقيين ، وهناك خمسة لحزب ايتان اليميني(تسوميت) الرافض لكل اطروحة انسحاب من الاراضي المحتلة والجولان . وقد اعتبرت هذه المقاعد العشرة جزء من لائحة اللكيود وكثمن لقبول ديفيد ليفي عدم الترشيح على رئاسه الوزراء ،وكثمن لانضمام رفائيل ايتان لتحالف الليكود في هذه الانتخابات . اذن يمكن القول ان الليكود الحقيقي حقق ٢٢ مقعدا .

ويضاف إلى اليمين الحزب الوطني الديني الذي حقق ١٠ مقاعد ، وهو حليف قديم وطبيعي لليكود يقوم برنامجه على ابقاء كل الا رض بما فيها مناطق الضفة وغزة تحت السيطرة الاسرائيلية . كما حقق حليف اخر لليكود من الاحزاب الدينيه وهو حزب التوراة اليهودية الموحدة اربعة مقاعد . وهذا يعني ان الليكود وحلفاءه الرئيسيين حققوا ٤٦ مقعدا .

اما جبهة السلام الاسرائيلية فحققت في الانتخابات للكنيست ٥٢ مقعدا . اذ حقق حزب العمل ٣٤ مقعدا ، وحقق حليفه اليساري ميريتز ٩ مقاعد ، كما حقق العرب في حزب " الجبهة الديمقراطيه للسلام والمساواة" هداش ٥ مقاعد ، وحققت القائمة العربية الموحدة ٤ مقاعد . وهذا يعني ان القوى السلمية قد حققت في الكنيست نسبة اكبر من القوى اليمينية والمتعصبة ، وهذا امر له تبعات على السياسة الاسرائيلية القادمة والتحديات التي سيواجهها برنامج نتنياهو .

ويتبقى في الكنيست الاسرائيلي ٢١ مقعدا ذهبوا لاحزاب وسطية لم تحدد ابان الحملة الانتخابية موقفا واضحا في تأييد الليكود ام العمل . وهي احزاب بامكانها ان تتأرجح حسب الظروف وتلبية مصالحها من قبل الحكومة . وهذا ينطبق على حزب شاس الديني الذي حقق ١٠ مقاعد و الذي تتشكل قاعدته الاساسية من اليهود المغاربه . وينطبق الامر نفسه على حزب المهاجرين اليهود (اسرائيل بعاليا) الذي حقق لنفسه ٧ مقاعد . وجل اهتمام هذا

الحزب ينصب على تحسين احوال ومعيشه اليهود القادمين من شرق أوروبا ومن روسيا . اما الحزب الثالث فهو حزب الطريق الثالث الذي حقق اربعة مقاعد . وحزب الطريق الثالث انشق اساسا عن العمل ويعارض الانسحاب من الجولان المحتل بالتحديد دون ان يعارض بقيه الاتفاقات السلميه . (١٠٤)

ومن الواضح ان الخوف الاسرائيلي الشعبي من ان يكون العمل قد قدم الكثير من التنازلات لصالح العرب مؤذيا بذلك افاق الامن الاسرائيلي التي انكشفت في هجمات حماس والجهاد الاسلامي على تل ابيب والقدس ، وهي احد اهم الاسباب التي دعت الكثير من الاسرائيليين المؤيدين للسلام ليغيروا موقفهم وينتخبوا زعيما يمينيا متصلبا . الخوف قد يكون شعار هذه الانتخابات التاريخية في اسرائيل .

فلو استعرضنا انجازات عهد رابين وبيريز اسرائيليا ، لوجدنا ان كل الظروف كانت مهيأة لانتصار بيريز . ففي عهد العمل من عام ١٩٩٢ ازدادت علاقات اسرائيل العالمية ، وتحسن الوضع الاقتصادي الاسرائيلي من حيث هبوط البطاله من ١٠٪ الى ٥٪ . وفي عهد العمل استوعبت اسرائيل استثمارات سنوية بحدود الملياري دولار . واعتبر الرأي العام ان مجيء وفود عربية لاسرائيل ومشاركة اسرائيل في مؤتمرات في دول عربية ، بالاضافه الى تحقيق سلام مع الاردن والفلسطينيين وافاق السلام مع بقيه العرب كانت كلها نقاط لصالح العمل . كما ان مقتل رابين نفسه عمل لمصلحه العمل وافاق اعاده انتخابه . اذن مالذي حصل .؟

يمكن القول ان العمليات التي نفذتها حماس والجهاد الاسلامي في القدس وتل ابيب في مارس ١٩٩٦ ، قد اصابت الرأي العام الاسرائيلي بالتغيير . بل من الواضح ان نتنياهو الذي كان قد انزوى منذ مقتل رابين قد عاد للظهور بعد عمليات حماس ، وبعد عمليات عناقيد الغضب وبعد بروز صعوبات تأليف وتشكيل اللجنة الامنيه لجنوب لبنان . وقد استغل نتنياهو بذكاء مثلا حديث الرئيس عرفات عن "الجهاد" ، وخروج مئات الالوف من سكان غزة لتشييع المهندس عياش الذي اغتالته المخابرات الاسرائيليه . لقد استغل نتنياهو كل شيء استطاع ان يستغله ليؤكد ان رغبة العرب بالسلام مهزوزه وشكلية وان المرحلة القادمة تتطلب التركيز الاكبر على الامن قبل الاستمرار في السلام .

وقد جاء تشكيل الحكومة الاسرائيلية ليعكس الوضع الجديد . فقد عقد نتنياهو مساومات عديدة ليدخل في حكومته مجموعات متناقضة تجمع الاتجاهات الدينية بتناقضاتها مع اجنحة الليكود من اقصى اليمين المتطرف الى اليمين المعتدل . فالتناقضات بين نتنياهو وبين ديفيد ليفي الذي انضم اليه بفضل جهود شارون الكبيره . كما ان مطالب الاحزاب الدينيه في

الشؤون الدينيه تفرض نفسها في مجتمع يسعى للحفاظ على شكله الغربي . كما ان التناقضات بين شارون وايتان من جهة وعدد اخر من اركان الحكومة بما فيها نتنياهو قد تهدد الحكومة واستقرارها . لهذا يجد نتنياهو نفسه انه وسط قوى تؤثر عليه في اتجاهات عديدة مما يجعل تجربه الحكومه الجديده محفوفه بالتحديات والازمات . وقد جاء تشكيل حكومة الليكود الجديدة في ١٨-يونيو ١٩٩٦ على الوجه التالي : (١٠٥)

رئيس الوزراء ينيامين نتنياهو **"الليكود"**
وزير الخارجية ديفيد ليفي **"الجسر (اليهود المغاربة)"**
الدفاع إسحق موردخاي **"ليكود"**
المالية دان ميريدور **"ليكود"**
العلوم والتكنولوجيا بنيامين بيغن **"ليكود"**
الصحة تساهي هانغبي **"ليكود"**
السياحة موشى كتساف **"ليكود"**
العدل يعقوب نئمان **"ليكود"**
الاتصالات ليمور لفنات **"ليكود"** .
الزراعة والبيئة رفائيل ايتان **" تسوميت"**
الأمن الداخلي إبيغدور كهلاني **"الطريق الثالث"** .
التجارة والصناعة ناتان شارنسكي **" إسرائيل بعليا(المهاجرين الجدد روس وغيرهم)"** .
الاستيعاب يولي آيدلشتاين **" إسرائيل بعليا(المهاجرين الجدد روس وغيرهم)"**
النقل والطاقة إسحق ليفي **"الحزب الوطني الديني"**
التربية والأديان زفولون هامر **"الحزب الوطني الديني"**
العمل والشؤون الاجتماعية إيلي أشايي **"شاس"** .
الداخلية إيلي سويسة **"شاس"**
الإسكان مئير بورروش **حزب التوراة اليهودية الموحدة** .

ان انتصار الليكود لم يكن مطلقا وقد تم ضمن ظوابط محدده ، (سوف نشرحها في الفصل القادم) لن يستطيع الليكود تجاوزها . فالمرحلة الرئيسية هي مرحلة سلام ، والخلاف والصراع بين القوى العربية واسرائيل سوف يكون على اشده في مجالات متوترة واخرى تنافسية حول

شروط السلام . السلام اذن هو الوجه الرئيسي والاساسي للمرحلة القادمة ، اما نتنياهو فهو يغير بعض شروط اللعبة وبعض شروط التفاوض ، ولكنه لا يغير اللعبة والوضع الشامل . ويمكن القول بنفس القوه انه بأمكان العرب ايضا ان يغيروا بعض شروط اللعبة من خلال طرح شروطهم وتصوراتهم في اطار تضامن سياسي عربي حول التسويه . لهذا بانتخاب نتنياهو بدأ السباق نحو السلام يأخذ جانبا اكثر حده ، وبدأ يدور بجديه اكبر حول الشروط النهائيه للسلام ، وهذا ما يجب أن يتنبه اليه العرب فيتهيأوا للتأثير بالمعادله(لا الخروج منها) وذلك بما يخدم قضاياهم ومصالحهم .

هوامش الفصل الرابع

١- H. Sachar, A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time, New York: Alfred & Knop,1979, p 159.

٢- S. Eisenstadt, The Transformation of Israeli Society: An Essay in Interpretation. Boulder: Westview Press,1985,pp 181,187.

٣- Ibid,p.176

٤- Sachar,A History,1979, pp. 544-548

٥- Ibid,pp. 547-548

٦- B. Kieval,"The Foreign Policy of the Labor Party." , in B. Reich & R. Kieval (Eds.), Israeli National Security Policy: Political Actors and Perspectives. New York: Greenwood Press, 1988, p.27.

٧- L. Weissbrod "Binationalism Reconsidered: Ideological Continuity and Change in the Begin Era." in I. Peleg and O.Seliktar (Eds.), The Emergence of a Binational Israel. Boulder, CO: Westview Press.1989 p.41; Kieval,"The Foreign Policy of the Labor Party." 1988, p 26

٨- Don Peretz, "Israeli Policies Toward the Arab States and the Palestinians Since 1967." in Y. Lukacs & A. Battah (Eds.), The Arab Israeli Conflict: Two Decades of Change. Boulder: Westview Press, 1988, p. 27.

٩- I.Lustick, "The Political Road to Binationalism: Arabs in Jewish Politics." in I. Peleg & O. Seliktar (Eds.), The Emergence of a Binational Israel. Boulder: Westview Press,1989,p. 103.

١٠- B. Kieval,"The Foreign Policy of the Labor Party." , p.27

١١- L. Weissbrod "Binationalism Reconsidered: Ideological Continuity and Change in the Begin Era."1989,p.41

G. Aronson Creating Facts: Israel. Palestinians and the West Bank. Washington, D.C.: Institute for Palestine Studies, 1987, p14-16

١٢- Don Peretz, "Israeli Policies Toward the Arab States and the Palestinians Since 1967.",1988, p 29.

B. Kieval,"The Foreign Policy of the Labor Party." ,p.27.-١٣

Don Peretz, "Israeli Policies Toward the Arab States and the Palestinians Since-١٤ 1967.",1988, pp.28-29

B. Kieval,"The Foreign Policy of the Labor Party.",p.29-١٥

O.Seliktar, "Conceptualizing Binationalism: State of Mind, Political Reality, or Legal En- -١٦ tity?" PP.3-38 in I. Peleg & O. Seliktar (Eds.), The Emergence of a Binational Israel. Boulder: Westview Press,1989,p26.

B. Reich,"Israeli National Security Policy: Issues and Actors." in B. Reich & R. Kieval (-١٧ Eds.), Israeli National Security Policy: Political Actors and Perspectives. New York: Greenwood Press,1988,p.5.

E.Sprinzak, "The Emergence of the Israeli Radical Right", Comparative Politics, 21 (Jan- -١٨ uary1989): 173;

R.Issac, Israel Divided: Ideological Politics in the Jewish State, Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1976, 46-47.

Sprinzak,"Extremist Inputs Into Israel's Foreign Policy: The Case of Gush Emunim" in B. -١٩ Reich & R. Kieval (Eds.), Israeli National Security Policy: Political Actors and Perspectives. New York: Greenwood Press,1988,125

Lustick,"The Political Road to Binationalism: Arabs in Jewish Politics."1989: 103.-٢٠

Y. Harkabi, Israel's Fateful Hour. New York: Harper & Row,1988,p.81. -٢١

D. Horowitz, M. Lissak,"Democracy and National Security in a protracted Conflict." Je- -٢٢ rusalem Quarterly 51 (Summer 1989): 10.

S.Aronson, "Fragmentation and Polarization in Greater Israel: Political Behavior in Per- -٢٣ petual Crisis." in I. Peleg & O. Seliktar (Eds.), The Emergence of a Binational Israel. Boulder: Westview Press,1989,pp.83;

B. Reich "Israeli National Security Policy: Issues and Actors." in B. Reich & R. Kieval (Eds.), Israeli National Security Policy: Political Actors and Perspectives. New York: Greenwood Press,1988, p4.

S.Aronson, "Fragmentation and Polarization in Greater Israel: Political Behavior in Per- -٢٤

petual Crisis.",1989,p.83; H. Sachar, A History of Israel (Volume II): From the Aftermath of the Yom Kippur War. Oxford: Oxford University Press,1987,pp.18-20.

B. Reich "Israeli National Security Policy: Issues and Actors." ,1988,6; -٢٥

G. Wolfsfeld, The Politics of Provocation: Participation and Protest in Israel. Albany: State Universtiy of New York Press,1988).

R.Issac, Israel Divided: Ideological Politics in the Jewish State, 1976, pp. 143-146. -٢٦

B. Kieval,"The Foreign Policy of the Labor Party.", 1988, p.30 -٢٧

Ibid-٢٨

Ibid,pp. 30-31-٢٩

Y. Harkabi, Israel's Fateful Hour, 1988,p.82. -٣٠

Sprinzak, " The Emergence of the Israeli Radical Right", 1989,p 172. -٣١

M. Roumani, "The Ethnic Factor in Israel's Foreign Policy," in B. Reich & R. Kieval (-٣٢ Eds.), Israeli National Security Policy: Political Actors and Perspectives. New York: Greenwood Press, 1988, pp.82-83.

Sprinzak,"Extremist Inputs Into Israel's Foreign Policy: The Case of Gush Emunim" in B.-٣٣ Reich & R. Kieval (Eds.), Israeli National Security Policy: Political Actors and Perspectives. New York: Greenwood Press,1988, p. 126

M.Jansen, Dissonance in Zion, London: Zed Books Ltd. -٣٤

Janson,1987,p.50-76).;

I.Lustick,"Israel's Dangerous Fundamentalists." Foreign Policy 68 (Fall 1987): 118-139;

I. Lustick, For the Land and the Lord: Jewish Fundamentalism in Israel. New York: Council on Foreign Relations1988, p.8.

Sprinzak,1989:173 -٣٥

Ibid,174)-٣٦

Don Peretz, "Israeli Policies Toward the Arab States and the Palestinians Since 1967."p.-٣٧ . 31

M. Roumani, "The Ethnic Factor in Israel's Foreign Policy." , 1988, p. 81-٣٨

٣٩- Peretz, " Israeli Policies Toward the Arab States and the Palestinians, 1988,p31

٤٠- M. Tessler, "Israeli Politics and the Palestinian Problem After Camp david", in A. Lesch & M. Tessler, Israel, Egypt, and the Palestinians: From Camp David to Intifada. Bloomington: Indiana University Press.,1989:143.

٤١- A. Hertzberg, "Israel and the West Bank." Foreign Affairs 61 (Summer, 1983): 1076

٤٢- Harkabi,1988:81-82

٤٣- S.Aronson, "Fragmentation and Polarization in Greater Israel: Political Behavior in Per-petual Crisis.",1989,p.84

٤٤- D. Peretz, The Government and Politics of Israel. Boulder: Westview Press, 1983,pp. 209.

٤٥- M. Roumani, "The Ethnic Factor in Israel's Foreign Policy.", 1988,p.82

٤٦- T.Segev,.

1949: The First Israelis. New York: The Free Press,1886.

انظر ايضا جدع جلعادي ،

إسرائيل نحو الانفجار الداخلي . القاهرة : دار البيادر للنشر والتوزيع ، ١٩٨٨ .

٤٧- Roumani,1988: 83-88

٤٨- S. Hareven, "The First Forty Years." The Jerusalem Quarterly 48 (Fall 1988):18-20

٤٩- I.Peleg, "The Impact of the Six Day War on the Israeli Right: A second republic in the Making." PP. 54-68 in Y. Lukacs & A. Battah (Eds.), The Arab Israeli Conflict: Two Decades of Change. Boulder: Westview Press, 1988, pp.62-63.

٥٠- D. Shipler Arab and Jew: Wounded Spirits in a Promised Land. New York: Times Books,1986, p. 352.

٥١- Peretz, The Government and Politics of Israel,1983:207;

M. Tessler "Israeli Politics and the Palestinian Problem After Camp david", 1989:144;

H. Waller, "The 1988 Israeli Election: Proportional Representation with a Vengeance.", Middle East Review, XXI (Summer 1989):9.

٥٢- Harkabi, 1988:83

٥٣- Harkabi, 1988: 84-87

٥٤- B. Kieval,"The Foreign Policy of the Labor Party.",1988: 33-34)

٥٥- Y. Shamir, "Israel at 40: Looking back, Looking Ahead." Foreign Affairs (America and the World 1987/88): 579.

٥٦- Lustick, For the Land and the Lord,1988: 48-71;Sprinzak,1989:174-178

٥٧- M. Tessler, "Israeli Politics and the Palestinian Problem After Camp david"1989:145-146)

٥٨- L. Weissbrod "Binationalism Reconsidered: Ideological Continuity and Change in the Begin Era.", 1989,59

٥٩- (Shamir," Israel at 40, p 579.

٦٠- (Shamir, " Israel at 40",p. 581)

٦١- I, Peleg, "The Foreign Policy of Herut and the Likud." in B. Reich & R. Kieval (Eds.), Israeli National Security Policy: Political Actors and Perspectives. New York: Greenwood Press,1988 pp. 64-68; Z. Schiff &E. Ya'ari, Israel's Lebanon War. New York: Simon & Schuster, 1984, p.38.

٦٢- Lustick, For the Land and the Lord,1988:40;
Peleg,"The Foreign Policy of Herut and the Likud.",1988, 65-66

٦٣- ش . الغبرا ، " الانتفاضة الفلسطينية : الاسباب والاستمرار والاهداف ." المستقبل العربي ١١٣ (تموز ١٩٨٨): ٦٢-٦٤ .

٦٤- ش . الغبرا ، " الفلسطينيون وصراع القوة ." السياسة الدولية ٩٧ (تموز ١٩٨٩) : ٦٣

٦٥- Schiff & Ya'ari, Israel's Lebanon War, 1984: 31-44; K. Nakhleh, "The Invasion of Lebanon and Israel's Imperial Strategy." Arab Studies Quarterly 4 (Fall 1982): 324-335.

٦٦- R. Khalidi,.
Under Siege: P.L.O. Decisionmaking During the 1982 War. New York: Columbia University Press,1986,p. 148.

٦٧- رضى سلمان ؛ رندة شرارة ،يولا البطل ، .
إسرائيل وتجربة حرب لبنان : تقويمات خبراء إسرائيليين . بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٨٦ . ؛

Randal, J.
1984 Going All the Way: Christian Warlords, Israeli Adventurers, and the War in Lebanon.

New York: Vintage Books,1984.

Khalidi , Under Siege,1986,43-٦٨

D. Gavreon, -٦٩

Israel After Begin: Israel's Options in the Aftermath of the Lebanon War. Boston: Houghton Mifflin Company, 1984, pp.80-122.

. Harkabi,1988:104 -٧٠

Peretz, The Government and Politics of Israel,1983: 226-227-٧١

Schocken, -٧٢

" Israel in Election Year 1984." Foreign Affairs 63 (Fall 1984): 78-79

Ibid, p. ٧٧ -٧٣

D. Peretz, S. Smooha, "Israel's Eleventh Knesset." Middle East Journal 39 (Winter,1985): -٧٤ 86-103;

.J. Mendilow

" Israel's Labor Alighnment in the 1984 Elections: Catch-All Tactics in a Divided Society." Comparative Politics. 20 (July 1988): 442-460

S.Aronson, "Fragmentation and Polarization in Greater Israel,1989,p.88; -٧٥

Lewis

S. Lewis, "Israel: The Peres Era." Foreign Affairs 65 (1986,America and the World): 582-610.

B. Kieval,"The Foreign Policy of the Labor Party.", 1988, p. 43 -٧٦

D. Peretz, "Israel and the Arab States in the Binational Era." PP. 189-203 in I. Peleg & O. -٧٧ Seliktar (Eds.), The Emergence of a Binational Israel. Boulder: Westview Press, 1989,p. 198.

H. Waller, "The 1988 Israeli Election: Proportional Representation with a Vengeance.",-٧٨ Middle East Review,p.15.

Middle East Report (MERIP). -٧٩

" Israel and the Palestinians: 1948-1988." 152 (May-June 1988) :38.

Waller,The 1988 Israeli Election,1989:. pp. 14-15-٨٠

D. Peretz, S. Smooha, "Israel's Twelfth Knesset Election: An All-Loser Game." Middle -٨١ East Journal 43 (Summer 1989): 391..

Ibid, p.404.-٨٢

S. Reiser, "The Religious Parties and Israel's Foreign Policy." in B. Reich & R. Kieval -٨٣ (Eds.), Israeli National Security Policy: Political Actors and Perspectives. New York: Greenwood Press,1988, pp.105-121;

R. Freedman, "Religion, Politics, and the Israeli Elections of 1988." Middle East Journal 43 (Summer, 1989): 416-418;

J. Bauer, "Religious Parties in Israel: Reality Versus Stereotypes." Middle East Focus (Canada) 11 (Fall 1989): 8-12.

Richards, C. -٨٤

C. Richards, "Shuffling the Generals." Middle East International 353 (23 June 1989):8

D. Peretz, "Intifadeh: The Palestinian Uprising." Foreign Affairs 66 (Summer): 972-973. -٨٥

Galtung, J. -٨٦

J. Galtung, " 24 Positive Trends in Israel since the Intifada." Al-Fajr Weekly (Jerusalem) 11 (January 11, 1990): 5.

P. Kidron, "Strains in Likud's religious Alliances." Middle East International 363 (17 No- -٨٧ vember, 1989): 9.

J. Bauer, "Religious Parties in Israel: Reality Versus Stereotypes." Middle East Focus (Can--٨٨ ada) 11 (Fall 1989): 9-10.

Mark Tessler, Freedman Rekhess, S.Smooha, " Continuity and (1 Change in Israeli Think- -٨٩ ing about the Israeli Palestinian Cinflict." Panel in Middle East Studies Association Conference, Toronto (November 15-18,1989)

P. Kidron, "The Price Israel has to Pay." Middle East International 365 (15 December -٩٠ 1998)18-19

A. Bishara, "The Uprising's Impact on Israel". in Z. Lockman & J. Beinin (Eds.), In- -٩١ tifada: The Palestinian Uprising Against Israeli Occupation. Boston: South End Press. (A MERIP Book),1989,pp. 219-220.

R. Kaminer, "The protest Movement in Israel." PP. 231-245 in Z. Lockman & J. Beinin -٩٢ (Eds.), Intifada: The Palestinian Uprising Against Israeli Occupation. Boston: South End

Press. (A MERIP Book),1989,pp 231-245.

٩٣- Najwa Makhoul, Directer- Jerusalem Institute for the study of Society, perspectives on the Intifada." (Discussant) Panel in the Association of Arab-American University Graduated Conference, Washington D.C (November 3-5, 1989).

٩٤- S. Smooha, Arabs and Jews in Israel (Volume I): Conflicting and Shared Attitudes in a Divided Society,1989,p 85;.

Avineri, S.

S.Avineri, "Ideology and Israel's Foreign Policy." Jerusalem Quarterly 37(1986): 3-13

٩٥- A. Haraven, "Is Another Arab War Coalition Possible?" Jerusalem Quarterly 49 (Winter 1989): 97-120.

٩٦- Harkabi,1988

٩٧- ١٩٩٠ "رئيس بلدية تل أبيب . . ." . جريدة الاستقلال (الاسبوعية) . (السبت ١٣ يناير) ، ص ٢٣

٩٨- ١٩٩٠ "إقتراح إسرائيلي مشروط . . ." ، جريدة الوطن (الكويتية) (الاربعاء ١٧ يناير) . ص٢١

٩٩- ١٩٩٠ "زعيم ليكودي . . ." . الوطن (السبت ٣ فبراير) . ص ٢٤

١٠٠- H. Baram, " The Weizman Affair: A victory for the Peace Camp." Middle East International 366 (5 January 1990): 6-8

١٠١- I. Peleg, "Epilogue: The Future of Binational Israel_Beyond the Winter of Discontent" PP.223-232 in I. Peleg & O. Seliktar (Eds.), The Emergence of a Binational Israel. Boulder: Westview Press, 1989, 223-232.

١٠٢- انظر : Sammy Smooha and Don Peretz, "Israel's 1992 Knesset Elections: are they Critical?" Middle East Journal,vol 47,number3, Summer 1993, p.p 444-463

١٠٣- Leon T.Hadar, "The 1992 Electoral Earthquake and the Fall of the "Second Israeli Republic", The Midle East Journal, Vol 46,Number 4,Autumn 1992, pp.594-616

١٠٤- انظر : Christian Science Monitor, June 3,1996 (Internet connection)

١٠٥- الرأي العام (دار الجزيرة) ، ١٩-١٩٩٦٠٦ .

الفصل الخامس:
انطلاقة السلام،
تضارب المصالح، وعودة اليمين!

لقد شكل اتفاق اوسلو الموقع في سبتمبر ١٩٩٣ الانكسار الثاني في جدار الصراع العربي الاسرائيلي بعد انكسار الجدار المصري . وبينما اعتبرت قوى المعارضة الإسلاميه والوطنية العربية والفلسطينية ، ان الاتفاق الفلسطيني الاسرائيلي ينهي طموحات الفلسطينيين السياسية ، الا ان المؤيدين اعتبروا ان الاتفاق الفلسطيني يشكل بداية جديدة وانطلاقة جديدة للفلسطينيين .(١) فقد نتج عن هذا الاتفاق بروز اول سلطة فلسطينية شرعية منتخبة على ارض فلسطينية في التاريخ الحديث . وهذا يعني ان هذه الشرعية قد تكون قادرة ، ان احسنت ادارة اللعبة السياسية الداخلية والخارجية في ظل ظروف صعبة ، على زيادة المكاسب الفلسطينية تدريجيا وصولا الى دولة فلسطينية في المستقبل . اما الاتفاق الاسرائيلي مع الاردن والموقع في اكتوبر ١٩٩٤فقد قدم للاردن حلا لمسائل المياه والحدود والأمن ، كما أمّن لها حالة من الحماية من المشروع الاسرائيلي الذي مثله الليكود عندما سعى لطرح ان المملكة هي الدولة الفلسطينية .(٢) كما اعطى السلام الاردني مع اسرائيل وافاق التعاون الاردني الفلسطيني تطمينات للاردن من إمكانية وجود بعد أردني للمشروع الفلسطيني ، اي من مخاوف العودة إلى اثارة الهوية الفلسطينية في الاردن بعد ان وصل الاردن لسلام داخلي نسبي حول علاقته بالاردنيين من اصل فلسطيني .(٣)

ونجد في المقابل موقفا سوريا في اطار عملية السلام يتعلق هو الاخر باحتياجات سوريا ومصالحها وشروطها الخاصة بالسلام ، وتصادمها مع الشروط الإسرائيلية لقاء الانسحاب الكامل من الجولان . وقد نجحت سوريا في مايو ١٩٩٥ ثم في الفترة الواقعة منذ ديسمبر ١٩٩٥ والتي استؤنفت بموجبها المفاوضات السورية الاسرائيلية في قطع شوط كبير لإرساء

اساس للتفاهم مع اسرائيل بقيادة العمل حول الانسحاب الاسرائيلي من الجولان في ظل تسوية سلمية واضحة ومتكافئة .(٤) ونجد ان للسلام السوري الاسرائيلي متطلبات سورية (وايضا اسرائيلية اكثر تصلبا منذ انتخاب نتنياهو) لابد من تأمينها وذلك بهدف الوصول للصيغة الامثل التي تؤمن هذا السلام . ومن الخطوط العامة التي توصلت اليها سوريا مع حكومة حزب العمل في العام ١٩٩٥-١٩٩٦ ترتيبات امنية متبادلة على الحدود السورية الاسرائيلية ، انسحاب اسرائيلي من الجولان ، نقاط مراقبة دولية في الجولان ، قوة دولية متعددة الجنسيات في الجولان ، فتح سفارات وحق السفر والزيارة والسياحة وحق الانتقال للسلع والتعاون الاقتصادي وغيره من الامور الخاصة بالتطبيع بين البلدين .(٥)

ولبنان لديه من جهة اخرى همومه الخاصة ومتطلباته وفي المقدمة منها الانسحاب الاسرائيلي ، والسيادة اللبنانية فوق الاراضي الجنوبية المحتلة . وستجد اسرائيل انها مضطرة للانسحاب من الجنوب اللبناني ومن القرى اللبنانية التي تحتلها . وهذا الانسحاب سوف يتطلب حلا للقوة العسكرية اللبنانية المتعاملة مع اسرائيل المعروفة باسم جيش لبنان الجنوبي ، وهذا سيتطلب ايضا تغييراً في تواجد حزب الله ذي الطابع المسلح في الجنوب وبالتالي تحوله لحزب لبناني سياسي غير مسلح . وقد صدرت تصريحات عديدة لبنانية مسؤولة اكدت بان اللبنانيين سيوقفون العمل المسلح مع انسحاب اسرائيل من جميع اراضيه ، اذ ان الانسحاب الاسرائيلي من لبنان سوف يوقف مبررات العمل العسكري انطلاقا من اراضي لبنان .(٦)

انتخاب نتنياهو عراقيل في مواجهة السلام !

أن فوز بنيامين نتنياهو برئاسة الوزراء في اسرائيل ، قد شكل انتكاسة للجهود السلمية ، اذ يتميز نتنياهو عن سلفه بيريز بالتشدد في كافة الامور السياسية الخاصة بالتسوية . لكن فوز نتنياهو يبقى ضمن ضوابط وحدود خاصة من الصعب عليه ان يتجاوزها مع العرب ومع الولايات المتحدة . بل يرث نتنياهو كل مشكلات حكومة بيريز ، ولن يستطيع الهروب من مواجهة الحقائق الصعبة التي تحيط باسرائيل وبالعملية السلمية . ان محاولة نتنياهو المحافظة على اطروحات الليكود وسط الوضع العربي والفلسطيني والعالمي والاسرائيلي الراهن ، سوف تكون مهمه شبه مستحيله . وبينما بأمكان نتنياهو ان يؤخر العملية السلمية ، وان يطبعها بتوترات وبتصلب اكبر ، الا انه من الطبيعي ان تتجمع في مواجهة اية تطرف من قبل نتنياهو وحلفائه المتعصبين من امثال شارون وايتان قوى تمثل كل سكان الاراضي الفلسطينية وكل

عرب اسرائيل ، وجميع الدول العربية من لبنان الى سوريا(مؤتمر القمة العربي المنعقد في يونيو ٢٢-١٩٩٦ دليل على ذلك) ، بالاضافه الى الولايات المتحدة واوروبا ونضيف الى هذا التجمع قوى سلميه تمثل نصف سكان اسرائيل .

و من جهة اخرى من الصعب على الاسرائيليين تجاوز الاتفاقات الراهنة . فالاتفاقات الحاليه لها رصيد دولي وعربي وقد اعترف بها الليكود اساسا ، وتجاوزها يعني تفجير الصراع ثانية . بل ان الفلسطينيين لديهم كل الامل بالوصول الى دولة فلسطينية في المرحلة النهائية ، وقد ارتفعت امالهم مع تطبيق الحكم الذاتي وانتخابات المجلس الفلسطيني . فهم متعطشون لنيل المزيد من حقوقهم في مفاوضات المرحلة النهائية الخاصة بالسيادة واللاجئين والمستوطنات والقدس . بل ان تجميد هذا الامر يعني تحول الكثير منهم نحو العنف والارهاب ، كما يعني تحويل اراضيهم نحو المواجهة الشامله مع اسرائيل ، وهذا ما فشلت اسرائيل في احتوائه طوال سنوات الانتفاضة وطوال عقود الاحتلال . ان ايادي الليكود مقيدة في الاراضي الفلسطينيه لدرجة ان المغامره وتوسيع الاستيطان هناك ستواجه بانتفاضات وباحتجاج يهودي وعربي ودولي وامريكي . وهذا الامر سيعود ويجعل نتنياهو يسلك سلوكا واقعيا . بل نؤكد ان الذي جعل العمل وعلى الاخص رابين المتشدد يتبع سياسة واقعية ، فالممارسة ستكشف لليكود مدى خطأ شعاراته ، وهذا سيعود ويجعل نتنياهو يتابع عملية السلام كما تابعها سلفه .

والامر نفسه ينطبق على الجولان المحتلة وجنوب لبنان . فالاساس الذي تقوم عليه السياسة الامريكية في هذا الامر مرتبط بالارض مقابل السلام ، مع الاستعداد لاعطاء كل الضمانات الامنيه لاسرائيل . ان اية سياسة اسرائيلية متصلبة ازاء الجولان قد تعيد الوضع في جنوب لبنان الى نقطه الصفر ، وهو وضع يحتمل التسخين والتصعيد . بل لا نستبعد عملا عسكريا اسرائيليا كبيرا في لبنان بهدف فصل المسار اللبناني عن السوري ، وبهدف جعل سوريا تقبل بالتفاوض في ظل ميزان مختلف للقوى . فالعمل العسكري الاسرائيلي(وهذا ما نحذر منه في هذه المرحلة) قد يستغل بعض عمليات حزب الله وبعض العمليات المنطلقه على حدود الاردن التي تتبناها منظمات الرفض في سوريا بهدف اكمال الطوق على سوريا . ولكن هذه الاحتمالات تعود وتجمد المسار السلمي في المنطقة كما وتوتر العلاقة المصرية الاسرائيلية والمصرية الامريكية الى حين . كما أنه يفقد اسرائيل علاقاتها الخليجية الجديدة ويعرضها لموجة ارهاب كبيرة في الداخل والخارج . كما ان حرباً محدودة من هذا النمط تضع الادارة الامريكية في موقف متحفز لانقاذ العملية السلمية وقد تؤدي إلى التوتر الامريكي الاسرائيلي . ومن الصعب في كل الاحوال تجاوز العقدة الرئيسية : حاجة اسرائيل للسلام مع سوريا ، وحتمية

انسحاب اسرائيل من الجولان وارتباط السلام مع سوريا بالسلام مع الكثير من الدول العربية ودول الخليج .

ويجب الانتباه إلى ان تجميد العملية السلمية وإعادة المنطقة الى التوتر لا يخدم الليكود خاصة من حيث البعد الاقتصادي الذي تحتاجه اسرائيل . فقد نمى الاقتصاد الاسرائيلي بقوة منذ اتفاقات اوسلو . ان ادخال اسرائيل في دوامة التردد في استكمال السلام يوجه ضربة كبيرة لافاق التنمية الاقتصادية والاستثمار الاجنبي في اسرائيل . فقد نمى الاستثمار الاجنبي في اسرائيل في السنوات الماضيه ،ليصل الى معدل ملياري دولار سنويا ، وهبطت البطاله من ١٠٪ الى ٥٪ . بل ان تجميد السلام او عرقلته في اطار توسيع الاستيطان في الاراضي الفلسطينيه والتمسك بالجولان ، سوف يعني الكثير من الخسائر الاقتصادية الاسرائيلية والعودة الى منطق قديم في سلوكيات الحركة الصهيونيه . لهذا سوف يجد نتنياهو نفسه مضطراً لاخذ كل هذه الابعاد بعين الاعتبار ، وهذا سيفرض عليه التنازل عن الكثير من شعاراته واطروحاته العلنيه .

بل لنتذكر(وفق ما ذكرناه في الفصل السابق) ان اسرائيل اضمحلت اقتصاديا في الثمانينات في عهد بيغن على الاخص . اذ وصلت الامور عام ١٩٨٢الى ان الاقتصاد بدأ ينهار والاسهم هبطت فجأة بنسبة ٣٠ ٪ كما وان اسهم الصناعات هبطت بنسبة ٥٠ الى ٩٠٪و الاستثمارات الاجنبية لم تتجاوز ١٠٠ مليون بالعام . وفي كل منعطف إقتصادي شهده عهد بيغن كان كل وزير للمالية جديد سرعان ما يستقيل .(٧) ولكن في الاعوام القادمة ونتيجة طبيعة دور الاقتصاد في تشكيل مواقع الدول ودورها ، فاسرائيل لن تستطيع تحمل تراجع اقتصادي شبيه بذلك الذي ظهر في الثمانينات .

لهذا فمن المتوقع ان تلعب السياسة الامريكية دورا خاصا في المرحلة القادمة وذلك في مجال توضيح الحقائق لنتنياهو ، وعلى رأسها اعتماد اسرائيل الكامل على الدور الامريكي في مجال الدعم الاقتصادي والمالي والامني . ونؤكد في هذا المجال ان المصالح الامريكية في تعميم السلام كبيرة ، وتشمل استقرار منطقة الخليج ، والتعامل مع الارهاب المنتشر في الشرق الاوسط ، ودور ايران في معارضة السلام وطموحاتها الاقليميه بالاضافه الى الطموحات العراقية . لهذا فان سعي نتنياهو لتطبيق شعاراته المتطرفه وشعارات حلفائه في حزب تزوميت وشعارات ايتان وشارون سوف يعني خلق حالة عدم استقرار في الشرق الاوسط ، والمزيد من التوتر والعداء للدور الامريكي ، وهذا امر لا يخدم اسرائيل ، ويضر بالمصالح الامريكية النفطية

والاقليمية . وقد يعني هذا اضطرار الادارة الامريكيه لمواجهة سياسية مع اسرائيل . فكما ان الفلسطينيين سيتصدون للاستيطان ان توسع ، فأن واشنطن واوروبا سترفعان الصوت عاليا وربما تأخذان اجراءات في حالة تبني نتنياهو سياسة توسيع الاستيطان .

إن الحقائق تشير الى تكبيل ايادي نتنياهو ، وان هذا الامر قد يفرض عليه ادخال العمل في التشكيل الحكومي في مرحلة لاحقة وذلك لاستكمال السلام . وهذا امر محتمل حالما يكتشف ان تشكيل حكومة ائتلاف مع العمل في المستقبل (أو تطعيم حكومة بعناصر اساسية من العمل) قد تكون احدى وسائله لامتصاص الوضع العالمي والعربي المتشكك بسياساته ، بل انها قد تكون احدى وسائله للتغلب على معارضة حلفائه وربما ثورتهم عليه (ايتان وشارون وغيرهم على سبيل المثال) ان قدم على تنازلات للعرب . فقد تعرض نتنياهو ، على سبيل المثال ، للنقد في حكومته بسبب لقاء اثنين من مستشاريه مع ياسر عرفات رئيس السلطه الفلسطينيه في اواخر يونيو ١٩٩٦ . وتعرض لازمة حكومية عندما هدد ديفيد ليفي وزير الخارجية بالاستقالة اذا لم تعهد لشارون وزاره . ووقعت أزمة مع ليفي لاستثناؤه من زيارة الأردن والشأن السلمي ، ووافق الرئيس الاسرائيلي وايزمن على لقاء عرفات فأحرج نتنياهو الذي أعلن موافقته على عقد لقاء مع رئيس السلطة الفلسطينية . وهكذا بدأت حكومه اسرائيل الجديده في مواجهة تحديات وأزمات سياسية داخلية . لهذا فأن شكلت هذه المعارضة عائقاً امام اتباع نتنياهو لسياسة حكوميه واقعيه فبأمكانه ان يغير التشكيل الحكومي ، كما بأمكانه ، وهذا احتمال اخر ، ان يدخل في الحكومه رموزا معروفه من العمل يشاركون في حكومته بصفتهم الشخصيه لا بصفتهم اعضاء في حزب العمل . وفي السابق شارك عزرا وايزمان كما شارك دايان من العمل في حكومه بيغن واضفوا عليها رؤيه اكثر واقعيه في حينها . ومن الضروري الانتباه الى ان الموقف الامريكي مستمر في تشجيع اسرائيل على اخذ مجازفات من اجل السلام مع الاستعداد لتعويض اسرائيل امنيا عن كل مجازفه ، وهذا الامر بالتأكيد يشمل الجولان ولبنان . وقد لا تصل اسرائيل بقياده نتنياهو الى هذه النتائج الا بعد المرور بمرحلة توتر وتوتير وتصعيد .

ان نتنياهو هو اول رئيس وزراء ينتخب في اسرائيل بصورة مستقله عن انتخابات الكنيست ، ولهذا سيكون لديه القوة السياسية للتصرف في الشأن السياسي الاسرائيلي باستقلالية اكبر من اية رئيس وزراء سابق . ومع ذلك فأن الحديث عن شعارات الحملة

الانتخابيه التي رفعها نتنياهو شيء ، بينما ممارستها هو شيء اخر فيه الممكن وفيه الصعب والمستحيل . بل سوف يجد نتنياهو نفسه مضطراً لتعديل الكثير مما اعلنه حتى الان في حملته الانتخابيه ، بما في ذلك التنازل عن لاءاته بخصوص الدولة الفلسطينية والمستوطنات والجولان والقدس . وقد يجد نفسه في نهاية المطاف أمام موقف تفاوضي أشد صعوبة ومؤخراً للتسويه دون ان ينجح في منع استحقاقاتها الاساسيه على الصعيد الفلسطيني والسوري واللبناني والعربي .

الرؤية العربية للسلام :

ان الدول العربية تشارك في العملية السلمية الراهنة ، ولكن كل دولة تشارك بطريقتها الخاصة ، انطلاقا من مصالحها وامنها وجغرافيتها . الا انه من الواضح في هذه المرحلة من تطور العملية السلمية ان المسألة المركزية الان في العالم العربي ، منذ مدريد المنعقد في نهاية ١٩٩١ ، هي محاولة تجاوز التصادم العسكري الاستراتيجي والمتوسط بين يهود وعرب ، او يهود ومسلمين ، او اسرائيل وعرب ، وذلك برعاية دولية واساسا امريكية . ويمكن اعتبار العملية السلمية محاولة ، بنفس الوقت ، من الجانب العربي للتعامل الدبلوماسي مع هزائم سابقة وتراجعات تاريخية وقعت بين الاعوام ١٩٤٨-١٩٩١ ، وذلك على امل تأمين العلاج لنتائج هذه الضربات الموجعة والمكلفة . ان السلام الراهن بامكانه ان يكون محاولة عربية للحد بنفس الوقت من اثار هزيمتي ١٩٤٨ و١٩٦٧ وذلك عبر لغة تختلف عن اللغة التي سيطرت على المراحل السابقة التي لم تؤد في السابق الى غير المزيد من الخسائر والتراجعات واللاجئين والديون .

ان هذا يعني محاولة لتجميد التناقض المسلح العربي الاسرائيلي لاطول فترة ممكنة وذلك لصالح الالتفات للمشكلات السياسية والاقتصادية والاحتياجات الداخلية العديدة المتراكمة على الاقطار العربية . ان قيمة السلام اذن هو في مدى مساهمته في هذا البناء ، اي في مدى مساهمته في مساعدة الدولة العربية ، كلاً على حدة وفي الاطار الجماعي كذلك ، على حل بعض اهم مشكلاتها الاقتصادية والسياسية والمائية والبيئية والتعليمية والامنية في الاطار الداخلي او الاقليمي . ولنتذكر ان فهمنا للدولة العربية القطرية وتقويتها يتطلب بنفس الوقت بناء المجتمعات المدنية العربية واعادة التركيز بالثقافة والفكر والسلوك على دور الفرد وحقوقه في العلاقة مع الدولة .[٨] اذ لا بناء لدول تمتلك قوة ومنعة بلا مجتمع مدني حديث ، والعكس صحيح . كما ان بناء الدولة القطرية العربية وفق الاليات الحديثة يتطلب رؤية اقليمية وعالمية

تسمح لها بالتفاعل مع محيطها بما يعود عليها بالنفع الاقتصادي والاستقرار السياسي . وبالتالي ان فشل السلام في تأمين دفع لهذه الابعاد المتداخلة سوف يكون في المدي المتوسط الحاجز الذي يفشل العمليه السلميه بأكملها . وهذا أمر على كل القوى الراعية للسلام التنبه إليه .

ان التشكيل الجديد الناتج عن السلام سوف يعني السعي رغم المصاعب الجمة لبناء عقلية جديدة في منطقتنا تقوم اساسا على رؤية قطرية واقليمية شاملة لامور : التنمية والبناء الاقتصادي وازدياد السياحة وحركة المعلومات ، والتجارة ، والملاحة ، وحماية البيئة ، وحماية مصادر المياه وتطويرها ، وتطوير الزراعة ، والتعاون الاقتصادي والكونفيدرالي ، والامن ، والحد من التسلح ، وتطوير اشكال من المشاركة السياسية الديمقراطيه ، وحقوق الانسان .(٩) الخصائص العقلانية الجديدة سوف تعيد تعريف دور الدولة العربية والشرق اوسطيه ، وسوف تعيد الكرة الي القطاع الخاص والمجتمع وربما في الجوهر الى المواطن صاحب المصلحة الحقيقية في التنمية والاستقرار والسلام .

وهذا يعني ان مرحلة المفاوضات القادمة (ولانقصد بالمفاوضات فقط التوصل الي اتفاقات سلام او اعلانات مبادئ ، بل نقصد المفاوضات التي تلي توقيع الاتفاقيات) اساسية للوصول الى مرحله السلام الذي يسمح للجانب العربي بالاستفادة والتنمية عوضا عن السلام الذي يكبل اقتصاد الاقطار العربية ويشغله في سباق للتسلح يستنزف طاقاته . لهذا فان المستقبل مرتبط الى حد بعيد بقدرة المفاوضين العرب مع اختلاف دولهم على تحقيق افضل الشروط الممكنه حول الارض وحول الامن وحول سباق التسلح وحول القدس وحول اللاجئين وحول المستوطنات والحقوق السياسية والوطنيه الفلسطينيه واللبنانيه والسوريه والاردنيه والعربية . اي ان الاساس في هذه المرحلة يتعلق بمدى قدرة المفاوض العربي(فالمفاوضات مع جميع الاطراف العربيه مستمره حتى بعد تحقيق الاسس الاولى للتسويه) على تأمين الشروط السياسية والامنيه الافضل التي تسمح للسلام بالاستقرار والتحقق .

وعلى سبيل المثال ، تعطلت المفاوضات الفلسطينية الاسرائيليه ابان التفاوض على الانسحاب الاسرائيلي من غزة واريحا عام ١٩٩٤ لاسابيع ، على قضية رفع علم فلسطيني فوق الحاجز عند مدخل غزه ومدخل اريحا ، وذلك لطبيعه الرمز الذي يشكله ، ولمعنى الافق السياسي لهذا العلم وهو احد رموز السيادة في المدى البعيد .(١٠) وتأخرت المفاوضات الفلسطينية الاسرائيلية لحوالي ١٤ شهرا وذلك للوصول لاتفاق يضمن انسحاب الجيش الاسرائيلي من المدن والقرى الفلسطينيه في الضفة الغربية وتكوين مجلس تشريعي فلسطيني منتخب يمارس دور السلطة في الضفة الغربيه اضافة لغزة . وهذا المثل ينطبق على كل امور

المفاوضات العربية الاسرائيلية القادمة ، كما وينطبق على كل الجداول الزمنية وحتى على شكل تطبيق كل اتفاق بعد توقيعه ، كما يحصل الى حد منذ توقيع الاتفاق الاسرائيلي الفلسطيني في واشنطن في ٢٧ اوكتوبر ١٩٩٥ . ولاشك ان البحث عن اليه حقيقيه للتنسيق العربي بهدف دعم المفاوضين العرب على كل الجبهات ، يشكل رافدا اساسيا للخروج باتفاقات أقدر على تلبية الاماني العربية . ان حالة التدهور العربيه في العلاقات العربيه العربيه لايمكن ان تخدم المفاوض العربي .

استعادة غطاء التضامن العربي :

جاءت القمة العربية المنعقدة في القاهرة في يونيو ١٩٩٦ بعد انتخاب بنيامين نتنياهو رئيسا لوزراء اسرائيل لترمز لمسألتين . الاولى تؤكد بداية تطور حالة من استعادة الذات الجماعية العربية بعد سنوات التخبط . فأزمة الثقه بين العرب وفي صفوفهم تكاد تكون اكبر من تلك الازمه الواقعة بينهم وبين اعدائهم . بل ان البدء ببناء تصورات ومصالحات وعلاقات تتجاوز سوء الفهم وسوء التقدير في العلاقات العربيه العربيه يشكل بحد ذاته خطوة في الاتجاه الصائب ، وذلك لمواجهة التحديات الخارجية والداخليه معاً .

ومن جهة اخرى ترمز قمة القاهرة العربية لدور مصر في الساحة العربية . فمصر التي وحدت العرب في ظل انقسامهم في قمة اب ١٩٩٠ ، هي التي تولت بمباركة سعوديه فعالة مهمة اعادة التضامن العربي بعد ان بردت الكثير من الجروح العربية العربية . وبينما وحدت مصر الموقف عام ١٩٩٠ خلف الكويت ودول الخليج ، الا انها في ذلك الوقت كانت في اول طريقها للخروج من العزلة التي فرضها العرب عليها منذ العام ١٩٧٩ وذلك عندما عقدت سلاما منفصلا مع اسرائيل . بل تتوطد اليوم قدرات مصر على موازنه العرب وذلك من خلال ابقاء خيوطها مفتوحة مع دول عربيه تقاطع بعضها البعض . هذه العوده لمصر تميز دور مصر الطبيعي الذي يخلو من لغة الانفعال والفرض .

ورغم عقلانية بيان القمة في علاج قضايا تتعلق بتركيا والمياه ، وايران و الخليج ، الا ان الاساس الذي فرض القمه هو في كيفية متابعة العملية السلمية وفق الاسس التي انطلقت في مدريد . فحكومة نتنياهو اخلت بالميزان العام الذي يتحكم بالمسيره السلميه ، ومؤتمر القمه انيطت به مهمه تأمين الدعم السياسي و الغطاء المعنوي لكل الاطراف العربية المتفاوضة . فبدون هذا الغطاء ستشعر كل من سوريا ولبنان ، والفلسطينيون والاردنيون بأنهم يخسرون في

ثوابتهم واهم قضاياهم .

ان تمتين الاطراف العربيه بغطاء سياسي عربي اساسي لافهام حكومه رئيس الوزراء الاسرائيلي الجديد مدى جديه الموقف العربي الذي تشارك بصياغته القوى الفاعلة العربيه . و هذا يوجه رسالة للولايات المتحدة بصفتها الطرف الاساسي في رعاية العملية السلمية . هكذا تؤكد القمة ان مواقف الرفض تجاه اسرائيل ، قد تتكشف اذا ما تجاوز نتنياهو الحدود والخطوط . لقد امسكت القمة العربية العصى من الوسط ، وذلك عبر تبينها شروط التسوية الشاملة التي تضمن قيام الدولة الفلسطينيه ، وعودة القدس ، والجولان المحتل ، والأراضي اللبنانيه المحتلة ، وبنفس الوقت عبر تأكيدها بقاء باب السلام مفتوحا .

ان اعادة احياء مؤسسة القمة المعطلة من عام ١٩٩٠ ، ضرورة من ضرورات البقاء العربي في المرحلة الزمنية الجديدة . وما محاولة تحجيم دور هذه المؤسسة او اعلان نهايتها الا انعكاس لذهنية لم تكتشف بعد مدى المخاطر التي تواجه العرب من جراء تفككهم وخلافاتهم التي تتحول لمواجهات داخليه تؤدي بهم الى تلاعب القوى الخارجية الاقليمية والدولية بشؤونهم . بل ان التاريخ العربي الحديث يؤكد اهميه التضامن للعرب . فموضوعة التضامن العربي التي ازدهرت وعلى الاخص منذ حرب ١٩٧٣ العربية الاسرائيليه أكدت من خلال الممارسة امكانية توحد العرب على حدود دنيا في ظل ظروف الخطر الخارجي . لنتذكر ان اول مؤتمر قمة عربي عقد في القاهره بناءً على تحديات اسرائيليه في امور المياه وتحويل مجرى نهر الاردن . ان التضامن العربي اذن هو وليد المواجهة مع اسرائيل اساسا ، وهو نتاج الضغط الخارجي على العرب ، اذ لا تضامن بين العرب في ظل الخلافات بين اقطارهم . ولقد نتج عن ذلك ان العرب كثيرا ما توحدوا على حدود الحد الادنى في فترات تتصاعد ابانها المخاطر النابعه من اسرائيل ، ليعودوا بعد ذلك للتفكك والاختلاف مع اختفاء الشكل المباشر لذلك الخطر . هكذا بقي العرب ينقلبون من حالة التضامن الى حالة التفكك .

وكان للتضامن العربي في السابق ابعاد اخرى لم يشعر بها العرب . فبالرغم من استمرار الحرب الاهلية اللبنانية لسنوات طويلة ، الا ان كل وقف اطلاق نار ، وكل هدنه ، شهدت تدخلا من قوى التضامن العربي . بل ان تداعي عدد من القاده العرب لاطفاء الحريق اللبناني كان كفيلا بتخفيف ويلات الحرب لفترات زمنيه . ان مؤسسة التضامن العربي كانت اساسيه لصمود الفلسطينيين تحت الاحتلال ، وهي نفسها كانت اساسيه في منع توسع ايران في زمن الحرب العراقيه الايرانيه . بل ان معظم الخلافات العربيه العربيه التي ترمز لعناصر التفتت

والفوضى في الساحة العربيه شهدت تدخلات من مؤسسه التضامن انطلاقا من مبادرات مصريه ام سعوديه ام كويتيه ام مغربيه ام سوريه مشتركه . ان التضامن العربي يعكس اوزان متعددة للدول العربيه التي تحتشد لتؤدي مهمة سياسية او اقتصادية او معنوية او رمزية محددة . ويمكن القول ان نفس هذه المؤسسة التي اصابها الوهن والضعف كانت اساسية في حشد التأييد لتحرير الكويت من براثن العدوان .

ان قيمة مؤسسة التضامن اذن انما تكمن في مدى مقدرتها على تجاوز عقلية "الفزعة" في مواجهة التصعيد الاسرائيلي . بل ان الاساس هو في البحث عن سبل وطرق تحول سياسة "القمة" من السلبيه الى المبادره . بل ان وضوح لغة مؤتمر القمة يفرض على اسرائيل عدم اللجوء للقوة في حسم خلافها مع سوريا او مع حزب الله(وان كان مؤتمر القمة لا يستطيع منع هذا الاحتمال) ، ويفرض عليها ضرورة متابعة السلام وفق ما اتفق عليه حتى الان . ان لغة الحزم العربية التي ترتبط بلغة تسعى للسلام هي احد العناصر في بناء الموقف التفاوضي العربي في المرحلة القادمه .

السلام وصراع المصالح العربي والاسرائيلي :

ان ولوج العرب بمختلف اطرافهم في عملية بناء السلام مع اسرائيل لم يعن ان حالة عدم الثقه والشك بين العرب واليهود سوف تسقط فجأة وكأن شيئا لم يكن . كذلك ، وهذا هو الاهم ، فانه لن يلغي حالة تصارع المصالح العربيه والاسرائيليه في مجالات كثيره . ان نظريه صراع المصالح مازالت قائمة وهي لب الموضوع ، والتناقض العربي الاسرائيلي لم ينته ، واسرائيل تشكل في مجملها مجتمعاً قوي البنيه يستند الى اقتصاد شبه صناعي حديث يسعى للتمدد والاستفاده من فرص السلام .(١١) لهذا فان هذه المرحلة تتطلب السلام الذي يتضمن قوانين تحمي الاقطار العربيه من طموحات اسرائيليه في التوسع الاقتصادي . اي على الدول العربيه ، وهي تدخل السلام ، ان تكتشف الاجراءات التي تساهم في حمايتها والابعاد التي تساهم في تنميتها .

النموذج المصري : فعلى سبيل المثال لقد مضى على سلام مصر مع اسرائيل اكثر من عقد ونصف ، الا ان حجم التبادل التجاري السنوي بينها وبين اسرائيل لم يتجاوز ٣٠ مليون دولار .(١٢) ومصر رغم سلامها مع اسرائيل اثارت قضيه السلاح النووي الاسرائيلي طوال الشهور التي سبقت التوقيع الدولي على تمديد معاهدة حظر الانتشار النووي في ابريل ١٩٩٥ ،

ومصر تدعم سوريا في موقفها حول الجولان ، وهي في المقابل تؤيد سلطه الحكم الذاتي الفلسطيني بقوه ، وتتحدث مع ليبيا وتقيم معها العلاقات التجارية المفتوحة رغم العقوبات . ولقد شاركت مصر في مؤتمر الرباط (١٩٩٤) للسوق الشرق اوسطيه بعشرات المشاريع لتعمير سيناء وذلك في ظل رؤية مصريه اساسها لعب دور الوسيط التجاري والاقتصادي بين افريقيا واسيا .(١٣)

ان مصر تبحث عن الدورفي ظل متغيرات كبيره وتخشى ان تكون التسويه على حسابها ، اذ يسيطر على صناعة القرار في مصر الحاجة للتأقلم مع السلام الاقليمي بحيث يكون مفيدا لمصر ولموقعها في الشرق الاوسط . اذ تجد ان موقعها التقليدي الذي اكتسبته في الثمانينات ، من حيث تحولها الى الدولة العربية الوحيدة في زمن الحرب البارده التي تتمتع بعلاقات مع اسرائيل قد تغير . فجميع دول المنطقة مقبلة على سلام مع اسرائيل ، وهذا يفرض على مصر ان تعيد النظر بدورها ووظيفتها الاقليميه ، اي في شكل ومضمون علاقتها مع العرب من جهة ، ومع اسرائيل والولايات المتحدة والغرب من جهة اخرى . لهذا يصبح مضمون السلام بالنسبة لمصر عملية غير ثابته ، اذ تتطلب العملية اعطاءها بعدا يعطي لمصر دورا وقوة . ويعكس هذا التصور رؤيه مصر للزعامة والدور في الشرق الاوسط ، وفي اوساط دول العالم الثالث . وهي رؤيه تعكس تطور الرأسمالية المصرية والشركات والتجارة والصناعة التي حققت تقدماً كبيراً في الثمانينات .(١٤)

التخوف اللبناني والدور السوري : وبينما ينطلق كل طرف عربي من رؤيته و من ثوابته الخاصه واقتصاده وموقعه الجغرافي واحتياجاته الاقليميه والدوليه ، نجد ان الفهم الاستراتيجي العربي لمرحلة ما بعد الشكل الاولي من السلام مازال يشوبه الكثير من الغموض خاصة بعد انتخاب بنيامين نتنياهو . والارجح بعد السلام ، ان سوريا ولبنان قد تبحثان بحكم وجود ميناء بيروت امام موانئ اسرائيل ، عن شروط المنافسة مع اسرائيل في ظل السلام . وقد يكون السلام السوري اللبناني مع اسرائيل سلاما باردا تسوده قيم التنافس الحقيقيه . فامام انفتاح العرب على اسرائيل سوف تتحول موانئ اسرائيل الى موقع منافسه لموانئ لبنان خاصة في قضية الترانزيت والتصدير الى بقية دول الخليج . وقد تتحول اسرائيل الى مركز جذب في امور سياحية وطبية وغيرها . وهذا سيضع عبئاً كبيراً على لبنان يتطلب منه تحسين خدماته ، الطبيه والسياحيه ، والتعليميه ، والتجاريه مما يمنع تهميش دور لبنان . وسيكون من المطلوب من القيادات اللبنانيه تحويل العلاقه الامنيه مع سوريا الي علاقه تقوم على التفاعل الاقتصادي البناء ، بما يضمن للبنان ولسوريا امنهما الاهم : الاقتصاد والتنمية .

ان تنشيط المفاوضات على المسار السوري الاسرائيلي ، بينما يقف لبنان في حالة جمود وانتظار وتلقي لنتائج ذلك التنشيط يخلق الكثير من الخوف والترقب في لبنان تجاه التسويه . و لبنان مايزال يشعر بان عوده طري من جراء الافرازات المرتبطة بالحرب الاهلية . ففي لبنان لايزال الوضع الداخلي اللبناني يعاني من نتائج الحرب الاهلية على الصعيد الانساني والاجتماعي والسياسي . اذ لا تزال الشكوك قائمه بين الاطراف ، ولاتزال القوى السياسية تعاني من تناقضات صعبه تتطلب عملا كبيرا لتجاوزها . ولبنان يعاني بنفس الوقت من كون اراضيه محتلة في الجنوب ، بالاضافه لوجود قوى مقاومة واشتباكات وتوتر دائم وهذا يساهم في ازمة الاقتصاد وخسائر بالارواح والاستقرار . ونتيجة لكل تلك الافرازات مازال لسوريا دور رئيسي في تقرير الشأن السياسي اللبناني وفي حمايه السلم الاهلي بعد التجربة القاسية مع الميليشيات من كل الاتجاهات ، كما وان سوريا تمسك بقوه بأمور التصعيد او التهدئه في الجنوب اللبناني .

ان الحديث عن امكان عقد صفقة على حساب لبنان بين سوريا واسرائيل ، هو أمر من الصعب حصوله بالمعنى الشامل والمطلق لاسباب عديدة ، رغم انه ممكن ان اهمل لبنان شروط التحرك السياسي في المرحلة الراهنه والقادمه . فالصفقه بالمعني التآمري للكلمة لايمكن ان تتم لان السلام القادم هو سلام يحاك بمشاركة كل الاطراف الكبيرة والصغيرة القوية والضعيفة . فالمنطلق الاساسي للسلام الراهن يفترض بان كل طرف من الاطراف مهما كان ضعيفا ، لديه القدرة لتخريب المعادلات في مرحلة لاحقه . بل اصبح من الواضح بحكم التجربه والواقع ، بان السلام المستمر يجب ان يكون اساسا سلاما حكيما يؤمن الحقوق المعقوله التي تجعل كل طرف يشعر بأنه اخذ مايستطيع ان يتعايش معه ويبني عليه ويتطور ويرتقي من خلاله . ومن الواضح ان طرفا اكثر ضعفا بالمعنى العسكري والسيادي مثل لبنان ، يجب ان يشعر بارتياح في حله السلمي ، بحيث يستعيد اراضيه المحتلة من اسرائيل ، ويكون السلام الخارجي والداخلي ايضا مدخلا لاستعادة السيادة الكاملة وحرية الحركة والقرار على مستويات سياسية واقتصادية وامنية عديدة . فلبنان اثبت رغم صغره انه قادر على تخريب المعادلات وقلب الاوراق كما سبق وفعل في ظروف شتي في السابق .

لنأخذ مثلا السيناريو الاتي . تعقد صفقه سلميه لايرضى عليها لبنان ويشعر انها على حسابه ، ومع الوقت يزداد انكماش دور فئات من اللبنانيين وينعكس ذلك على اللعبة السياسيه اللبنانيه الداخليه . ثم تتطور التوازنات الاقليميه وتبرز قوى جديدة . فمثلا بامكان العراق في اطار نظام جديد ان يستعيد توازناته الاقليميه خلال خمس سنوات او اقل من رفع

العقوبات النفطيه عليه . حينها قد يكون مهيأ لايجاد قوى لبنانيه غير مرتاحة ومنزوية ومنعزلة عن الوضع اللبناني . وهو بهذا قد يلامس الوضع اللبناني من خلال دعم حركة في لبنان ترفض الشروط المطروحة . هذا يعني عودة اسرائيلية ثم سورية للتصارع على الارض اللبنانية . وقد يكون للولايات المتحدة دورها ايضا في تعقيدات الوضع اللبناني ، وقد تتدخل اطراف اخرى وهكذا ، وهذا يعيدنا لنقطة الصفر .

لهذا لن تكون هناك قيمة لتسوية لايشعر لبنان بارتياح من خلالها . فأية تسوية يجب ان تلامس الواقع ومتطلباته ، وتسمح للاطراف الاخرى بما فيها سوريا بالشعور بأن امنها السياسي والعسكري والاقتصادي ليس مهددا ايضا . بل ان هذا الامر قد يتحول ببعض الحكمة والعمل السياسي الناضج ، الى الاساس الذي يساعد سوريا على الانسحاب الهادئ من الشأن اللبناني ، كما يساعد اسرائيل على الانسحاب النهائي من لبنان . لهذا فمن الصعب فرض حل فوقي دون ان يشارك لبنان في صياغته . بمعنى اخر ان هذه التسوية القادمة تتطلب ان يشعر كل طرف بانه اخذ نسبة اساسية من حقوقه ، وانه لديه حرية في تقرير مصيره واحترام لديناميكاته الداخليه ، وقدسية لدوره الخاص ، وسيادة فوق اراضيه ، وسيطرة على امنه ، واقتصاده وغيره من الامور . ان تأمين هذه المسائل لكل الاطراف اساسي لنجاح التسويه بالمعنى التنفيذي والبعيد الامد . واي اخلال بهده المعادله يؤدي بدوره الى افشالها في الاطار المتوسط .

ولكن هذا التصور يضع اعباء كبيرة على لبنان وسياسييه وقياداته . فلا يوجد امر حتمي ، وامكان ان يكون هناك امر على حساب لبنان لانستبعده ان اهمل لبنان شروط التحرك السياسي في حدوده المعقولة في المرحلةالراهنة و القادمه . وهذا يتطلب بالتأكيد الاسراع في انجاز متطلبات السلم اللبناني الاهلي ، وذلك من حيث تعميقه وترسيخه . بمعنى اخر ان تأمين شروط السلم الاهلي الشامل اساسي لنجاح لبنان في السعي نحو بناء استقلاله الخارجي . من جهة اخرى من الصعب ان يفكر لبنان في اطار التسوية بعلاقه مع سوريا تقوم على التنافي والتناقض . فهناك من التداخل والتواصل ما يتطلب اعادة تعريف العلاقه بما يضمن مصالح الطرفين واستقرارهما المادي والمعنوي والسياسي . فلسوريا مصالح انية في لبنان ، ولكن لسوريا ايضا مصلحة بعيده الامد في بناء علاقات اكثر استقرارا في المرحلة القادمة في الاطار الاقتصادي والسياسي ، كما ان سوريا تبحث عن متطلبات التعايش الاقليمي والدولي في المرحلة القادمة وهذا يتطلب صيغاً جديدة للعلاقة مع لبنان . كما ان التسوية سوف تدخل العامل الامريكي الى لبنان ، وهذا بحد ذاته مع عوامل وعناصر اوروبيه ودوليه اخرى ، سيساعد

لبنان في توسيع هامش استقلاله ومناورته . ان هذا يعطي للبنان هامش كبير من المناورة والتحرك لتأمين متطلبات السلام الذي يسمح له بالارتقاء الاقتصادي والسياسي .

ولكن في الوقت نفسه قد يكون السلام الاردني والفلسطيني مع اسرائيل اكثر تكاملا ، وهذا يعني انه سيكون من مهام الفلسطينيين والاردنيين اجادة الشراكة الاقتصادية والتنافس مع اسرائيل في ان واحد عوضا عن التبعية . اي سيكون على الفلسطينيين والاردنيين تحويل اقتصادياتهم لحالة من التعلم والكفاءه عوضا عن الذيليه والتراجع . وهذا سيأخذ وقتا طويلا ، لكنه امر لا مفر منه للخروج بفوائد من السلام الراهن .

ان السلام في ظل فهمنا له هو مثل الحرب ، اي انه صراع من نمط اخر وحرب من دون قتال . ان نجاح السلام مرتبط بشعور الجانبين ان لهما مصلحة في استمراره وتطويره وبنائه . السلام اذن فيه طرفان ، ولايعقل ان يفرض طرف ارادته على الاخر كل الوقت ، وإن كان هذا ممكناً لبعض الوقت . بل سوف نرى ان هناك تطورات تفرضها توازنات العملية السلمية ، وان كلا الطرفين مضطر لتقديم تنازلات متبادلة . فمثلا ان اعتراف اسرائيل بالوطنية الفلسطينية ليس خطوة عادية بعد ان قاومت ذلك على مدى ١٠٠ عام .(١٥) ان قبول اسرائيل بمبدأ تحديد حدودها مع الدول العربية هو بحد ذاته انجاز وخطوة مهمه على الطريق ، بعد ان كانت اسرائيل دوله قوية عسكريا ولكنها بلا حدود . كما ان الوصول باسرائيل لحالة القبول(وهذ امر نراهن على حصوله) بالانسحاب من الاراضي السورية المحتلة في الجولان ، بعد ان كانت قد ضمتها عام ١٩٨١ سوف يكون تقدما على طريق السلام . وبنفس الوقت فان الاعتراف الفلسطيني باسرائيل والاعتراف العربي كذلك بها هو خطوة في نفس الاتجاه السلمي البطيء . اذن فان السلام لم يحل بعد في منطقتنا ولكنه ينجز على مراحل وقد قطعنا شوطاً قصيراً منه ، والشوط الباقي طويل ويتوقف الكثير منه على السلوك الاسرائيلي العربي في المفاوضات وخارجها .

هوامش الفصل الخامس

١- حول اراء المعارضين انظر : مقاله جواد الحمد ومقالة محمد الاسعد ، الحياة ، ٢٥ اكتوبر ١٩٩٣ ، ص ١٥ ؛ انظر ايضا حول اراء المؤيدين انظر مقالة ربعي المدهون ومقاله نبيل عمرو ، الحياة اكتوبر ١٨ ، ١٩٩٣ ، ص ١٥

٢- " Natanyahu in Amman: Jordan is not Palestine", Mideast Mirror, Vol 8, no 237, Decembere 7,1994

٣- أنظر - "Palestine and Jordan: What comes first the Confederation or the State?", Mideast Mirror,Vol 7,no 136, July 16,1993;

"Behind King Hussain's Ultimatum to Arafat", Mideast Mirror, vol 8,no 1, January 1994.

٤- انظر مسوده الترتيبات الامنيه التي توصلت اليها سوريا مع اسرائيل في يونيو ١٩٩٥ وذلك وفق ما عرضه التلفزيون الاسرائيلي ونشر كاملا في الكويت في جريدة القبس اليوميه ، ٨-٧-١٩٩٥ ؛ ص ٢٠ .

٥-انظر جولة كريستوفر الى كل من سوريا واسرائيل ، الوطن الكويتيه ٨ فبراير ١٩٩٦ ، ص ١٣

٦- محاضرة للشيخ محمد مهدي شمس الدين ، رئيس المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى في لبنان ، الكويت ، جامعة الكويت ، ٢٧-٥-١٩٩٥

٧- محمد جابر الانصاري ، تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطريه : مدخل الى اعادة فهم الواقع العربي ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربيه ، مايو ١٩٩٤ .

٨- G.Schocken,

" Israel in Election Year 1984," Foreign Affairs 63 (Fall 1984): 78-79

٩- Economic Dimensos of the Middle East Peace Process

(Economic Intelligence Unit, Peace Media 1994.); See also Patrick L. Clawson, Howard Rosen, "The Economic consequences of Peace for Israel, the Palestinians and Jordan", Policy Papers, Number 25, (Washington, D.C.: The Washington Institute for Near East Policy, 1991)

١٠- انظر Karl E. Meyek" The War of the Flags, New York Times, Thursday October 2, 1993 , p,. 26

١١- " Loan Guarantees to Israel", Hearing of the Foreign Operations Subcommittee on the House Appropriations Committee, Friday February 21, 1992; Peter Rassell, " A Peace Div-

idend for Israel", The New York Times, Sunday , March 15 , 1992.

"Israeli Foreign Ministry executive to Discuss Negative Attitude of Egypt", Voice of Israel-١٢ External Service, Jerusalem, 2000 gmt, 24,Movermber 1994.; Joel Bainerman, Egyptian Israel Trade at a Crossroads, Israel Business Today, Vol 8,no 380 June 3,1994, p. 18

١٣- Fawaz A. Gerges, "Egyptian-Israeli Relations Turn Sour", Foreign Affairs, Vol 74,Number 3, May- June 1995, pp 69-78 ; See also "Egypt's confused Search for a new Regional Role", Mideast Mirror, Vol 8,No 233, December 1,1994.; See also:

محمد السيد سليم ، "استراتيجية مصر النوويه" ، شؤون الاوسط ، العدد ٤١ ، مايو-حزيران ١٩٩٥ ص ص ٩-٢٢ .

١٤- عبد المنعم سعيد ، " مصر والاتفاق الفلسطيني الاسرائيلي (نظرة استراتيجية) ، في الاتفاق الفلسطيني الاسرائيلي : الفرص والمخاطر" ، كراسات استراتيجية ، مركز الد راسات السياسيه والاستراتيجية- الاهرام ، رقم ١٨ ، نوفمبر ١٩٩٣ ، ص ص ٥٠-٥٩ .

١٥- انظر حول الدور السلبي للصهيونيه في الاطار التاريخي : Ibrahim Abu-Lughod,ed. The Transformation of Palestine,second ed. (Evanston: Northwestern University Press,1987) ; Shafeeq Ghabra, " National Idependence in the Arab World: The Case of the Palestinians ,Journal of Arab Affairs.(U.S.A), Volume 11, No. 1, (Spring 1992) 69-90

الفصل السادس
الوضع الفلسطيني في الاطار الاستراتيجي.

ان التعرض للوضع الفلسطيني في هذا الفصل ، وهو الاكثر تعقيدا ، مفيد لفهمنا لاليات السلام الراهنة . ففي البدايه كان التفاوض الشاق على اعلان المبادئ الذي وقع في واشنطن في ايلول ١٩٩٣ . ثم بدأت المفاوضات الصعبة لترجمة اعلان المبادئ الفلسطيني الاسرائيلي الى اتفاق عملي يكون بداية الحكم الذاتي للفلسطينيين في غزه واريحا . وقد توج ذلك باتفاق القاهرة الفلسطيني الاسرائيلي في فبراير ١٩٩٤ مما فتح الطريق الى تسلم ياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينيه مهام ادارة غزة واريحا في ١يوليو ١٩٩٤ . ثم بدأت المفاوضات العسيرة للتوصل لاتفاق اوسلو (٢) والموقع في واشنطن بين عرفات ورابين في ٢٧ اوكتوبر ١٩٩٥ والخاص باعادة انتشار الجيش الاسرائيلي (خروجه من المدن والقرى الفلسطينيه) وتسلم الفلسطينيين مهام الحكم الذاتي في بقيه مدن وقرى الضفة الغربية مع انتخاب مجلس تشريعي فلسطيني . ان هذا يؤكد لنا بأنه من الممكن خوض غمار مفاوضات ناجحة ، وان الاتفاق مع اسرائيل على ادارة اريحا وغزه لم يكن اخر الطريق ، وان الاتفاق على اعادة انتشار الجيش الاسرائيلي في الضفة الغربية او بقاء الاستيطان حتى الان ليس الا اجراء مؤقتا ، وان المزيد من التفاوض والانسحاب ينتظر الفلسطينيين واسرائيل . وانه كما حصل توقف ابان التفاوض على الامور الصعبه وعند كل منعطف ، فأن المتابعة كانت صفة ملازمة لكل توقف في المفاوضات . ان كل هذا يعكس شكلاً من اشكال السلام ، و هو شكل يحوي الصراع والخلاف حول شروط السلام .

ان تسلم الفلسطينيين ادارة غزة والضفة الغربية ، وانتخاب مجلس تشريعي فلسطيني ، يؤكد وجود فرصة لبروز هذه المناطق الفلسطينية كمركز جديد للوطنية الفلسطينية . ولايوجد ما

تستطيع حكومة نتنياهو الليكودية عمله سوى تأجيل وعرقلة هذا التطور لفترة زمنية اضافية . فهذه الوطنية التي مرت بتجربة شتات قاسية ، وانتقلت منذ بداياتها الشتاتيه في الكويت و القاهرة ودمشق الى عمان وبيروت وتونس ، وعادت لتقاوم من خلال الانتفاضة منذ العام ١٩٨٧ ، تأخذ اليوم ولاول مرة شرعية خاصة لم تتوفر لها على مدى سنوات التجربة . فعلى مدى العقود ، اخذت المؤسسة الفلسطينية شرعية الوجود في مناطق عديدة من اغوار الاردن ومخيماته الى مخيمات لبنان وارض فتح في الجنوب . ولكن في كل ذلك التواجد كان هناك توتر دائم . ففي كل حالة كان التوتر قائم بين السلطة الوطنية الفلسطينية الممثلة بمنظمة التحرير وبين الدول العربية التي استضافتها ، وذلك لان الشرعية المكتسبة لم تقم فوق ارضها الوطنية . كانت الضيافة في العالم العربي لحركة الشتات الفلسطيني ضيافة رحبة ، ولكن بنفس الوقت كان من الصعب ان تتقبل الدول العربية في ظل تناقضاتها الداخلية وازماتها العديدة وجود قوى مسلحة وسلطة جديدة تنافس السلطة الحكومية اردنية كانت ام لبنانية ام سورية أم غيرها . وفوق كل شيء كان من الطبيعي ان تدخل الحركة الوطنية الفلسطينية في منزلق التفاعل مع الهموم والاشكالات الداخلية لكل قطر ، فولدت عن ذلك جراح وآلام جديدة بين الفلسطينيين وبينهم وبين الشعوب العربية التي استضافتهم .

هكذا بعد رحلة الالف ميل الفلسطينية ، التي بدأت مع كوارث عام ١٩٤٨ تأتي الانتخابات الفلسطينية لتؤكد ان حل التناقض التاريخي بين صاحب القضية وصاحب الارض هو الان حل قد بدأ يأخذ مجراه . فلأول مرة في التاريخ الفلسطيني الحديث ، ينتخب الفلسطينيون سلطة لها صلاحيات في بلاد هي بلادهم وعلى ارض هي امتداد لارضهم التاريخية التي إحضنتهم حتى العام ١٩٤٨ . انهم لهذا بتوجههم لصناديق الاقتراع ، قاموا بانجاز مهمه تاريخية لم تنجزها الحركة الوطنيه الفلسطينية في الماضي ابان العهد البريطاني ١٩٢٠-١٩٤٨ او ابان الشتات المسلح ، اذ خلقوا لاول مرة الاساس لبناء ذلك الانسجام بين الشعب وبين السلطة الحكوميه وبين ازمة الشتات المعقدة وبين لم الشمل فوق ارض محررة معترف بها قابله ، رغم المعوقات ، للازدهار والنمو .

ان التحدي الذي يواجه الفلسطينيين الان في اماكن تواجدهم المختلفة إنما في المقدره على استكمال نقل واقع وقوة وديناميكيه الحركة الوطنة الفلسطينية السابقة من الخارج الى الداخل ، ومن ارض المنافي الى الارض التي يمتلكون شرعية امتلاكها وبنائها واستيطانها . هذه هي المهمة الصعبة التي تتجاوز في صعوبتها وعمقها بمراحل مهام مواجهة دبابات وطائرات اسرائيل في جنوبه طوال حقبه السبعينات والثمانينات . لهذا فان هذه التجربة الجديدة هي تجربة في

بناء وطن ، وهي محاولة لخلق اليه تضع اللبنات الاولى في بناء دولة فلسطينية في الضفة الغربيه وغزه . ولكن هذه الدوله ووفق ظروف انشائها وتكوينها لن تكون دولة عسكريه مسلحة ، فقد وصلت التجربة المسلحة الفلسطينيه لطريق شبه مسدود . لهذا وفي اطار التجربة الفلسطينية وكون التحرير يقع في اطار اتفاقات سلام فأن الدولة الفلسطينية الناشئة لا تحتاج لعقيدة عسكرية كوسيلة لحماية الوجود بل هي في امس الحاجة الان لبلورة عقيدة اقتصادية تنموية تصبح عصب الاستقلال .

وقد نتساءل ماالذي دفع كلاً من الفلسطينيين والاسرائيليين للاتفاق على النقاط التي اتفقوا عليها ، وماالذي دعاهم بنفس الوقت لتأجيل النقاط العالقة والصعبة؟ فالجانب الفلسطيني استطاع على مدى سنوات الاحتلال والشتات ان يحتفظ بعروبة الضفة الغربية وغزة . اذ استطاع عبر الصمود وعبر التكاثر العددي ان يحول وجوده في غزة والضفة الغربية الى مشكلة اسرائيلية تعمقت بفعل الانتفاضة .[١] كما استطاع الجانب الفلسطيني ان يحمي وجوده في جزء اخر من فلسطين عبر فلسطينيي ١٩٤٨ الذين يقطنون قرى الجليل ويشكلون ١٧٪ من سكان اسرائيل .[٢] ورغم اخطاء كثيرة في مسيرة العمل الوطني الفلسطيني في التعامل مع الفلسطينيين في الخارج ، ام الداخل ام في التعامل مع الاوضاع العربية ، وكان اسوأها الموقف العام لمنظمة التحرير تجاه الكويت في ٢-٨-١٩٩٠ ، الا ان منظمة التحرير نجحت في البقاء في الملعب السياسي لتصبح حين جاءت لحظة المساومة الطرف الوحيد الفلسطيني القادر على عقد الصفقة التاريخية . واهم ما ساعد الفلسطينيين على عقد الصفقة وجودهم السياسي والجغرافي السكاني في فلسطين التاريخية ، ومقدرتهم على الاستمرار في الانتفاضة الى ما لا نهاية . في هذا نجح الجانب الفلسطيني في التوكيد على ان السلام والاعتراف والشرعية التي تحتاجها اسرائيل لن يتحقق بلا اتفاق مع الفلسطينيين على شروط ذلك السلام .

من جهة اخرى وكما حقق الفلسطينيون نجاحات هامة فان اسرائيل قد حققت نجاحات عديده كان من الطبيعي ان نتلمس انعكاساً لها في بدايه اي سلام فلسطيني اسرائيلي . فاسرائيل نجحت في توطين اليهود في الارض المحتلة عام ١٩٤٨ ، ونجحت في تغيير معالم فلسطين عام ١٩٤٨ ، ونجحت على الصعيد العسكري في مواجهتها مع جميع الدول او المنظمات التي تصدت لها في ساحة الحرب . كما ونجحت اسرائيل جزئيا في استيطان اجزاء من الضفة الغربية كما وجعلت ثمن المقاومة على الفلسطينيين غاليا .[٣] هكذا بعد عشرات السنوات من الصراع نجح الجانب الاسرائيلي في جعل الجانب الفلسطيني والعربي يكتشف انه

بلا خيارات حقيقية على الصعيد العسكري وان اية مواجهة عسكرية ستكون اثمانها اضعاف مكاسبها . بل اقنعت اسرائيل الفلسطينيين بأن تأجيل الحل قد يكون سببا لاختفاء الضفة الغربية وخروج الفلسطينيين من اللعبة السياسية كما سبق وحصل عام ١٩٤٨ .(٤)

وبعد ان تعب المتحاربون عقدوا اتفاقا تحول لسلسلة اتفاقات تعكس تماما انجازات ومخاسر كل طرف علي مدى السنوات والعقود . لهذا اخذ الفلسطينيون الاعتراف بهم ككيان في اطار حكم ذاتي فوق الضفة وغزة ، بينما اخذ الاسرائيليون الاعتراف بهم كدولة في حدود فلسطين ١٩٤٨ . هكذا اخذ كل طرف النقاط التي حققها وتنازل عن النقاط التي فشل في تحقيقها في السنوات الماضية . الاسرائيليون اضطروا للاعتراف بالوطنية الفلسطينية بعد ان فشلوا فشلا ذريعا في تصفيتها . والفلسطينيون اعترفوا باسرائيل وحقها في الوجود في اراضي ١٩٤٨ لانهم فشلوا في تصفية هذا الوجود او تغييبه . والاسرائيليون من جهة اخرى تنازلوا في الجوهر عن غزة وتنازلوا عن اجزاء كبيره من الضفة واعترفوا بسلطة اخرى غير سلطتهم فيها لانهم فشلوا في طرد سكانها ، وفشلوا في تصفية الانتفاضة وفشلوا في تشريع وجودهم فيها على الصعيد الدولي . ولكنهم نجحوا في تهويد القدس بكثافة (١٧٠ الف يهودي اسرائيلي استوطنوا القدس الشرقيه) ، ونجحوا في وضع اكثر من ١٤٠ الف مستوطن في مناطق متفرقة من الضفة الغربية ، وهذه امور سيتم الاتفاق عليها في مراحل لاحقة في المفاوضات مقابل تنازلات على نقاط اخرى .(٥)

هكذا جاءت اتفاقات الحكم الذاتي التي بدأت في اوسلو باتفاق غزة اريحا لتعكس نقاط ضعف وقوة الطرفين . كما وعكس شكل هذه الاتفاقات المؤقت الناتج عن تأجيلها للامور الصعبه لمرحلة لاحقة(الوضع النهائي للضفة الغربيه وغزه -السيادة- ، قضية القدس ، اللاجئين ، المستوطنات) طبيعة الديناميكيه الخاصه للسلام الفلسطيني الاسرائيلي . بل يمكن اعتبار اتفاقات الحكم الذاتي الفلسطيني الاسرائيلي شكلاً من اشكال فض الاشتباك على مراحل ، بين الفلسطينيين والاسرائيليين تمهيدا لسلام دائم وحقوق ثابتة وحدود نهائيه .

ولكن للمفاوضات والمرحلة الجديده تعبيرات عديده تنم عن عناصر القوة التفاوضيه لدى الاطراف العربيه . اذ ليس صحيحا ان الاطراف العربية لا تمتلك خيارات تفاوضية تعكس عناصر قوة . بل ان التهديد الفلسطيني بالانسحاب من المفاوضات في مراحل مختلفة ، هو بحد ذاته قوة ضغط هامة تفرض على الاسرائيليين تنازلات ما كان من الممكن ان يقدموها في ظل الحرب . بل اوقف عرفات بعد ان اصبح رئيس سلطة الحكم الذاتي المفاوضات مع اسرائيل لاستكمال السلام عدة مرات ، من اجل الضغط السياسي عليها وعلى الاطراف التي يهمها

نجاح المفاوضات .[٦] كما ان التخوف الاسرائيلي من الاصولية الاسلامية في الاراضي الفلسطينية وخارجها يفرض نفسه كعامل ضغط على القيادة الاسرائيليه(وسيفرض نفسه على رئيس الوزراء نتنياهو) لتقديم شروط افضل . كما ان انقسام اسرائيل يفرض نفسه . فخوف العمل من اليمين فرض عليه تقديم تنازلات لكي لا يستعيد اليمين السلطه ، وبنفس الوقت فأن خوف اليمين بقياده نتنياهو من اليسار وتيار السلام الاسرائيلي سوف يفرض عليه ان يقدم تنازلات ويتابع السلام وذلك لكي لا يصبح مجيء العمل في الانتخابات القادمه حتميا .[٧]

ومن عناصر القوة التفاوضية العربية الفلسطينية ان اسرائيل تبحث عن منافذ اقتصادية في العالم العربي ، ولهذا سوف تكون مضطرة في مرحلة لاحقة لتقديم تنازلات للعرب على صعيد الامور الجوهريه(مستوطنات ، القدس ، اللاجئين ، الاعتراف بدوله فلسطينيه ، الجولان ، الجنوب اللبناني) وذلك للحصول على هذه المنافذ . بل ان حرمان اسرائيل من بعض هذه المنافذ حتى في الاطار الجزئي (استيراد وتصدير ، سياحة ، تعاون في بعض المجالات الاقليميه والثنائيه) قد يكون سلاحا عربيا وفلسطينيا يستخدم في اطار سياسي ودبلوماسي محدود للحصول على سلام اكثر عدلا وتوازنا . ان المستقبل رحب ، وسنرى الجديد مع تطور الاحداث وذلك لان معركة السلام هي التى ستحدد اين سيصل كل لاعب بعد بناء السلام .[٨]

اشكالات الوضع الفلسطيني الداخلي : توازنات حساسة

ومع ان الجمهور الفلسطيني مازال مؤيدا للسلطة الفلسطينية ، الا انه متخوف منها في الوقت نفسه . فمن الجهة الايجابية ان اهم نجاح للسلطة الفلسطينية يتعلق باخراج الاحتلال المباشر من كل من غزة واريحا اولا ، ثم مدن وقرى الضفة الغربيه ثانيا ، ثم أخذ صلاحيات في مجالات التعليم والادارة والاقتصاد والامن والعمل في بقية انحاء الضفة الغربية ، وتتويج كل هذا بانتخابات ديمقراطيه وحرة لمجلس تشريعي منتخب مشكل من ٨٨ عضوا . ويتضمن الوضع الجديد منذ يوليو ١٩٩٤ فتح الشواطئ في غزة ، بعد ان كانت مغلقة امام السكان على مدى عقدين ونصف . ومع الانسحاب الاسرائيلي من غزة والضفة يسود الوضع حالة من الامان ، اضافة لتوقف حملة التصفيات الداخلية التي قادتها حماس في الشهور الاخيرة

للاحتلال ضد من تتهمهم بالتعامل .(٩) ان الحقائق التي ترجمت على الارض والوعود التي اتت معها حتى الان منذ اتفاق واشنطن الثاني في ٢٧-١٠-١٩٩٥ هي التي تقف للان وراء تأييد المجتمع المتحفظ للاتفاق .

ولكن في الوقت نفسه ان منظمة التحرير التي اتت من الشتات لتقود حكما ذاتيا ، تواجه العديد من الصعاب في انجاز اولى المهام المتمثلة بعملية بناء الحكم الذاتي . فقد تم نقل الكثير من مؤسسات تونس التابعة لمنظمة التحرير بنفس العقلية الشتاتية الى الاراضي الفلسطينية . وتم انشاء عدة اجهزة امنية يتنافس كل منها مع الاخر . ويحتج الكثير من سكان الاراضي الفلسطينية وخاصة في صفوف الكفاءات على استبعادهم عن مراكز التأثير والقرار والدور الذي كانوا يتمتعون به ابان الاحتلال من حيث تصديهم لمهام مواجهته .(١٠) وما اعتقال اياد السراج الطبيب النفسي وداعية حقوق الانسان في فلسطين ووفاة أكثر من معتقل فلسطيني تحت التعذيب على يد اجهزة أمنية فلسطينية الا تأكيد لغياب الكثير من العناصر الحقوقيه في السلطة الوطنيه الفلسطينيه .

وهناك من جهة اخرى قوى المعارضة الفلسطينيه التي تعارض الاتفاق الفلسطيني الاسرائيلي ، وخاصة في صفوف حركة حماس والجهاد الاسلامي . والجدير بالذكر ان حركة حماس نجحت على مدى سنوات الانتفاضة ، في التحول لقوة سياسية فعالة في الشارع الفلسطيني ، الا انها لم تستطع أن تستقطب الاغلبية في الشارع الفلسطيني . فوفق نتائج استطلاع للرأي العام الفلسطيني شمل عينة من ١٢٥٩ شخصا من جميع الفئات العمرية والمناطق في الضفة وغزة في اوكتوبر ١٩٩٣ ، لم تزد نسبة الذين اكدوا انهم سوف سيصوتون لحماس عن ١٤٪ بينما تبين ان نسبة من سيصوتون لفتح٤٦٪ . اما بقية التنظيمات والقوى فاخذت نسب تترواح ما بين ١ الى ٣ ٪ ، بيما حصل المستقلون على نسبة ١٢٪ ، وهناك ايضا نسبة ١٧ ٪ ليست متأكدة لمن ستصوت وبامكانها ان تتوزع بين جميع الاطراف والفصائل .(١١) وقد انعكس كل هذا في الانتخابات الفلسطينية المعقوده في يناير ١٩٩٦ من حيث نجاح فتح في اخذ معظم المقاعد ، وكانت مقاطعة حماس لهذه الانتخابات تعبر عن محاولة منها لعدم الدخول في انتخابات تكشف مدى ضعفها . ومع ذلك يبقى تأثير حماس خاصة في قطاع غزة ، يحسب له حساب وهي قوة لها تأييد في الشارع الفلسطيني ، وبدون تحالف واضح من الاطراف الوطنية الاخرى تستطيع حماس ان تحقق فوزا في مجالات كثيره خاصة في المؤسسات الشعبيه والنقابات . اذ تؤكد الانتخابات في معظم هذه المؤسسات ان حماس اصبحت "تستحوذ على نسبة من الاصوات بين ثلث عدد الناخبين ونصفه ، وذلك في مقابل

مجمل القوى الوطنيه" بما فيها فتح . (١٢)

اذن امام هذا الوضع ما الذي نتوقعه في المستقبل بالنسبة للوضع الفلسطيني؟ نتوقع اساسا احتدام الصراع السياسي الفلسطيني الفلسطيني في الاراضي الفلسطينيه ، وذلك بهدف نيل الاصلاح السياسي وتوزيع الصلاحيات ونجاح تجربة المجلس المنتخب . وقد يحتدم الصراع السياسي بين التيار الوطني والتيار الاسلامي . ولكن التيار الاسلامي على الاقل في جناحه المعتدل والاكثر استعدادا للحوار سوف يجد انه بلا خيار حقيقي سوى المشاركة وتهدئة الموقف ، ولكن في المقابل قد يحتدم الصراع مع اجنحة الاقلية المتطرفه في التيار الاسلامي ، وهذا قد يعني بروز حالات من العنف والعنف المضاد ، كما حصل بعد عمليات حماس والجهاد الاسلامي في تل ابيب والقدس في مارس ١٩٩٦ .

وسوف يكون هناك دور متصاعد للمعارضة الديمقراطية في الساحة الفلسطينيه ، اي المعارضة المواليه التي تركز على الاصلاح الديمقراطي والانتخابي وعلى حقوق الانسان . وقد فاز عدد من رموزها مثل حيدر عبد الشافي ، وحنان عشرواي ، وزياد ابوعمر واخرون من المستقلين ومن فتح ممن تغلب عليهم النزعه الاصلاحية والمستقله . وتختلف هذه المعارضة عن المعارضة المطلقة سواء اكانت في صفوف الجناح التقليدي الوطني (الجبهة الشعبية بقيادة جورج حبش) ام في الاسلامي المتشدد . وكان حيدر عبد الشافي الذي قاد الفريق الفلسطيني الى مفاوضات مدريد وواشنطن ، قد اعلن منذ اتفاق اعلان المبادئ معارضته للعديد من بنود الاتفاق . وكانت حنان عشراوي المتحدثة باسم الوفد الفلسطيني الى مفاوضات مدريد وواشنطن قد ركزت منذ اتفاق اوسلو ١٩٩٤ ، على تبني قضايا حقوق الانسان في الضفة الغربية وغزة .(١٣) ونتوقع ان تهب الناس احيانا في مواجهة اية تجاوزات تقوم بها السلطة الفلسطينية الفتيه ، بما فيها مواجهة سوء الادارة ، ان صدرت عن السلطة الفلسطينية . اذ علينا ان نتذكر ان الفلسطينيين في الضفة ، وغزة اعتادوا على مواجهة السلطة الاسرائيليه بكل تعسفها ودقتها . وهذا يعني انه على السلطة الفلسطينيه اخذ البعد الشعبي بعين الاعتبار وانه لا بديل عن الخيار الديمقراطي في المدى القادم .

ان الوطنية الفلسطينية متوقدة في الداخل وبدرجة عميقة ، وهي حادة قوية بفعل التجربه التاريخية الاليمة ، ولا نري امكانية عودة الحل العربي ام سهولة عودة الحل الاردني الى الاراضي المحتلة . فهذه الحلول فقدت بريقها منذ عقد الاتفاق الفلسطيني الاسرائيلي . ولكن المتوقع بالتالي هو ابتداع حل لازمة التنمية والمستقبل ينطلق من الاعتماد اساسا على التكنوقراط والاقتصاديين الفلسطينيين . وهذا يتطلب اساسا ان يكون للتقنيين والكفاءات

الفلسطينيه في الخارج مثلما في الداخل الفلسطيني دورا اساسي في اعادة بناء مادمرته اسرائيل على مدى العقود الماضية . اي ان رئيس السلطة ياسر عرفات مدعو اساسا لقبول الشراكة الحقيقية مع الفئات الاخرى ومع التكنوقراط والكفاءات السياسية الفلسطينية في مناطق الحكم الذاتي . ان المهمة الاولى والاساسيه في اراضي الحكم الذاتي يجب أن تتعرض لبناء دوله ومؤسسات والنهوض باعباء اقتصاد سلم وتعليم ومياه وكهرباء وكل عناصر الدوله والبنية التحتية ، وفوق كل شيء بناء مجتمع مدني يتفاعل وكل هذه المهام الصعبة .(١٤)

ان المدخل الى هذا الحل الوطني التنموي ، سوف يتوقف ايضا على نجاح تجربة المجلس المنتخب ، ومحاولته اخذ صلاحيات كبيرة ورئيسية من رئيس السلطة الفلسطينية . ان دور المجلس المنتخب سوف يكون اساسيا في بناء جهاز الدولة ومؤسساتها . بل سوف يكون هذا المجلس المنتخب الاساس الذي يعطي الفلسطينيين المزيد من الشرعية السياسية والقدرة على المزيد من التفاوض والسيطرة على الارض والمستقبل . وهذا سوف يعطي السلطة الفلسطينية المنتخبة الشرعية والعمق المطلوب للقيام بمهام التنمية والا زدهار .(١٥)

ولكن احتدام الصراع الداخلي حول الصلاحيات او النفوذ ، او حول دور التيارات الوطنية والاسلامية ، يجب ان يكون محكوما اساسا بحقيقة اساسية واحدة ، الا وهي عدم دخوله في نفق من الصراع المفتوح بلا نتيجة كما هو الحال في الجزائر . فالصراع الفلسطيني الفلسطيني حول الاصلاح ليس مثل اي صراع . فاي تفاقم للصراع يعني استفادة اسرائيل منه ، واي صراع فوق الحد المقبول سوف يعني اضطرار السلطة الفلسطينية لاخذ اجراءات غير ديمقراطية في الداخل . وهذا يعني ضروره التصارع في ظل معادلة اساسها وجود اسرائيل في الاطار المحيط ،بالتالي ضرروه الاصلاح في اطار لا يفجر الوضع الداخلي وممارسة معارضة في ظل الابتعاد عن التشنج والفوضى . وهذا ما يجب ان تستوعبه كل من السلطة الفلسطينية والمعارضة على حد سواء .

ان الفلسطينيين مطالبين في ظل الحكم الذاتي ، و ابان التفاوض على الشكل النهائي للحل والذي بدأ شكليا في مايو ١٩٩٦ والذي سيبدأ ثانيه مع خريف ١٩٩٦ مع حكومه نتنياهو ومدته ثلاث سنوات ، ويشمل القدس والمستوطنات واللاجئين والسيادة والحدود ، بالمحافظة على وحدة وطنية واجماعا واضحا . فابان المفاوضات سوف يواجه الجانب الفلسطيني محاولات اسرائيلية دائمة لاعطائهم القليل وللاخذ من ارضهم وحقوقهم الوطنيه قدر المستطاع . وقدر الفلسطينيين الجغرافي والسياسي يفرض عليهم ان يواجهوا مفاوضات دائمه في المستقبل مع اسرائيل حتى بعد استتباب الشكل النهائي للحل . اي انهم سوف يتعرضون

لمحاولات اسرائيلية دائمة لابتلاعهم اقتصاديا وسياسيا ، وهذا سوف يتطلب منهم تنسيقا داخليا دائما وعدم الاخلال بمعادلة الوفاق والصراع الداخليه . وهذا سيفرض عليهم بنفس الوقت ابتداع آلية للانفتاح على العالم العربي . اذن سيبقى على الفلسطينيين اكتشاف الآلية التي تحول دون تضعضع امنهم واقتصادهم مع شحذ مقدرتهم على التنافس الايجابي مع اسرائيل . ولتحقيق ذلك لابد اساسا من النجاح في استنهاض كل امكانيات الوضع الفلسطيني وعلى رأسها الماليه ، واستنهاض كل قدرات الشتات الفلسطيني ، وقدرات المؤسسات الفلسطينيه والعربية والاسلاميه . وبدون الاستفادة من كل ذلك ، سيتحول الوضع الفلسطيني الى الاعتماد على اسرائيل والى حالة جنوب افريقية والى انهيار يعود بالضرر الشديد في المدى الاستراتيجي على التجربه والسلام والدول العربيه .

القدس

وتشكل القدس ، عصبا خاصا من اعصاب الصراع العربي الاسرائيلي ، وعصبا دينيا وثقافيا وحضاريا يرمز للمسلمين واسلامهم ، وللعرب وتطلعاتهم ، وللفلسطينيين وارضهم وحقوقهم ومستقبلهم . ان القدس رمز لحضارة ، ورمز لوجود ، ولمستقبل ، واي سوء فهم لموقع القدس الديني والسياسي والانساني والاجتماعي الاسلامي والعربي و الفلسطيني ، لن يكون سوى شوكه دائمة في وجه لنجاح السلم واسس التعايش بين العرب واسرائيل . ان التعايش بدون القدس ، هو تعايش بلا ذاكره وبلا روح . لهذا فان تسوية لا تشمل القدس وتقوم على مصادرة ما تبقى من اراضيها وحقوق اهلها واستقلال مقدساتها ، سوف تكون تسوية ينقصها احد اهم رموز التعايش بين الثقافات والحضارات .

بمعنى اخر فان القدس ترمز لمئات الملايين من الناس ، اي اكثر من كل الذي يقطنون بها ويحيون فوق ترابها . لهذا فاي حل شكلي للقدس لن يحل المشكله ، فهي مركز للاسلام والعرب ، ومركز للفلسطينين القاطنين فيها والقاطنين خارجها ، ومركز للضفة الغربية كعاصمة للدولة ، وهي في الوقت نفسه مركز للمشاعر المسيحية في العالم واليهودية معاً . لهذا فان اي حل اسرائيلي احادي للقدس لن يكون ناجحا . وهذا يعني ان على الاسرائيليين ان يبدأوا حوارا بين انفسهم في ظل السلام حول القدس ، يساهم في تحويلها الى مدينه مفتوحة للجميع وتكون عاصمة للفلسطينين وللاسرائيليين معاً .(١٦)

وقد قامت اسرائيل بضم القدس الشرقية رسميا في ظل حكومة العمل عام ١٩٦٧ ، كما

قامت بتوطين ما يقارب ١٧٠ الف مستوطن فيها يعيشون اليوم الى جانب ١٢٠ الف عربي فلسطيني من سكانها الاصليين .(١٧) وهذا يعني انه ما تزال تقوم في القدس الشرقية حقيقة عربيه تتمثل في سكانها ،وبممتلكاتهم ومقدساتهم الاسلاميه والمسيحية . ولكن بنفس الوقت فان الحقيقة الاستيطانيه والعمرانية اليهودية في القدس من الصعب تجاوزها . ومهما قلنا في هذا الاطار ، سوف تبقى هناك حاجة حقيقية لتنازلات متبادلة تلبي الاماني المشروعة للفلسطينيين ، كما وتتفادى فتح صراع يهودي فلسطيني دائم في القدس . فمن غير المعقول ان يكون هناك سلام وتكون المدينه مثل بلفاست في ايرلنده مكانا للتفجير والعنف .

وفي هذا الاطار تبلورت العديد من الاقتراحات حول مستقبل القدس الذي سوف يكون مطروحا في المفاوضات القادمة التي تختص بالمرحلة النهائية . فمن الموقف الاسرائيلي القائل بان القدس عاصمة اسرائيل الابديه ، الى الموقف الفلسطيني القائل بانها عاصمة لدولتين اسرائيلية في الغربية وفلسطينية في الشرقيه ، نجد انه هناك العديد من الامور التي سوف تكون محل خلاف جاد وتفاوض مزمن . ومن الاقتراحات المطروحة ان تكون القدس مدينة موحدة اداريا بمشاركة فلسطينيه واسلاميه ومسيحية في ادارتها ، ومقسمة سياسيا بحيث تكون القدس الشرقيه عاصمة للدوله الفلسطينيه بينما الغربيه عاصمة لاسرائيل . ومن الاقتراحات المطروحة بناء قدس جديدة قرب القدس القديمه للفلسطينيين ، مع حقوق اداريه وسياسيه للقدس الجديده على المقدسات الاسلاميه والمسيحية وعلى سكان مدينه القدس الشرقيه . ان البحث عن حلول تصون الحق العربي والاسلامي في القدس والتطلعات السياسية الفلسطينية سوف تكون قضية رئيسية في المرحلة الثانيه من المفاوضات ، وفي هذا الاطار سوف تكون هناك حاجة لموقف عربي يساند هذا الامر وذلك للضغط لصالح البحث عن حلول تلبي الاماني الفلسطينية والعربية والاسلامية في القدس .(١٨)

الاستيطان

من جهة اخرى تشكل قضية الاستيطان وايجاد صيغة تؤدي الى خروج المستوطنين من الاراضي الفلسطينيه في الضفة وغزة ، اساساً هاماً للمرحلة القادمة من المفاوضات . فالاستيطان كان في عصر الاستيطان وفي زمن الحركة الصهيونيه منذ بدايه القرن الحالي يرمز لكل ما يشكل تهديدا للارض الفلسطينيه . وبالتالي فان العد التراجعي للاستيطان قد بدأ مع غزة اريحا ، ويجب ان يستكمل هذا التراجع الاستيطاني في المرحلة القادمه من المفاوضات .

ويمكن القول بان مجزرة الخليل عام ١٩٩٣ شكلت علامة مميزة في مسيرة التحول من حالة الاحتلال الاسرائيلي في الاراضي المحتلة الي حالة تراجع الاستيطان. والجدير بالذكر ان اسوأ المواجهات تقع في الساعات والشهور الاخيرة (فيتنام الولايات المتحدة ، الجزائر وفرنسا) ، لانه في هذه الساعات يتسلل اليأس والبؤس الى الاطراف التي تواجه الخسارة كما ينفد صبر الجميع . عملية الخليل كانت دليل يأس لا قوة ودليل تراجع وافلاس في صفوف المؤسسة الاستيطانية ، لا دليل تقدم وعنفوان ، وقد ادت الى تجريد الاستيطان من مبرراته السياسية والدولية . ولو قارنا بين هذه العملية وكوارث شبيهه في الماضي (محاولات اغتيال ومجازر وغيرها في الاراضي المحتلة) لوجدنا الفارق هنا كبير بين الافلاس السياسي الذي بدأت تعاني منه فكرة الاحتلال برمتها وبين القوة السياسية والدوليه التي تمتعت بها اسرائيل في الماضي بل ودعمها الرسمي لهذه الاعمال .

ويبلغ عدد المستوطنين في الضفة الغربيه مايقارب ١٤٠,٠٠٠ الف مستوطن اضافة الى ١٧٠ الف مستوطن ممن استوطنوا حول القدس الشرقيه بعد حرب ١٩٦٧ ، اما في غزة فلا يتجاوز عدد المستوطنين الاربعة الاف . (١٩) وبينما نرى ان تقليص اعداد مستوطني القدس الشرقيه ليس مطروحا في المدى القريب وذلك لصعوبة وتعقد موضوع القدس ، الا ان خروج نسبة كبيره من المستوطنين من الضفة الغربيه ومن غزه يعتبر امرا ممكنا وقابلاً للتحقيق . ان الاستيطان في طريقه الى التاكل والتراجع . فأن كانت مرحلة ١٩٧٧ حتى انتخابات عام ١٩٩٢الاسرائيلية قد شكلت مرحلة الاستيطان الذهبية نجد ان الاستيطان قد مر بفترة تراجع في زمن العمل ١٩٩٢-١٩٩٦ . اما حكومة نتنياهو المشكلة في يونيو ١٩٩٦ فستلاقي صعوبات جمة في احياء الاستيطان . يبقى ان نؤكد بأن مصير المستوطنين مطروح على مائدة التفاوض للمرحلة النهائيه .(٢٠)

اللاجئون

اما قضية العوده واللاجئين فهي من الامور الاخرى المعلقة والصعبة التي سوف تتطلب حلا عادلا وبناء في المفاوضات النهائيه . فمنذ اتفاق الحكم الذاتي ، عاد الوف الفلسطينين اما على شكل اعضاء في منظمة التحرير واما في الشرطة الفلسطينية ومعهم عائلاتهم . ومنذ الانتخابات الفلسطينية ، سمحت اسرائيل لاعضاء المجلس الوطني الفلسطيني بالعوده . ومن الواضح انه لن يكون من الصعب السماح لمن يريد العوده من حملة الوثائق الخاصة بغزة

والفلسطينيون من الذين يمتلكون لم الشمل (حق الاقامه ويقطنون بالخارج) . ولا يوجد ما يمنع عودة المزيد من الفلسطينيين الى الضفة وغزة في مراحل لاحقة خاصة بعد انقضاء الخمس سنوات الاولى ونجاح تجربة الحكم الذاتي . اذن هناك عودة محدودة وتشمل اساسا فلسطينيي ١٩٦٧ممن هُجِّروا عام ١٩٦٧ ، ولكنها عودة تتم على مراحل وحسب سير العملية السلمية . اذن نحن امام مفهوم جديد للعودة يرتبط بالسلام الشامل وبحسن الجوار وعدم الاعتداء .

لكن هذا لا يقدم حلا لكل المشكلة ، فالمناطق الخاصة بالسلطة الفلسطينية لن تستوعب الاقامة الدائمة لجميع الفلسطينيين والبالغ عددهم تقديرا اكثر من خسمة ملايين ونصف . اذ يعيش مليونان وربع من الفلسطينيين في مناطق الحكم الذاتي (غزة ٨٤٣ الف ، الضفة الغربيه ١,٣٩٥) و ٩٠٠ الف في اسرائيل ، والباقي في دول شتَّى .[٢١] فالفلسطينيون الذين يحملون الوثائق السورية والبالغ عددهم اكثر من ٢٧٠ الف يجب ان يتوفر لهم حل مناسب في سوريا ، وقد تضطر سوريا لتجنيسهم على مراحل .[٢٢] فهناك فارق بين عودة افراد منهم للعيش في ظل السلطة الفلسطينية وبين هجرة جماعية لهم جميعا مما يسبب مشكلات عديدة لهم ولسلطة الحكم الذاتي ، خاصة وانهم لن يعودوا الى قراهم الاصلية في فلسطين ١٩٤٨ . اما الذين يقطنون في لبنان ويحملون وثائق لبنانية والبالغ عددهم بين ٢٨٠ الى ٣٢٠ الف فينطبق عليهم نفس الامر وجميعهم ينتمي الى فلسطين ١٩٤٨ .[٢٣] اذ يجب اعطاؤهم حقوق العمل والاقامة وحماية حقوقهم المدنية في بلد عربي هو لبنان . وقد يجد لبنان في استيعابهم حلا معقولا على المدى البعيد . لكن التوازن المسيحي المسلم وكون معظم الفلسطينيين في لبنان من المسلمين السنة يقف حجر عثرة امام هذا الاحتمال المعقد ، لهذا سوف يكون من الطبيعي ان يعطوا ذلك الضمان في الاقامة والعمل في لبنان دون حصولهم في المدى المنظور على الاقل على الجنسية اللبنانيه .[٢٤]

اما بقية الفلسطينيين فينقسمون لعدة اقسام . فالفلسطينيون حملة الجنسيات العربية الاخرى ، ورغم اهتمامهم بمستقبل المناطق الفلسطينية ورغم ضرورة ان يكون هناك مجلس اقتصادي وثقافي يجمعهم لصالح تنمية الاراضي العربية الفلسطينيه في الضفة وغزة بالاضافة الى تنمية اوضاع العرب في اسرائيل ، ورغم امكان اعتبار هذا الجزء من ذوي الاصول الفلسطينيه مرتبطين بما يتعارف عليه بالشتات الفلسطيني بالمعنى التقني او الوطني الفلسطيني ، الا ان هذه الفئة من الفلسطينيين تسير بنفس الوقت الى اندماج في المجتمعات العربيه التي وفدت اليها . وما مساهمتها في بناء الاوطان التي اختارتها للمواطنة وللاستقرار والعمل ، الا جزء من تحقيق انسانيتها وحقوقها وروابطها العربيه ، وهذا ينطبق على الفلسطينيين حملة الجنسية

الاردنيه في الاردن وعلى الفلسطينيين في بقيه الاوطان والدول العربيه . ونفس الامر ينطبق على الفلسطينيين الامريكيين او الكنديين او الاوروبيين ممن استقروا في تلك المجتمعات بصفة شبه نهائيه ، مع الاخذ بعين الاعتبار الفوارق الثقافية والقومية بينهم وبين تلك المجتمعات .

وعلى اسرائيل ان تطرح قضية التعويض لجميع الفلسطينيين ، اي عليها ان تطرح حلا نهائيا لقضية اللاجئين من حيث العودة او التعويض ، فان انتفت امكانية عودة فلسطينيي ١٩٤٨ لاسرائيل بالمعنى الجغرافي فيجب ان يكون هناك تعويض شامل وتعويض خاص لمن فقدوا املاكهم ومنعتهم اسرائيل على مدى العقود من العوده الى اراضيهم وبلادهم .(٢٥) ان الحل النهائي يجب ان يكون نهائيا والا عادت نفس القضايا المعلقه من الماضي لتؤثر في الحاضر وتفجر المستقبل .

الاردن والفلسطينيون :

وقد اثيرت مع توقيع الاتفاق الاردني الفلسطيني ومع مرحلة السلام قضايا تتعلق بازدواجية الجنسية للفلسطينيين الذين يحملون جوازات اردنيه وينحدرون من اصول فلسطينيه . وفي تصريح لوزير الاعلام الاردني السابق معن ابونوار اكد على اهمية الاختيار بين احدى الجنسيتين ، ثم عاد وتراجع بعد ان اثار التصريح الصادر عن وزير اعلام رسمي الكثير من البلبلة في الاردن .(٢٦) وتخوفت الاردن من ان يقوم الاردنيون من اصل فلسطيني بتشكيل تجمع انتخابي في الاردن يكون امتدادا للوضع في مناطق الحكم الذاتي . وقد ادى هذ الى طرح فكرة تأجيل الانتخابات الاردنية للبرلمان في نوفمبر ١٩٩٤ .

لكن الاردن يواجه صعوبة كبرى حول هذه المسألة ، فمن الصعب فصل عرى العلاقة الاردنية الفلسطينية وذلك نتيجة الجغرافيا ، ونتيجة التاريخ ، وايضا كون الاردن حكم الضفة الغربية لسنوات طوال منذ عام ١٩٤٨ حتى العام ١٩٦٧ . ونتيجة لذلك فمعظم الفلسطينيين في العالم لديهم اقارب في الاردن ، ومعظم الاردنيين مرتبطين بالفلسطينيين . وقد يجد الاردن انه قد يستطيع رسم بعض الحدود مع هؤلاء الفلسطينيين الذين يودون العودة لاراضي الحكم الذاتي او الذين قدموا بعد عام ١٩٦٧ ، لكن الفلسطينيين المستقرين في الاردن اصبحوا مع الوقت اردنيين من اصل فلسطيني يدينون بالولاء للاردن وهمومه ومستقبله . لهذا سوف يكون على الاردن الاجتهاد ، وهذا حاصل الى حد في الخطاب الاعلامي والسياسي الاردني ، في البحث عن سبل توحد الاردنيين بغض النظر عن اصولهم ، اي عليه ان يجد طرقاً قادرة على

استيعاب نتائج ارتباط الاردن منذ عام ١٩٤٨ بمصير حرب فلسطين وذلك في ظل اقل خسائر سياسية ممكنة . ولكن في المقابل على سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية وسلطة الدولة الفلسطينية مستقبلا ان تساهما في الحل وذلك بان تمنع عن كل ما يؤثر سلبا على قضية الوحدة الداخلية الاردنية وذلك من حيث امتناعها الكامل عن اثارة الهوية الفلسطينية في الاردن . وقد يمهد هذا الامر للتنسيق الاكبر والتداخل وافاق تبادل الثقة و الحل الكونفيدرالي بين الطرفين في المدى الابعد .

ومن الطبيعي التأكيد على ان مستقبل الفلسطينيين في مناطق الحكم الذاتي سوف يرتبط بالاردن مثلما سيرتبط بعلاقات اقتصادية وسياسية مع الاسرائيليين . لهذا فالحديث عن الحل الكونفيدرالي للعلاقة الاردنية الفلسطينية هو حل في مكانه في المدى الابعد والمتوسط ، وذلك من حيث اخذه بعين الاعتبار طبيعة العلاقات العائلية والسكانية ، وبالتالي اهمية الاردن كعمق جغرافي سياسي وعربي للكيان الفلسطيني . وهذا لا يتناقض مع حقيقة ان الكيان الفلسطيني سيكون له علاقات خاصة باسرائيل وعلى مستويات كثيرة متداخلة اقتصادية وسياسية . ولهذا نميل الى اعتبار الكونفيدرالية او السوق المشتركة الاردنية الفلسطينية الاسرائيلية امرا ممكنا على المدى المتوسط وفي اطار الصيغة النهائية للحل .

الاقليه الفلسطينية في اسرائيل :

ومن ضمن الوضع الفلسطيني وتعقيداته تبرز امامنا حالة الاقلية العربية التي بقيت على الارض الفلسطينية ، التي قامت عليها دولة اسرائيل في العام ١٩٤٨ ، والبالغ عددها الان مليون مواطن . فهذه الاقلية التي تحمل الجنسية الاسرائيلية ، عاشت طوال الخمسينات وحتى السبعينات في ظل خوف واضطهاد ثقافي ونفسي واقتصادي كئيب . فعلى اثر قيام اسرائيل وضعت هذه الاقلية العربية تحت الحكم العسكري المباشر منذ العام ١٩٤٨ حتى العام ١٩٦٦ . كما حرمت لسنوات طوال من الوظائف العامة والتعليم والتنمية ، وصودرت الكثير من اراضيها وممتلكاتها بما فيها اراضي الوقف ، كما فرض على الكثير من ابنائها الانتقال الجماعي الى مناطق سكنية اخرى ، وذلك لتلبية دواعي الاستيطان والامن الاسرائيلي في اراضي ١٩٤٨ . ولم يكن وضع هذه الاقلية أحسن حالا من وضع الاغلبية السوداء في جنوب افريقيا . لقد تحملت هذه الاقلية الحصار لسنوات ، اذ عاشت وراء ستار حديدي قامت اسرائيل بتطبيقه عليها .(٢٧)

ومهما كان الرأي حول حقيقة انهم عرب اسرائيليون او فلسطينيون اسرائيليون وذلك بحكم حملهم للجنسية الاسرائيلية منذ قيام دولة اسرائيل ، الا انهم شكلوا نموذجا للشعب الذي يبقى وسط محتليه ويرفض الانخراط بالجيش ويتمسك بالارض وبثقافته وبهويته العربية الفلسطينية ، على امل ان تصله القوة العربية يوما ما . ولكن القوة تأخرت ، والامل بالتحرير العسكري انقلب الى كابوس طويل وليل داكن . لهذا سعى عرب ١٩٤٨ لاستنباط طرق جديدة للصمود والتطور . وقد شهدت اراضيهم نضالات عديدة ، وما يوم الارض الشهير الذي يحتفل به سنويا منذ عام ١٩٧٦ الا تعبير عن صراعهم من اجل الارض .

لقد بدأت اوضاع هذه الفئة العربيه المعنوية بالتحسن النسبي بعد حرب ١٩٦٧ ، وذلك حينما زال عنهم الحصار لاول مرة ، وذلك بانضمام فلسطيني الضفة الغربية وغزة الى مأساتهم . هذا الاتصال مع ١,٥ مليون فلسطيني هم عدد سكان الضفة وغزة في ذلك الوقت ، والناتج عن الاحتلال الاسرائيلي لغزة والضفة الغربية انضج رابطتهم العربية وازال كابوس العزلة المفروض عليهم . كما انهم بنفس الوقت ، ومع انطلاقة العمل الفدائي ونشوء الهوية الفلسطينية ،شهدوا انتعاشاً نفسياً ووطنياً كبيراً . اما في اعقاب حرب ١٩٧٣ ونتيجة مقدرة القوات العربية المصرية والسورية على خلق هزة كبيرة في اسرائيل فقد شعرت هذه الاقلية بالمزيد من الثقة بالنفس .

وبعد الصلح المصري الاسرائيلي ، بدأ الكثير من عرب ١٩٤٨ بزيارة مصر مما ساهم في تخفيف حدة العزلة التي يعيشونها عن المحيط العربي . كما وتحول الكثير منهم من منطق المقاطعة لكل المؤسسات الاسرائيلية السياسية الرسميه ، الى منطق المشاركة والادلاء باصواتهم في الانتخابات من اجل التأثير على السياسة الاسرائيلية . وقد ساعدهم هذا على الانضمام لحزب العمل وتشكيل احزاب خاصة بهم ، وايصال عدد من نشطائهم الى الكنيست الاسرائيلي . وسعى نوابهم لطرح قوانين تساوي بين العرب واليهود ، اضافة لسعيهم من اجل السلام وايقاف العدوان الاسرائيلي على الدول العربية والفلسطينيين . و قد برز من بين صفوفهم الكاتب الكبير اميل حبيبي والشاعر توفيق زياد ، سميح القاسم ، ومحمود درويش ،(الذي خرج من فلسطين في اوائل السبعينات) ، كما ابدع بعضهم ادبا متقدما باللغة العبرية .[٢٨] ان الاقلية الفلسطينية في اسرائيل والمنتشرة في قرى ومدن الجليل وفي العديد من المدن الاسرائيل تجيد اليوم اللغة العبرية كالعربية ، كما تعرف اسرائيل وقوانينها كما لايعرفها اي عربي .

وفي انتخابات الكنيست الثالث عشر عام ١٩٩٢ تبين ان هناك تغيرا هاما في وضع الاقلية

العربية في اسرائيل . فقد ادى فوز الحزب العربي الديمقراطي بمقعدين ، والجبهة الديمقراطيه للسلام والمساواة (هداش) بثلاث مقاعد للعرب ، الى اعطاء رابين الخمسة مقاعد العربية المطلوبه للحصول على ٦١ صوتا من اجل تشكيل الحكومه بقياده العمل .(٢٩) بل يمكن القول بانه لولا الصوت العربي في اسرائيل لشكل الليكود حكومه بعد انتخابات ١٩٩٢ ولكانت افاق التسويه السلمية في ظل قيادة شامير الجامدة قد اغلقت لسنوات قادمه .(٣٠) اما في الانتخابات للكنيست الرابع عشر في مايو ١٩٩٦ ، فقد فازت الجبهة الديمقراطيه للسلام والمساواة(هداش) بخسمة مقاعد ، بينما فازت القائمة العربيه الموحده باربعة مقاعد . وهذا يعطي هذين الحزبين العربيين تسعة مقاعد ، وهذا اعلى عدد مقاعد حققته الاقليه العربيه في تاريخها .

وبوصول السلام الى فلسطينيي ١٩٤٨ سينقلبون مع الوقت من تلك الاقلية المحاصرة المضطهدة ، الى جسر حقيقي بين الكيان الفلسطيني الذي سيقوم في جميع اراضي الضفة الغربية وقطاع غزة من جهة ، ودولة اسرائيل من جهة اخرى ، وسيشكلون في الوقت نفسه جسرا اخر يربط بين اسرائيل والعالم العربي . ان هذا الوضع سيؤهلهم للعب دور هام على الصعيد الفلسطيني والعربي والاسرائيلي . بل سوف نجد ايضا ان هذه الاقلية قادرة على مواجهة ومحاورة سياسة نتنياهو اللاواقعية من مواقع اقوى وثقه اكبر . ان عرب ١٩٤٨ انتظروا طويلا ، وقد آن الآوان ليرى صمودهم النور في ظل سلام شامل وعادل يشمل ايضا اراضيهم وحقوقهم واوضاعهم في فلسطين ١٩٤٨ . ان نيه اسرائيل السلمية سوف تنعكس بالمحصلة على علاقتها مع اقليتها ، وسوف يكون هذا في الوقت نفسه اختباراً لاسرائيل وحقيقة السلام الذي تريده مع العرب .(٣١)

هوامش الفصل السادس

* نشرت اجزاء من هذا الفصل تحت عنوان" رؤية استراتيجية للسلام العربي الاسرائيلي ، السياسة الدوليه ،عدد ١٢٤ ،ابريل ١٩٩٦ ، ١٦-٣٣

١- شفيق الغبرا ، "الانتفاضة الفلسطينية : أسبابها ، الية استمرارها ، وأهدافها ." المستقبل العربي ،١١٣(١٩٨٨/٧) ص٥٩-٧٤ ؛ انظر ايضا الغبرا ، الفلسطينيون وصراع القوة . السياسة الدولية/القاهرة ، (تموز ١٩٨٩) ٦٩٢-٧٠٣

٢-انظر Ian Lustick, Arabs in the Jewish State: Israel's Control of a National Minority, (Austin : University of Texas Press, 1980)

٣-انظر Sara M.Roy, Gaza: New dynamics of Civic Disintegration, Journal of Palestine Studies, Vo XXII/4-Number 88, Summer 1993, pp.,20-31

;Shafeeq Ghabra " National Idependence in the Arab World: The Case of the Palestinians ; also Rashid Khalidi, Under Siege: PLO Decisionmaking During the 1982 War, (New York: Columbia University Press, 1986)

٤- Meron Benvenisti, The West Bank Data Project: A survey of Israele's Policies,(Washington: American Enterprise Institute, 1984); Meron Benvenisti with Ziad Abu-Zayed and Danny Rubinstein, The West Bank Handbook: A Political Lexicon, (Boulder: Westview Press and the Jerusalem Post, 1996).

٥- John Battersby, "Jewish Settlements Take High Ground in Battle for Peace", Christian Science Monitor, Wednesday, February 8, 1995.

٦- "Peres, Arafat set Aganda for talks to extend autonomy beyond Gaza--Jericho, Mideast Mirror, Vol 8, No 95, May 19,1994.

٧- Shimon Peres with Arye Naor, The New Middle East, (New York: Henry Holt and Company, 1993),.pp 56-58

٨-حول الاتفاق وابعاده المختلفة انظر : زياد ابو عمر ؛ علي الجرباوي ؛ خليل الشقاقي ، قراءة تحليلية للاتفاق الفلسطيني- الاسرائيلي" غزة وأريحا اولا" ، (نابلس ، الضفة الغربيه ، مركز البحوث والدراسات الفلسطينية ، سبتمبر ١٩٩٣)

٩- مقابلة مع خليل شقاقي ، الاستاذ الجامعي في جامعة النجاح و رئيس مركز البحوث والدراسات

الفلسطينيه، اليونان يناير ١٩٩٤ .

١٠- مقابلة مع الصحافي توفيق ابوبكر ، وهو من النشطاء العاملين في الوضع الفلسطيني ، ومع المحامي انيس القاسم ، ومع مثقفين واقتصاديين يعملون في جامعات الضفة الغربية ، عمان الاردن ، سبتمبر ١٩٩٤ ؛

انظر ايضــــا Youssef M. Ibrahim, " Support for Arafat in Gaza Replaced by Wide Enmity", New York Times, Saturday, December 3, 1994.

١١- الانتخابات الفلسطينية ، زياد ابو عمر ؛ ابراهيم ابو لغد ؛ علي الجرباوي ؛ خليل الشقاقي ، (نابلس ، الضفة الغربية : مركز البحوث والدراسات الفلسطينية ، اوكتوبر ١٩٩٣) ص ٤٣

١٢- علي الجرباوي ، حماس : مدخل الاخوان المسلمين الى الشرعية السياسيه" ، مجلة الدراسات الفلسطينية ، العدد ١٣ ، شتاء ١٩٩٣ ، ص ٧٧

١٣- انظر برنامج المعارضة الوطنيه كما نشر في القبس الخميس ١٩-١-١٩٩٥ ص ٢٣

١٤- علي الجرباوي ، " القياده الفلسطينية والتحديات السياسية القادمه" ، الحياة ، ١٢ اكتوبر ١٩٩٣ ، ص١٧

١٥- انظر الدراسة القيمه : الانتخابات الفلسطينية ، زياد ابو عمر ، ابراهيم ابو لغد ، علي الجرباوي ، خليل الشقاقي ، (نابلس ، الضفة الغربية : مركز البحوث والدراسات الفلسطينية ، اوكتوبر ١٩٩٣)

١٦- BOB HEPBURN, "Jerusalem deepening divisions"
The Toronto Star
July 25, 1993, Sunday, FINAL EDITION; Section News P. F1;
MOSHE ZAK, "Hussein and Arafat in conflict"
The Jerusalem Post
October 28, 1994, Friday
SECTION: OPINION; P. 6A;
See also " Jerusalem reflections" , Mideast Mirror
September 7, 1994
Vol. 08, No. 172

١٧- "Jewish Settlements take high Ground in Battle for Peace", Christian Science Monitor, February 8,1995.

-' Naomi Chazan, with commentary by Fouad Moughrabi and Rashid Khalidi, Negotiationg the Non-Negotiable: Jerusalem in the Fremework of an Israeli-Palestinian Settlement, Emerging Issues: Occasional Paper Series, no. 7 (Cambridge, Massachusetts, International Security

Studies Program, American Academy of Arts and Sciences, March 1991.

"Jewish Settlements take high Ground in Battle for Peace", Christian Science Monitor, Feb- -١٩
ruary 8,1995.

٢٠- من اهم ما تم التصريح به حول الغاء المستعمرات او الحد منها في اطار تحضير الرأي العام الاسرائيلي انظر :

DAVID MAKOVSKY

"Peres: Public must be prepared for possible dismantling of settlements"

The Jerusalem Post, March 9, 1994, Wednesday SECTION: NEWS; p. 1

"Palestinians in West Bank and Gaza at 2.24 Million", Reuters World Service, December -٢١
11, 1994.

٢٢- قدر عدد الفلسطينيّين في سوريا عام ١٩٨١ ٢٢٢ الف والمرجح ان العدد الان قد تجاوز ٢٧٠ الف ، يوسف الماضي ، "الخصائص الديمغرافيه والاقتصاديه والاجتماعية للشعب العربي الفلسطيني في مخيمات سوريا ولبنان" ، اعداد منظمة التحرير الفلسطينيه ، في الخصائص الديمغرافيه للشعب العربي الفلسطيني ، (بيروت : المعهد العربي للتدريب والبحوث الاحصائيه ، منشورات دار النضال للطباعه والنشر ، ١٩٨٥) ص٢٥٠

٢٣- نواف سلام ، " بين العوده والتوطين : اي حل لمستقبل الوجود الفلسطيني في لبنان؟ جريده النهار اللبنانيه ، ٨-٩-١٩٩٤ ، ص ١١

"Hrawi suggests that palestinians can stay in Lebanon But not as Lebanese", Mideast Mir- -٢٤
ror, Vol 7, No 215, November 5, 1993. انظر ايضا روز ماري صايغ ، "الفلسطينيون في لبنان : واقع مؤلم ومستقبل غامض ،" مجلة الدراسات الفلسطينية ، العدد ١٣ ، شتاء ١٩٩٣ ، ص ص ١٢-٢٨

B. Abraham Rabinovich," Interview with Ziyad Abu Ziyad," Jerusalem Post, June 3, 1994, -٢٥
Friday. ; See also, "Jordan to Ask Israel for Compensation for Refugees". Reuters, September 14, 1993, Tuesday.

" Palestine Council Electorat cant vote in Jordan poll............" Mideast Mirror, Vol. 7, No -٢٦
184, September 23,1993.

Ian Lustick, Arabs in the Jewish State: Israel's Control of a National Minority, (Austin: انظر-٢٧
University of Texas Press, 1980)

٢٨- انظر قصة Anton Shammas, Arabesques, Translated from Hebrow Vivian Eden, (York: Harper & Row: 1988)

٢٩- Sammy Smooha and Don Peretz, "Israel's 1992 Knesset Elections: Are they Critical," Middle East Jounal, Volume 47,no.3, Summer 1993. p456

٣٠- نفس المصدر ص ٤٥٩ .

٣١- انظر : عزمي بشاره ، الاقليه الفلسطينية في اسرائيل : مشروع رؤية جديدة ، مجلة الدراسات الفلسطينية ، العدد ١١ ، صيف ١٩٩٢ ، ص ص ١٥-٤٢

الفصل السابع
ديناميكية الاطار الاوسع للسلام،
منطق المعارضة، مكونات المستقبل

عندما بدأت مفاوضات مدريد الثنائيه في اوكتوبر ١٩٩١ بين كل من الفلسطينيين والسوريين واللبنانيين والاردنيين ، تم انشاء لجنة متعددة الاطراف بدأت اعمالها في يناير ١٩٩٢ في موسكو . وقد حضرت «المتعددة الاطراف» في موسكو ١١ دولة عربية اضافة لاسرائيل ودول اوروبية والولايات المتحدة وكندا وروسيا والامم المتحدة وتركيا ، اي حضر الاجتماع ٣٦ طرفا . وقد تم الاتفاق على انشاء لجنة مركزيه للمتعددة الاطراف بقيادة كل من الولايات المتحدة وروسيا وذلك بصفتهما راعيي المفاوضات في الشرق الاوسط . وتم انشاء خمسة لجان متفرعة عنها ذات طابع اقليمي ، واحدة للحد من التسلح والامن الاقليمي بقيادة الولايات المتحدة وروسيا ، وثانية للبيئة تقودها اليابان مع دور قيادي للولايات المتحدة واوروبا في اللجنة ، وثالثة للتنمية الاقتصادية تقودها اوروبا الموحدة مع دور مشارك في القيادة لامريكا واليابان ، ورابعة للاجئين تقودها كندا ، وخامسة للمياه تقودها الولايات المتحدة .(١)

ان المتعددة الاطراف ، وهي البعد المكمل للمفاوضات الثنائية ، تعكس رؤية لا يمكن التقليل منها في التأثير على الشكل النهائي للسلام الراهن . اي ان القوى المنظمة للسلام وخاصة الولايات المتحدة سعت للاستفادة من تجربة مؤتمر التعاون والامن الاوروبي الذي جمع دول اوروبا المتخاصمة والمتصارعة بين اوروبا الشرقية واوروبا الغربية اضافة للاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . والجدير بالذكر ان مؤتمر التعاون والامن الاوروبي احتوى على لجان كبرى متعددة الاطراف ، واحدة لقضايا الامن والمبادئ العامة ، وثانية للاقتصاد والعلوم والتكنولوجيا والبيئة ، وثالثة للقضايا الانسانية . وقد انبثق عن كل لجنة عدة لجان اساسية اعدت لمؤتمرات ونشاطات كل في مجالها . بمعنى اخر تحول هذا المؤتمر الي مؤسسة دائمة ولصيغة للعلاقة

المتعدده الاطراف في اوروبا . وقد انهى مؤتمر الامن والتعاون الاوروبي الحرب الباردة رسميا عام ١٩٩١ .(٢)

لهذا أتى هذا التنظيم في شكله الاولي ليوضح اتجاه السلام الى انه اكبر من علاقات ثنائية بين دولة عربية حدودية واسرائيل . اي انطلق الراعي الامريكي و الروسي من الحاجة لصيغة متعددة للاطراف تكون الضامن الاساسي للسلام الدائم بين العرب واسرائيل . لهذا اتت المتعددة الاطراف لتعكس رؤية موسعة للسلام . و مازالت تنقص المتعددة الاطراف عضوية كل من ليبيا وايران والعراق اضافه لعدم مشاركة كل من سوريا ولبنان لاسباب تتعلق بحدود التقدم على جبهة السلام السوري اللبناني .

ان هذه اللجان المتعددة الاطراف تحولت لحاضنة للفكرة الشرق اوسطية ، التي تقوم على ادخال العرب ودول العالم المعنيه واسرائيل في صيغة واحدة للبحث عن حلول مشتركة لقضايا اقليميه مشتركة . ولكن هذه اللجان مليئة بالتناقضات التي تعكس تناقض مصالح واطراف النزاع العربي الاسرائيلي والاوروبي الامريكي او الياباني الامريكي على حد سواء . ففي هذه اللجان يبرز خلاف كبير بين العرب واسرائيل حول قضايا المياه ، واللاجئين ، والتسلح ، والاقتصاد . اذ تذكر هذه اللجان الكبرى باعمال الجمعية العمومية للامم المتحدة واية منظمة دولية كبرى . اذ لا يوجد ما هو ملزم ، وما يطرح يمكن الاعتراض عليه والغائه او تجميده . فعلى سبيل المثال تعتبر لجنه التسلح والامن الاقليمي Arms Control and Regional Security (ACRS)لجنة اساسية وهامة . وقد توصلت لصيغة اعلان مبادئ حول التسلح في الشرق الاوسط في عام ١٩٩٤ ، ولكن العرب لم يقبلوا الصيغة التي اتفقت عليها لجان منبثقة عن اللجنه الام للتسلح ، وذلك لعدم قبول اسرائيل معاهده الحد من انتشار الاسلحة النوويه . هكذا أخر الجانب العربي التوصل لاي اتفاق جاد في هذه اللجنه قبل ان تكتمل الصورة السلمية بحيث لا يكون المقياس المطبق على العرب يختلف عن ذلك المطبق على اسرائيل . ومع ذلك فقد حققت المتعددة الاطراف حول التسلح انجازات في امور عديدة تتعلق بقطعها شوطا مقبولا لاعلان مبادئ عام حول التسلح اضافة لامكان اقامة مركز لحل النزاعات وامكان التنسيق لخفض التوتر في البحار وغيره من الامور .(٣)

اما المتعدده الاطراف حول اللاجئين ففيها ايضا مواقف متباينة بين المواقف العربية والاسرائيلية . فقضية اللاجئين قضية هامة وهناك ملايين اللاجئين الفلسطينيين الذين يحق لهم العوده بينما ترفض اسرائيل ذلك . وهناك لاجئين عرب(مصريين او سوريين او لبنانيين او اردنيين) تضرروا وهجروا لان قراهم واراضيهم كانت متاخمة لمناطق وقف اطلاق النار او

الاستنزاف او القصف المتبادل مع اسرائيل . ان هذه القضيه بما فيها طرح مسائل التعويض وغيره من الامور تجعل هذه اللجنه مكانا للصراع . بل تطرح في هذه اللجنه حلول حول التنقل والتوطين وحول الجوازات . ولكن الجمود مايزال يسيطر على اعمالها .

و تحاول اسرائيل ان تخترق الموقف العربي وخاصة الخليجي السعودي والكويتي حول التعاون البيئي في المتعدده الاطراف على البيئه ، وربما تسعى بقوه لبناء تعاون لصالحها حول المياه عبر المتعددة الاطراف للمياه او للتسلح ، ولكن الموقف العربي في كل لجنة من هذه اللجان يعود ويؤخر افاق التعاون الجماعي الكلي .(٤) العرب يخشون من قدرة اسرائيل الوصول لكل مكان قبل ان تكون الصيغة النهائيه للحل التي قد تتطلب عدة سنوات مع الفلسطينيين والاردنيين والسوريين واللبنانيين قد تبلورت . فمازال طريق التفاوض طويلا ، ومازال التفاوض حول مستقبل القدس واللاجئين والدولة الفلسطينية والجولان وجنوب لبنان ومراحل الانسحاب طويلا . ان حجم التفاعل في كل لجنة من هذه اللجان سوف يبقى مرهوناً بمدى التقدم في المفاوضات الثنائية ، وسوف يبقى ايضا مرهوناً بمدى استعداد كل دولة عربية لاقامة علاقات اقتصادية مع اسرائيل . اذ سيبقى هامش التردد وهامش التأجيل وعدم الدخول باعمال كبيرة مسيطر على العلاقات العربية الاسرائيلة لفترة من الزمن . ويصبح هذا المنطق اكثر دقة بعد فوز نتنياهو كرئيس لوزراء اسرائيل .

وقد لا يكون هناك تناقض كبير بين سعي الاقاليم للتنسيق وبناء الاسواق المشتركة والحرة ، وبين الفكرة العربية الاوسع . بل قد تشهد المنطقة العربية على المدى البعيد عودة اقوى واكثر رقيا للفكرة العربية . ولكن هذا لن يتم الا اذا صحت الاجزاء ونجحت في خلق اوضاع مناسبة لازدهارها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي . فالوحدة او القومية لا يمكن ان تكون على حساب الاجزاء ، بل تتويجا لمصالحها وطموحاتها .(٥)

وهذا يدفعنا للتأكيد بان النظرة الاسرائيلية المرتبطة بالمتعددة الاطراف للسوق الشرق اوسطية هي غير النظرة المصرية والخليجية وبالتأكيد اللبنانية والسورية والاردنية . وهذا سوف يعني ان ما تقوله اسرائيل ليس بالضرورة هو السوق القادم ، وهذا يعني ان النظره الاسرائيلية التي طرحها رئيس الوزراء الاسبق بيريز هي نظره مفيدة في اطار عام ، ولكنها تتطلب الكثير من اعادة النظر واعادة التشكيل بما يضمن المصالح العربية وبما يضمن تفادي المخاوف العربية حول السوق .(٦) لهذا يمكن القول بان المتعددة الاطراف المنبثقة عن مدريد اطار عام صالح للمستقبل ، وهي شكل من اشكال التفاوض الدائم بين دول المنطقة مع اسرائيل وشكل للتنفيس عن الاختلاف والبحث عن الحدود المشتركه في حدها الدنيوي ، وهي صيغة لها القدره على بناء جسور بين

اسرائيل والعرب . وقد تكون صيغة تتحول إلى أساس للبناء السلمي ولمزيد من المؤسسات المشتركه بحيث يكون من الصعب على كل طرف العوده للحرب .

الشرق الاوسطية اذن ليست بالضرورة اوسطيه اسرائيل او بيريز او حتى تنياهو بل اوسطية تفرزها حركة الحاجة في الواقع العربي اولا . اذ تقوم على حلقات عديدة ولن تستوي بحلقة واحدة عربية اسرائيليه كما يقول بيريز او كما يعتقد بعض من ينتقدوا الفكرة برمتها . بل ان رؤية شرق اوسط مزدهر يتطلب اساسا حالة عربية تقوم اولا على نجاح الدولة العربية القطرية بايجاد حلول لمشكلاتها المزمنة . فبعد فشل الخيار القومي الشمولي ، وبعد تفاقم اخطار الخيار الاسلامي المتطرف ، اصبح الخيار الاصح هو بناء الدولة القطرية باطار يتجاوز الطبقية والطائفية والقبلية الضيقة . ان بناء الدولة العربية القطرية الحديثة وفق فهم عصري للاسلام وللعروبة وللانسان ووفق اراء تتهيأ للانفتاح على العالم هو الاساس في المرحلة القادمة . وهذا يتطلب تثقيفا واطلاقا لطاقات المسرح ، والادب ، والفكر ، وحرية الحوار والجدل . انه يتطلب حياد الدولة وجديتها (لا ترددها) في الدفاع عن مشروعها الحضاري والانساني .(٧)

ولكن بنفس الوقت ، سوف يتطلب هذا متابعة بلا توقف لمشروع التداخل العربي العربي . بل ان عقد لقاءات لرجال الاعمال العرب ، وعقد صفقات تمتد بين الدول العربيه ، ومد جسور واقامة استثمارات ومدن وزراعة واصلاح حال جامعة الدول العربيه وتمتين الروابط العربية الثقافية والعلمية والسياسية هي شرق اوسطيه عربيه اولا ، ولكن بامكان بل من الضروري أن تسعى هذه الرؤية نحو تعزيز الروابط مع تركيا وايران وبالتالي العمق الاسلامي الحضاري للاقليم العربي ، ان هذا نمط من البناء اساسي لمستقبل الاستقرار . ثم نعتقد انه تأتي الحلقة الشرق الاوسطيه كحلقة ثانية وهذه بأمكانها تشمل تركيا واسرائيل ودول اخرى . ولنتذكر ان عشرات المشاريع الثنائية العربية العربية والعربية مع دول ومؤسسات عالميه هو امر مستمر ودائم ولن يتوقف .

ان مساهمة العرب في صياغة الشرق الاوسط قد تؤدي بنا الى تصورات افضل وصيغ تراعي مصالحنا وحاجاتنا ، وهذا افضل بالتأكيد من الانتظار وترك المشاريع تفرض على الواقع العربي فرضا . ولايكفي ان نقول اننا نرفض البنك الشرق اوسطي ، بل يجب ان نخرج ببدائل ومشاريع تضع بنكا عربيا متفاعلا متداخلا يؤدي خدمات للمنطقه الاوسع . ولايكفي ان نقول ان الشرق اوسطيه مؤامره علي العرب ، علينا ان نخرج بتصورات تعكس امانينا . لهذا فعوضا عن اضاعة الوقت في محاربة الشرق اوسطية التي انطلقت على كل الاحوال ، آن الآوان للانغماس بها وحماية مصالحنا بالتصادم نسبيا والتفاعل عمليا مع المصالح الدولية الجديدة

التي تحيط بالشرق الاوسط الجديد .(٨) ان طريق السلام لن يكون سهلا ، و انطلاق العملية لا يعني نهايتها و التفاؤل على المدى المتوسط والبعيد لايعني التفاؤل على المدى القصير خاصة بعد فوز الليكود في الانتخابات يونيو ١٩٩٦ .

المعارضون العرب :

ان هذه السمات للوضع في منطقتنا تجعل من الضروري على المعارضين العرب عدم اتباع سياسات تساهم في اضعاف المفاوض العربي فلسطينيا كان ام اردنيا ام سوريا ام لبنانيا ام مصريا سواء كان ذلك في المفاوضات الثنائية ام في المفاوضات المتعددة الاطراف . والجدير بالذكر ان زمن نسف الاتفاقات والعودة ثانية للصراع المطلق او لحالة اللاحرب واللاسلم والعودة للاستنزاف وحرب الشعب الطويلة الامد قد انتهى . اذ لابد في هذه المرحلة من خط وسطي ثالث ، يأخذ بالاساس مصالح كل دولة عربية في بناء سلامها ، ويأخذ بالاعتبار افاق الممكن في تعديل وتغيير وتحسين شروط السلام الراهن دون ان يؤدي ذلك لنسف المعادلة على رؤوس الجميع ، اي علينا ان نبحث عن هامش التعديل الممكن وفن الممكن في تطوير السلام الراهن . فالشروط النهائية للسلام مازالت دون ان تتبلور ، ودعم المفاوض العربي في هذه المرحلة قد يحسن من الشروط والفرص . ان الشوط ما زال طويلا ، ولهذا فان وضع ظوابط على التحركات العربية في التعامل مع اسرائيل ضرورة في ظل محاولة الخروج بمعادلة افضل للسلام العربي الاسرائيلي .

ولكن في المقابل فان قناعة فئة من المجتمع في العالم العربي بامكانية العودة للمواجهة وفق نفس الوسائل و الشعارات السابقه التي كانت ملائمة للمرحلة السابقه ، لا يساهم الا في اضعاف العرب . فقطاع كبير من المعارضة استعاض عن القومية بشعارات اسلامية ، واستعاض عن قتال الصهيونية بقتال اليهود . ان هذا المشروع الجديد في المقاومة ، الذي تتبناه فصائل وتيارات ، لم يتعلم من الماضي او يستوعب دروسه ، انه مشروع يعبر عن امنيات تتناقض والممكن ، وفي احسن الاحوال سوف يقودنا الى خساره المزيد من الارض والمزيد من الكرامه والاستقلال . وما نخشاه ان اجنحة في الحركة الاسلامية إذا ما آلت اليها الامور في الواقع العربي ، تود ان تجرب حظها لعدة عقود قبل ان تقودنا لكارثة شبيهة بتلك التي قادتنا اليها موضوعات المرحلة القومية التي سبقتها . فكما سقطت القدس والجولان وغزة وسيناء ، وكما دمرت بيروت وبغداد ، ونسفت قرى لبنان ، وتفجرت الطائرات في مطارات عمان

وبيروت وقتل من العرب على ايدى العرب الكثير ، نخشى ان تجربه الثوريين الجدد سوف تقود الى تدمير عواصم جديدة والى سيول من اللاجئين الجدد ، قبل ان تكتشف ما اكتشفه الجيل السياسي والعسكري الذي سبقها . وما نخشاه انها ستضيع في هذا عقدا او عقدين من الزمان ثم تقعد ، بعد ان تكون بلاد جديدة قد ضاعت واراض جديدة قد سلبت .

ومن جهة اخرى فان مقاومة حماس الرافضة للتسوية و التي انطلقت من غزه بعد الانسحاب الاسرائيلي على سبيل المثال ، قد لا تضر الاسرائيليين كثيرا ، ولكنها بالتأكيد تضعف المفاوض الفلسطيني . وقد تحرج حماس السلطة الفلسطينية فيعود الاحتلال الاسرائيلي مره ثانيه ، ولكن هذه المرة في ظل سلام عربي اسرائيلي ، اي قد تؤدي تكتيكات حماس لاخراج الفلسطينيين من المعادلة بينما تبقى في المعادلة القوى العربية الفاعلة مما قد يضع الفلسطينيين في وضع شبيه لذلك الذي تبلور في السنوات التي عقبت عام ١٩٤٨ من فقدان للدور والتأثير والقياده .[٩] وينطبق هذا الامر نفسه على جميع القوى العربيه المتفاوضه مع اسرائيل .

وللتيارات الاصولية الاسلامية الكثير من الاتباع في العالم العربي ، وهي تهدد البلاد العربية بالتحول الى دول للستار الحديدي لاتقل في اوضاعها النفسية عن اوضاع الدول الشيوعية في عصر الدولة الشيوعية . اي انها تهدد ان انتصرت طرقها في التفكير ومناهجها ، بتحويل دول المنطقة الى دول مطوقة من قبل الغرب ، ايراداتها محدوده ، وشعوبها تعيش حياة كفاف ، ويقودها عدد من العقائديين والحزبيين والفقهاء المسيسين الذين يملكون مقاليد القوة والسيطرة . وفي ظل كل هذا قد يسعى كل متعلم ومثقف وخبير للهرب ، تماما كما كانت الافراد تهرب من الحكم الشيوعي في زمن الشيوعية . وفي مجتمع كهذا تنتفي الكثير من الحاجات الاساسية وتنتفي الكثير من السلع التي تعود عليها انسان العالم العربي ، وتنتفي الاسس التي تربط المنطقة العربية بنظيراتها من العالم . بل يمكن القول بان هذه النماذج هي الاقرب للنموذج الفيتنامي والكوبي والسوفياتي والالباني للتنمية ، ولكن هذه المرة في ظل شعارات جديدة ، واطروحات جديدة يغلب عليها الطابع الاسلامي السياسي .[١٠]

ان الحركة الاسلامية في صيغتها الثوريه الرافضة للتسوية ، غير قادره على تقديم بدائل ، ولكنها قادرة على اشاعة التمرد والثورة في العالم العربي ، فهي حركة سخط وغضب على اوضاع سياسية واقتصادية سلبية في العالم العربي . ان هذا الامر بالتحديد هو الذي يجعل الدول الاوروبية والغربية وامريكا تقدم على التفاعل مع الدول العربية للوصول لحالة من الاستقرار في الشرق الاوسط . . بل نراهن انه كلما ارتفعت اصوات الحركة الاسلامية في مواجهة السلام كلما ازدادت اهتمامات الدول الكبرى بالسلام . بهذا الصخب تخدم الحركة

الاسلاميه(دون علم منها) ، القوى الرسمية العربية التي تستخدمها كفزاعة لاخذ تنازلات من الغرب واسرائيل .

وتبدو لنا احاديث الرفض منطلقة من واقع غير موجود ، وكأن الجيش العربي على ابواب القدس او عكا ، بينما يقوم " المفاوض العربي" بالوقوف سدا مانعا امام تقدم الجيش العربي . اوليس صحيحا ان الخيار العسكري واجه فشلا ذريعا ، وان العرب لا يملكونه الا في مجال هامشي ومحدود؟ اوليست الحقيقة ان كل لحظة تمر تختفي ابانها معالم الاراضي المحتلة المراد تحريرها وتصبح مليئة بالمستوطنين .(١١) القدس محتلة منذ عام ١٩٦٧ ، فما الذي تم انجازه من اجل تحريرها ؟ ان شعبا كاملا في الاراضي المحتلة قد تدمرت مؤسساته وانه ان استمر في هذه المواجهة الى ما لانهاية في ظل عدم القدرة العربية على تحقيق نصر جاد على اسرائيل ، سوف يكون مصيره كمصير الشعب الفلسطيني عام ١٩٤٨ . وهل هذا مدعاة للفرحة ، او مادة جيدة لاثارة الرأي العالم العالمي او للمغالاة او للتجارب الكلامية؟

ونعود الى الماضي لنتذكر نتائج تعامل العرب السلبي مع صراحة ووضوح بورقيبة ، اذ قرروا رميه بالخيانة بعد ما قاله من دعوة للسلم . ان الاصرار في الستينات على استمرار المواجهه ادى الى المزيد من الخسارة لدرجة اننا ندفع حتى هذه اللحظة نتائج هزيمة عام ١٩٦٧ . فحين تكلم بورقيبه في اوائل الستينات ، كانت القدس معنا وكانت غزة ونابلس وبقية اراضي الضفة الغربية والجولان وجنوب لبنان وسيناء معنا ايضا . لقد كان منطق كل العرب يقوم على التحدى العسكري والمواجهة والرفض حتى فترة قريبة ، وكانت اخر هذه الكوارث الاحتلال العراقي للكويت وحرب الخليج .

ووفق نفس المنطق اتهم السادات بالخيانة وتم وضع كل من اراد التعاون معه اوالتحدث اليه في العالم العربي في موقف حرج ، فكانت النتيجة عزلة لاكبر دولة عربية عن محيطها العربي . ثم تبين بعد اكثر من عقد ان السادات قد فهم الوضع الدولي قبل غيره . و في ظل نفس المدرسة وباسمها قتل في الاراضي المحتلة من الفلسطينيين بتهمة الخيانة اعداد لا تقل عن الاعداد التي استشهدت دفاعا عن الحق هناك . وقتل في لبنان نتيجة الاقتتال الداخلي ضمن كل طائفة اكثر مما قتل في الحرب بين الطوائف .

ولنتذكر جيدا في فهمنا لاسرائيل وقوانين الصراع معها اننا في العالم العربي ، اتبعنا ودون قصد سياسات كان من شأنها تقوية انصار الاتجاه المتطرف في اسرائيل . فقد ساهمنا بتهجير وخروج مئات الالوف من اليهود العرب بعد عام ١٩٤٨ لينضموا الى اسرائيل . كما ساهمنا بشعاراتنا البراقة وتهديداتنا غير المقصودة بتوكيد نزعة الخوف لدى قطاع كبير من الاسرائيليين .

وقد استثمر الليكود خاصة منذ العام ١٩٧٣ عقدة الخوف الاسرائيلية المتنامية مما اوصله الى السلطة عام ١٩٧٧ . ورغم تفوق قوى السلام في اسرائيل في ظل حكومة العمل منذ عام ١٩٩٢ ، الا ان عمليات حماس والجهاد الاسلامي في تل ابيب والقدس في مارس ١٩٩٦ ، بالاضافة الى عمليات حزب الله وتوقف المفاوضات السورية الاسرائيلية في ظل اجواء التصعيد ، ادى الى عودة نزعة الخوف الاسرائيلية وانتصار نتنياهو في الانتخابات .

ان تدعيم اتجاه السلام الاسرائيلي بكل تنوعاته لن يكون ممكنا الا عبر السير قدما بالعملية السلمية نفسها . فهي الدواء الوحيد الذي يستطيع ان يحد من غلواء المتطرفين في كل الصفوف ، وعلى الاخص في الصفوف الاسرائيلية . ومتابعة السلام يجب ان تتم في اطار المصالح العربية القطرية والجماعية . فهذه هي الطريقة الوحيدة لعزل سياسة المغالاة في تيارات اليمين في اسرائيل ، ولكسب قوى وجبهة عريضة اسرائيليه مؤيدة لعمليه السلام . ان فوائد السلام لجميع الاطراف هي التي سوف تكون الفيصل النهائي في تثبيته وتوطيده .(١٢) لهذا فتكتيكات المعارضة يجب ان تخرج من حيز المعارضة المطلقة للاتفاقات ، الى المعارضة المرنة والقادرة على تقوية المفاوض العربي وبنفس الوقت وضع قيود على تحركه ، دون ان يؤدي هذا الى تفتيت الجبهة الداخلية في كل قطر . دون هذا فسوف تصب سياسات المعارضة العربية لصالح اسرائيل بل ولصالح التيار الاكثر تطرفا ومغامرة في اسرائيل .

وسوف تكتشف الحركة المعارضة العربية بان فلسطين لم تعد نقطة حشد قوية لجلب الانصار وللتحريض على العجز العربي الرسمي . اما الدولة العربية فسوف تجد هي الاخرى ، ان موضوع فلسطين لم يعد مصدر الخطر الاول والاخير عليها لا من المعارضة القومية ولا من المعارضة الاسلامية . وستكتشف ايضا انه من الصعب تأجيل كل شيء بما فيها قيم الديمقراطية بحجة ان معركة التحرير لها الاولوية . وستستمر الاكتشافات . فمنها ان العرب سيكتشفون آفاقاً جديدة لاخطار أشد ضرراً عليهم سبق وان اهملوها بحجة الصراع العربي الاسرائيلي ، اي اخطار المياه ، والتنمية الاقصادية ، وقضايا الانتقال ، والهجرة ، وهجرة العقول ، والبيئة وبناء الدولة القطرية ومشكلات المجتمع المدني .(١٣) سيكتشف العرب كيف ان السلام يشكل حاجة هامة لهم ، مثلما لاعدائهم . ان اسرائيل في ظل السلام لديها نواقص اكثر مما نعتقد ، وان قدرات العرب في ظل السلام تحتوى على امكانيات أكثر مما نعتقد . و في الشرق الاوسط الاكبر مثلما في العالم العربي امكانيات وطاقات هائله تنتظر الاستفادة منها .

ثم نتساءل لماذا لاتكون التنمية الاقتصادية الحقة مجالنا؟ لماذا نرفض المثال الشرق اسيوي باعتباره جديراً بالدراسة والتأمل ، خاصة وان المثال السوفياتي والشرق اوروبي القائم على

الجدار الحديدي في التنمية انهارا بلا مقدمات؟ لماذا لا نجرب طرقاً جديده غير مستمدة من الماضي بل من الحاضر والمستقبل ، فلن تكون حالنا اسوأ بتجريب الجديد بعد ان نزلنا الى الحضيض عبر تجربة وتجرع القديم؟ ولماذا لا نركز على الثقافة والتعليم والحرية والتكنولوجيا السلمية وحل مشاكل المياه والتداخل الاقليمي ونهضة الزراعة؟ فان وجدنا بعد كل هذا التراكم في التنمية والبناء اننا نحتاج الى ان ندخل الحرب مع احد ، نكون امة على الاقل متعلمة حديثة قادرة على الدفاع عن نفسها عوضا عن الهزائم التي تكال لنا .

السلام والمرحلة الجديدة :

ان السلام لايعني ، كما اوضحنا في هذه الدراسه ، انتفاء تناقض المصالح ، ولكنه يعني ابعاد تناقض المصالح عن شبح الحرب والاستنزاف البشري والاقتصادي والمواجهة المباشره ، وهو يعني بنفس الوقت التمهيد للدخول في علاقات طبيعية كافيه لكي تقنع كل طرف عربي واسرائيلي انه حقق السلام الذي يريده وانه يكسب من السلام ، وانه سوف يخسر ان حاول العوده للحرب . اذن في هذا السلام سوف يتم خلق آلية للاعتماد المتبادل بين العرب واسرائيل بما يكفي لعدم العوده للحرب ، وفي هذا فهو سلام المصالح والضرورات . وعلى كل دولة ان تقرر حدود هذه الآلية ، ومدى عمقها ، وان تنسق مع الدول العربية الاخرى لكي لا يستخدم السلام مع دولة عربية لضرب دولة عربية اخرى . وبالمقابل على المعارضة العربية تجاوز الموقف اللفظي والمطلق ، والدخول في اليه السلام من باب ضاغط ومسؤول بما يسمح بتحسين فرص المرحلة عوضا عن تفجير الموقف بما لا يعود بالنفع على المعارضة نفسها وعلى الدول العربيه وشعوبها . آن الأوان للبحث ، بدون صراخ وشعارات ولى زمنها ، عن صيغ اكثر هدوئا وذلك لبناء سلام اكثر عدلا بما يوفر على شعوبنا حروبا خاسره وقيودا جديده .

ان الاشكالية اليوم تتلخص باننا ندخل عصرا جديدا لكننا نعجز حتى الان عن اكتشاف قوانين الصراع والتعايش في هذا العصر الجديد . ان اخطر ما يواجه العرب في هذه المرحلة ، هو الجمود الفكري والنفسي والاقتصادي والسياسي الذي ساد في مراحل سابقة . والعرب اليوم هم احوج مايكونوا للابداع وللحرية الاعلامية والفكرية ، ولاستكشاف طرق جديدة تسمح لهم باعاده بناء ثقتهم وعلمهم واقتصادهم واستقلالهم وفوق كل شيء علاقاتهم الممزقه .

العرب امام خيارين ، فهم في السلام مع اسرائيل قادرين على ان يكونوا تبعيين حتى

العظم ، وفي العلاقه مع الولايات المتحدة بامكانهم ان يكونوا ايضا ضعفاء وبعيدين عن فهم اسس السياسة الامريكية . لكنهم لاجل ذلك سوف يدفعون اثمانا كبيرة تفرغ وجودهم وتقلق واقعهم . لكن العرب بامكانهم ان يكونوا ، وفق الخيار الثاني ، مساهمين فعالين يعرفون كيف يخلقون مصالح مشتركة ، ومستقبل مشترك لهم اولا ، ثم في علاقاتهم الدولية ولعموم الشرق الاوسط بما في ذلك اسرائيل . ومن اجل ذلك فان الكثير من العمل والبناء والتنسيق والابداع والفهم والجرأه مطلوب في هذا الزمن . ولاجل ذلك فهناك مظاهر كثيرة في السياسة العربية الداخلية والخارجية تتطلب الكثير من الاصلاح ، بما فيها ابسط اشكال التعاون العربي العربي .

ان السلام يبقى عملية تاريخية طويلة ، و التطور التاريخي يعدل الاتفاقات ويطور الامم ويحسن الشروط . والحل السلمي قد يكون مفروضا وجاهزا في اروقه الدول الكبرى واسرائيل ، ولكن الوصول اليه يتجاوز الخطط الجاهزة ، وهي الية التفاعل وصراع الارادات وتحسين الشروط واقتناص الفرص والتعلم وبناء المصالح . اذ يبقى سلام العرب مع اسرائيل سلام مراحل يتجاوز بمراحل الاتفاقات الراهنة والصياغات المباشرة ، وذلك لانه ينمو مع الوقت كفعل حضاري بين اغلبية الشرق واقلياته المتنوعه بما فيها اسرائيل . لهذا علينا ان نجرب السلام بجديه قبل ان نعلن استحالته والعوده لمنطق الرفض عبر وسائل سبق وان فشلنا في تطبيقها . وان فشلنا في هذا السلام فالمشكلة لن تكون بالسلام ، لكن في عقليتنا وعقلية اعدائنا وفي تفضيلنا للحلول الجاهزه وتفضيلهم للحلول الجاهزة عوضا عن الحلول التي تحتاج لجهد وحضاره وبناء هادئ وعمل وجديه .

هوامش الفصل السابع

١- انظر "Edward P. Djerjian, " The Multilateral Talks in the Arab Israeli Peace Process", Washington Institute for Near East Policy. Department of State Dispatch, October 11, 1993; See also Robert Pelletreau, " The Multilateral Dimention of the Peace Process", Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, Washington D.c April 7,1994

٢- " Fact Sheet: Conferance on Security and Cooperation in Europe", Department of State Dispatch, October 8, 1990; Wilhelm Hoynck, "CSCE Contribution to Early Warning, Conflict Prevention and Crisis Management." International Defense Review, December 31, 1994, p30.

٣- بناء على مشاركة شخصيه للباحث في ورشة عمل الامن والحد من التسلح المنعقده في ٣-٧ يناير ١٩٩٤ في ديلفي اليونان ، والتي نظمتها بالتعاون مع لجنة المتعددة الاطراف الخاصه بالتسلح The Institute on Global Conflict and cooperation, University of California. وبناءا على مشاركه في "Confidence-Building in the Middle East" United Nations Institute for Disarmament Research(UNIDER). Malta, 15-17 April 1994.

٤- مجدي صبحي ، " مشكله المياه في المنطقة والمفاوضات متعدده الاطراف" ، كراسات استراتيجية ، مركز الدراسات السياسيه والاستراتيجية ، الاهرام ، رقم ٧ ، يناير ١٩٩٢ ص ص ٢٢- ٢٥

٥- شفيق الغبرا ، "الغزو العراقي للكويت : نقد العقل العربي المغامر" . السياسة الدوليه العدد ١١٩ ، يناير ١٩٩٥ ،ص ص ١٨-٣٨

٦- Shimon Peres with Arye Naor, The New Middle East, (New York: Henry Holt and Company, 1993),.pp 56-58

٧- محمد جابر الانصاري ، تكوين العرب السياسي ومغزى الدولة القطريه : مدخل الى اعادة فهم الواقع العربي ، (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربيه ، مايو ١٩٩٤) .

٨- انظر : Economic Dimensos of the Middle East Peace Process (Economic Intelligence Unit, Peace Media 1994.)

٩- William B. Quandt, " The Eclipse of Palestinian nationalism: 1947-1967, in The Politics of Palestinian nationalism , ed, Willian B. Quandt, Fuad Jabber, ann Mosely Lesch, (Berkeley: University of California Press, 1973) pp 4578

١٠- انظر محمد سعيد العشماوي ، الاسلام السياسي ، ط٣ ، (القاهرة : سينا للنشر ،١٩٩٢) .

١١- Meron Benvenisti, The West Bank Data Project: A suvey of Israele's Policies; Meron Benvenisti with Ziad Abu-Zayed and Danny Rubinstein, The West Bank Handbook.

١٢- شفيق الغبرا ، "السياسة الاسرائيلية : التحالف الحاكم وصراع التيارات" مجلة العلوم الاجتماعية ، ١٨ (صيف ، ١٩٩٠) ٤٩-٨٢

١٣- انظر شفيق الغبرا ، الكويت : دراسة في اليات الدوله القطريه والسلطة والمجتمع ، (القاهرة : دار الامين ومركز ابن خلدون للدراسات ، ١٩٩٥)

د. شفيق ناظم الغبرا

- مواليد الكويت عام ١٩٥٣
- استاذ مشارك في قسم العلوم السياسية في جامعة الكويت.
- رئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية (جامعة الكويت) منذ يوليو ١٩٩٦-
- حصل على شهادة البكالوريس من جامعة جورج تاون عام ١٩٧٥، الماجستير من جامعة بوردو ١٩٨٣، والدكتوراة من جامعة تكساس في اوستن عام ١٩٨٧.
- حاز كتابه الأول (الفلسطينيون في الكويت : العائلة والصراع من أجل البقاء)

Palestinians in Kuwait the Family and the Politics of Survival (Boulder: Westview Press, 1987)

على جائزة مجلة Choice للكتاب الاكاديمي المتميز عام ١٩٨٩.
- صدر كتابه الثاني بعنوان – الكويت : دراسة في آليات الدولة القطرية والسلطة والمجتمع ، (القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات، دار الأمين للنشر والتوزيع، ١٩٩٥)
- صدر كتابه الثالث عام ١٩٩٥ عن دار قرطاس للنشر والتوزيع ، وهو عبارة عن ثلاث دراسات وهو بعنوان " تداعيات احتلال الكويت " :
  ١. نقد العقل العربي المغامر حالة أزمة الخليج.
  ٢. الفلسطينيون والكويتيون : الصراع والفرص الضائعة.
  ٣. الكويت والولايات المتحدة : تطور السياسة الامريكية تجاه الخليج والحليف المتردد.
- للغبرا اكثر من ٢٥ بحثاً منشورا في مجالات الدول والمجتمع، والنزاعات، والاثنية، والصراع العربي الاسرائيلي، والقضية الفلسطينية، وأزمة الخليج، والعلوم الاجتماعية العربية.

إسرائيل والعرب!

من صراع القضايا إلى سلام المصالح

إن هذا الكتاب هو محاولة للتفكير بصوت مرتفع لصراع فتح الحوار والنقاش مع النخب العربي والمهتمين والمتابعين للقضية الفلسطينية والصراع العربي الإسرائيلي. إنه محاولة لتقييم التجربة السابقة بكل جوانبها وتقييم المرحلة الراهنة وآفاقها المستقبلية. إن هذا الكتاب يتأمل في إمكانية بروز فكر أكثر موضوعية في تعاملنا مع الصراع العربي الإسرائيلي وبالتالي فهو بداية بحث عن مستقبل بعيداً عن شبح الحرب ويعمل بهدف تطوير حياتنا السياسية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وإلى تحرير الثقافة. إن هذا الكتاب مجموعة من المقالات عن مرحلة صعبة وجديدة، وعن واقع صعب في عصر التحول.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
LE/DIRKAY